



جون ميرشايمر و ستيفن والت

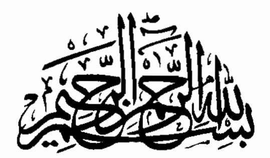
«اللوبي الإسرائيلي»

سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة

جايمس بتراس

سطوة إسرائيل

في الولايات المتحدة



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الانكليزي
The Power of Israel in the United States
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Clarity Press, Inc, Atlanta USA
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

سطوة إسرائيل

في الولايات المتحدة

جايمس بتراس

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-215-5



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

مقدمة 9

القسم الأول

النفوذ الصهيوني في أميركا

الفصل الأول: من اختلق العامل المهدِّد بشنّ الحرب على العراق 25

اللوبي اليهودي، وليس بيغ أويل 30

الفصل الثاني: الصلة الأميركية-العراقية الإسرائيلية - الصهيونية 40

من استفاد من حرب العراق؟..40

أسئلة لا إجابات عنها: 11 أيلول/سبتمبر والإسرائيليون 59

مسائل نظرية 60

من يموّل دولة إسرائيل 67

دعم الحكومة الأميركية لإسرائيل 72

السندات الإسرائيلية 77

شركاء في الإبادة الجماعية 81

شكل النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة...............................84

بنية النفوذ الصهيوني تتحرك: الحرب على العراق.........................88

إسرائيل وحريّة التعبير 103

الفصل الثالث: قضية ليبــي والحرب الداخلية 111

الحرب في الداخل...114

الفصل الرابع: الكشف عن الوقائع: سيمور هرش

والصلة الصهيونية-الإسرائيلية المفقودة 119

الصهاينة وممارسة التعذيب في العراق 122

نظرة متفحّصة لطريقة هرش..................................124
خاتمة 131

الفصل الخامس: محاكمة الجاسوس: قنبلة سياسية 135

آيباك قيد الاختبار 141

الفصل السادس: منـــزل الرعب: تعذيب، اغتيالات وإبادة جماعية.....153

بناء الإمبراطورية 153
تدعيم الإمبريالية 155
اغتيالات هادفة 157
تدمير البنية التحتية المدنية والعسكرية........................160
خاتمة 167

الفصل السابع: الحل النهائي كما تراه إسرائيل: الهجوم على غزة 171

مقدمة 172
من الحاضر إلى الماضي......................................174
القضاء النهائي على الأساطير الست للدولة اليهودية واللوبي........177
1- إسرائيل والديمقراطية 179
2- إسرائيل والسلام...180
3- إسرائيل وإمكانية حلّ قائم على دولتَين 182
4- إسرائيل والإرهاب..184
5- اللوبي اليهودي: القضية الرئيسية 185
6- إسرائيل وتبادل الأسرى: سجل الأحداث 190
حملة دعائية إعلامية في خدمة التطهير العِرقي 193
خاتمة 199

الفصل الثامن: "الكلب المسعور" يخرّب لبنان............................203

خاتمة 218

القسم الثاني

إسرائيل والحرب في الشرق الأوسط

الفصل التاسع: حرب إسرائيل مع إيران:

الحريق المدمّر المقبل على الشرق الأوسط............225

مقدمة...225

استعدادات إسرائيل للحرب 226

الموعد الأخير لحرب إسرائيل 228

تباينات أميركية-إسرائيلية حول الحرب ضد إيران...................230

تلفيق التهديد النووي الإيراني 241

خاتمة...248

الفصل العاشر: الرسوم الكاريكاتورية في سياسات الشرق الأوسط....253

الدانمارك: مركز نشاط الموساد.......................................256

فلمينغ روز: صحافي يخدم قضية 258

إثارة نــزاع بين المسلمين والغرب 259

السايانيم – المدافعون عن الحضارة الغربية.........................262

دعاية الموساد الحربية والجدل حول الرسوم الكاريكاتورية.........263

ما وراء التجديف الديني...266

خاتمة...270

القسم الثالث

خبراء في الإرهاب أم خبراء إرهابيون؟

الفصل الحادي عشر: خبراء في الإرهاب: النظر في المرآة............275

أسلوب خبراء الإرهاب 278

إستجواب: أسئلة تُطرَح على خبراء الإرهاب.........................282

الفصل الثاني عشر: زارعو المتفجرات الانتحاريون:

المقدَّس والنجِس..297

مقدمة 297

الحرب الشاملة: محتوى وعواقب.....................................299

الحرب الشاملة والمقاومة..300

الحط من قَدْر الناس: منطق الحرب الشاملة............................302

تقنية الحط من قَدْر الناس: المعنى الأشمل............................303

العواقب السياسية لتدنيس المقدَّسات 305

التفجير الانتحاري: رد فعل على المدنِّسين 306

خاتمة 308

القسم الرابع

نقاشات

الفصل الثالث عشر: نعوم تشومسكي واللوبي الموالي لإسرائيل:

خمس عشرة فَرَضية خاطئة..........................313

المقدمة 313

فرَضيات تشومسكي الخمس عشرة..316

خاتمة 337

الفصل الرابع عشر: مجابهة الصهيونية وإصلاح السياسة الأميركية

في الشرق الأوسط...................................339

مُقَـدِّمَـة

في 25 كانون الثاني/يناير 2006، صوّت معظم الشعب الفلسطيني لصالح حركة حماس في الانتخابات الأكثر حرية ونزاهة مقارنةً مع أي انتخابات أخرى جرت في أي بلد شرق أوسطي. وفور إعلان النتائج رفضت الحكومة الإسرائيلية الاعتراف بالنتيجة الديمقراطية، ورفضت تسليم المداخيل الناجمة عن جمع الضرائب إلى الفلسطينيين، وسدّت كل المنافذ، واستهلّت سلسلة عنيفة وطويلة من الحمَلات على المدن والقرى الفلسطينية، قاتلةً المئات.

في الفترة التي امتدّت أسبوعَين ونصف الأسبوع قبل الهجوم الفلسطيني في 17 نيسان/إبريل 2006 الذي أدّى إلى مصرع تسعة إسرائيليين، كانت القوات الإسرائيلية قد قتلت 26 فلسطينياً، بينهم خمسة أطفال، وجرحت 161 رجلاً، وامرأة، وطفلاً. في الواقع، ووفقاً للمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان الذي يحظى بالاحترام على الصعيد الدولي، قتل الإسرائيليون 19 فلسطينياً بمن فيهم ثلاثة أطفال بين 6 و12 نيسان/إبريل. ونُفِّذ "حكم الإعدام خارج نطاق المحكمة" بعشرة من هؤلاء، وأُصيب 94 فلسطينياً، بمن فيهم 32 طفلاً، بجراح. وشنّت قوات الاحتلال الإسرائيلية 27 غارة، مستهدفةً جماعات فلسطينية في الضفة الغربية و70 مدنياً فلسطينياً، واعتقلت ستة أطفال. لقد هاجم المستوطنون الإسرائيليون العديد من التجمعات الزراعية، فسرقوا المواشي وأتلفوا الممتلكات. وخلال تلك الفترة، شنّت القوات الإسرائيلية المسلّحة 369 غارة داخل الضفة الغربية.

أطلقت القوات الإسرائيلية 2300 قذيفة مدفع ودبابة و34 صاروخاً على غزة بين 30 آذار/مارس و12 نيسان/إبريل. وتورد تقارير المنظمة الدولية للدفاع عن الأطفال أنه تمّ اعتقال 4.000 طفل فلسطيني في السنوات الخمس الماضية (2001–2006)، وما زال 400 منهم في السجن حالياً. وفي 19 نيسان/إبريل 2006، وبعد الرّد الفلسطيني الانتقامي، إعتقل الإسرائيليون أمّهات وزوجات الرجال المُدرَجة أسماؤهم على لوائح المطلوبين، واحتفظوا بهنّ كرهائن في مراكز الاعتقال لإجبار الرجال على الاستسلام. واقتحم الجنود الإسرائيليون المساجد، وأجبروا أعداداً قياسيّة من العائلات على مغادرة منازلها بينما كانوا يبحثون فيها.

على نحو مماثل، ووفقاً لتقارير صادرة عن الأمم المتحدة، لم يَرِد على لسان أي زعيم أميركي أو أوروبي كلمة انتقاد واحدة عن إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل.

لم تذكر وسائل الإعلام المكتوبة والإلكترونية، سواءً كانت الإذاعة العامة الوطنية أو أية نشرات دعائية تابعة للّوبي اليهودي مثل *دايلي ألسيرت*، أيّاً من حملات القتل الإسرائيلية هذه. ولم يَرِد على لسان أي زعيم أميركي أو أوروبي كلمة انتقاد واحدة عن إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل. ولم تعمد النخبة السياسية بأكملها في واشنطن ووسائل الإعلام إلى شجب الإرهاب إلا عندما تبنّت مجموعة فلسطينية عمليّة التفجير، ودافعت حماس عن حق الانتقام. أصبحت الحيلة الدعائيّة للّوبي المتمثّلة بالتركيز بشكل حصري على الهجمات الفلسطينية الفرديّة والمتقطّعة، وتجاهل تنفيذ أحكام الإعدام اليوميّة والمنهجيّة التي تقوم بها إسرائيل، الطبق اليومي الذي تقدّمه

النخبة السياسية الأميركية ووسائل الإعلام للشعب الأميركي. ويصلح هذا الأمر لإضفاء الشرعية على تأييد اللوبي في عملية تجويع الشعب الفلسطيني وتبريرها بهدف إخضاعه، وعلى اقتراحه المتمثّل بقيام الكونغرس الأميركي بمنح معونة إضافية بقيمة 10 مليارات دولار مخصَّصة لإعادة توطين الإسرائيليين في الضفة الغربية.

بالرغم من سياسات الإبادة الجماعية هذه، إلتزمت حماس بوقف إطلاق النار وإن دافعت عن حق الفلسطينيين الدولي الذي يُجيز لهم مقاومة الاحتلال، متجاهلةً الحملات الإسرائيلية 'الصاعقة' والمستمرة على الفلسطينيين. في مقابل ذلك، أطلقت وسائل الإعلام الدعائية في الولايات المتحدة حملة استخدمت فيها كل الإمكانات المُتاحة لها للإطاحة بحكومة حماس إثر الهجوم الفلسطيني، في حين ربط اللوبي إيران بالحادثة في مسعى للتحريض على هجوم عسكري أميركي عليها.

تنكّرت الولايات المتحدة لسياستها الخاصة التي تطلق عليها زوراً اسم نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط.

وردّاً على الانتصار الذي حقّقته الديمقراطية الفلسطينية، وبعد تلقّيه التعليمات من الدولة الإسرائيلية، شنّ اللوبي الموالي لإسرائيل بأكمله والناطقون باسمه في الكونغرس والهيئة التنفيذية الحكومية هجوماً إعلامياً صاعقاً وناجحاً، وكانت النتيجة قيام واشنطن بتأييد كل مبدأ تتّبعه السياسة الإسرائيلية حيال حماس، وبشكل كامل. فقُطعت المعونات ولا سيما الإنسانية منها. ومُنع المسؤولون الأميركيون حتى من لقاء مسؤولي حماس أيّاً كان المنصب الذي يشغلونه، كما مارس الدبلوماسيون الأميركيون ضغوطاً على كل بلد

أوروبي وآسيوي وعربي وأميركي لاتيني للانضمام إلى الحصار الكامل الذي يشمل المعونات الإنسانية للفلسطينيين. وفيما أحجمت العديد من الدول العربية عن إيقاف المعونات-وكذلك فعلت فرنسا وروسيا- رفض قادة بعض الدول الذين تربطهم علاقة وثيقة بالولايات المتحدة منذ زمن طويل لقاء ممثّلين عن حكومة حماس. وتنكّرت الولايات المتحدة لسياستها الخاصة التي تطلق عليها زوراً اسم **نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط**. وسرعان ما استُبدل الترحيب الأوّلي لبوش بإجراء انتخابات ديمقراطية في فلسطين بتقبّل السياسة التي تتّبعها إسرائيل لتجويع الفلسطينيين بهدف إخضاعهم. وكانت هذه السياسات المتبدّلة، وإلى حدّ كبير، نتيجة للنفوذ الذي مارسه *اللوبي اليهودي*.

إن مراجعة *للدايلي أليرت*، بين كانون الثاني/يناير وأيار/مايو 2006، والتي ينشرها مركز الشؤون العامة في القدس لصالح مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية (توزَّع يومياً لكل عضو في الكونغرس والهيئة التنفيذية الحكومية في أميركا) توفّر دليلاً قاطعاً على الجهود المكثّفة التي يبذلها اللوبي اليهودي لخنق الاقتصاد الفلسطيني، والتشجيع على شنّ هجوم أميركي ضد إيران، وفرض حظر تجاري عليها. ويعد السيناتور جوزف ليبرمان الرائد في هذا المجال والأكثر عدوانيّة لجهة تقديم اقتراح بشنّ هجوم عسكري على إيران، وهو لسان حال وزارة الخارجية الإسرائيلية. ووفقاً لمقابلة معه في *جيروزالم بوست* (18 نيسان/إبريل 2006)، صرّح ليبرمان الذي هو أيضاً قائد رئيسي في اللوبي اليهودي ومتحدّثاً باسمه: "لا أعتقد أن أي شخص يعتبر الأمر بمثابة اجتياح برّي كبير، كما هو الحال في العراق،

للإطاحة بالحكومة... هي محاولة [باعتقاده] لتوجيه ضربة إلى بعض عناصر البرنامج النووي". ولا يُطلق ليبرمان تصاريحه النارية جذافاً، فقد كان المرشح السابق لمنصب نائب الرئيس عن الحزب الديمقراطي وأحد الناطقين باسمه الأكثر تأثيراً في شؤون الشرق الأوسط. وموقف ليبرمان المتمثّل بإلقاء قنابل فوق طهران هو تكرار حَرفي للموقف الإسرائيلي الحالي المؤيّد للحرب، كما أنه متطابق تماماً مع برنامج لجان العمل السياسي الأميركية-الإسرائيلية (آيباك-AIPAC)، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، واللجنة الأميركية اليهودية، والعُصبة المناهضة للقَدح، والمنظمة الصهيونية في أميركا.

يتناول هذا الكتاب نفوذ اللوبي اليهودي المؤثّر في سياسة الولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط. وبالإضافة إلى الدعم الأميركي غير المشروط لإسرائيل، تشمل هذه السياسة شنّ حرب عدوانية ضد العراق، والحثّ على القيام بهجوم عسكري على إيران، وضمان الدعم الأميركي للإحتلال الإسرائيلي في فلسطين، وإجبار الفلسطينيين على مغادرة بلدهم بأعداد كبيرة. لطالما أدرك القادة الإسرائيليون نفوذ اللوبي اليهودي في تحديد السياسة الأميركية، وقد سمح لهم هذا الأمر بالتأكيد بتجاهل المناشدات الرئاسية التي كانت تصدر من حين لآخر بهدف وقف المجازر، والاغتيالات، وتدمير المنازل، والعقوبات الجماعية، وممارسات أخرى تصبّ في إطار الإبادة الجماعيّة التي يتعرّض لها الفلسطينيون، والكفّ عن القيام بها. وكما قال رئيس الوزراء السابق أريئيل شارون ذات مرة متفاخراً بمدى تأثيره في الرئيس بوش: "الولايات المتحدة تحت سيطرتنا". ولكن وبالرغم من إدراكهم لحجم التمويل الأميركي المستمرّ وغير

المسبوق لإسرائيل، دخل عدد كبير من المراقبين التقدّميّين في حالة من الإنكار والرفض، أو ابتكروا مجادلات زائفة لشرح الرابط بين الدولة الإسرائيلية/اللوبي اليهودي والسياسة الأميركية في الشرق الأوسط. يزود هذا الكتاب في كل فصل من فصوله بتحليل موثّق للنفوذ الذي تمارسه إسرائيل من خلال اللوبي على السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.

قبل 170 عاماً، عبّر ألكسيس دو توكفيل، وكان مراقباً ذكياً للسياسات الأميركية، عن خوفه من "طُغيان الأكثرية"، أكثرية متمرّدة تتجاهل حقوق الأقليات سعياً وراء مصالحها الضيّقة[1]. وفي الوقت الحاضر، فإن التهديد الذي يواجه الديمقراطية، أقلّه في ما يتعلّق بالسياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط ومسائل الحرب والسلام، لا يكمن في أكثرية متمرّدة موجودة ضمن *جماعة الناخبين*، بل في أكثريّة من *جامعي التبرّعات* لصالح الحزب الديمقراطي وفي أقليّة من مموّلي الحزب الجمهوري. وفي كتابه *النفوذ اليهودي: داخل الجماعة اليهودية المنظّمة*[2] الذي يرتكز على معلومات تعود لأوائل التسعينيات، أشار جاي. جاي. غولدبرغ إلى أن 45 في المئة ممّا يُجمع من تبرّعات للحزب الديمقراطي و25 في المئة من التمويل المخصَّص للجمهوريين مصدرهما لجان العمل السياسي (PACs) التي يموّلها اليهود. ويُظهر مسح أحدث عهداً أجراه ريتشارد كوهين الذي يعمل لدى *واشنطن بوست* أرقاماً أعلى: 60 في المئة من التمويل

(1) ألكسيس دو توكفيل، الديمقراطية في أميركا، هاربر وروو، 1996.
(2) جاي. جاي. غولدبرغ، النفوذ اليهودي: داخل الجماعة اليهودية المنظّمة، نيويورك، بايزيك بوكس، 1997.

المجموع لصالح الديمقراطيين و35 في المئة من قيمة التبرّعات المجموعة لـصالح الجمهوريين مصدرها لجان العمل السياسي اليهودية الموالية لإسرائيل. وكل عمليّات جمع الأموال تقريباً التي يتولاها اللوبي لصالح الحزبَين مرتبطة بمسألة واحدة تلتقي عندها الانقسامات الحاصلة بين الليبراليين والمحافظين الجُدُد؛ دعم غير مشروط لإسرائيل، وسياساتها، ومؤسساتها، واستيلائها على الأراضي، وتعريفها السياسي-العسكري للأعداء. ولا يلعب أي لوبي آخر بمفرده هذا الدور المالي المهيمن في تمويل الأحزاب، بما في ذلك بيغ فارما، وبيغ أويل، وأرغو-بزنيس. وما سيكون من المشوّق دراسته هو ما سيعود من المعونة التي تقدّمها الولايات المتحدة لإسرائيل، والتي تتراوح ما بين 3 و19 مليار دولار، إلى اللّوبي عبر التحويلات المالية، والعقود المُربِحة بين المتبرّعين للّوبي والمؤسسات الإسرائيلية والمصارف. في هذه الحالة، يكون دافعو الضرائب الأميركيون يموّلون في الواقع شبكة من المنتمين إلى جماعات الضغط المحليّة العاملين لصالح قوة أجنبية. إن النفوذ المالي الذي يمارسه اللّوبي على الحزبَين معاً يسمح له بامتلاك قدرة مؤثّرة، ومكافأة الموالين لإسرائيل، ومعاقبة أي متشكّكين أو مخالفين من خلال تمويل مرشّحين بديلين أو إطلاق حملات قدح عبر "وسائل الإعلام الصديقة".

ولا يستخدم اللوبي اليهودي طغيان الأكثريّة من جامعي التبرّعات لضمان الحصول على امتيازات فردية خاصة فقط، بل أيضاً لضمان الأهداف الاستعمارية التوسعيّة للدولة الإسرائيلية وتفوّقها الإقليمي في الشرق الأوسط. ووفقاً لإيديولوجيّة الصهيونيّة الجديدة وصانعي السياسة، يتمثّل الهدف الأسمى بتحويل الشرق الأوسط إلى

'دائرة ازدهار' أميركية-إسرائيلية مشترَكة، وهو مشروع يتمّ تمويهه مـــن خـــلال الترويج للديمقراطية في الشرق الأوسط... من خلال ماسورة سلاح أميركي.

إن جـــذور نفـــوذ لجان العمل السياسي التابعة للّوبي تعود إلى النـــسبة العالية للعائلات اليهودية التي تُعتبَر من العائلات الأكثر ثراءً في الولايات المتحدة. ووفقاً لمجلة *فوربس*، فإن ما بين 25 و30 في المئة من أصحاب الملايين العدّة والمليارات في الولايات المتحدة هم يهود. وإذا أضـــفنا المـــساهمات الـــتي يقدّمها أصحاب المليارات من يهود كـــنديين للّـــوبي إلى أصـــول تشكّل أكثر من 30 في المئة في سوق الأوراق المالـــية الكـــندية، يمكننا إدراك مدى نفوذ اللوبي في إملاء سياسة الشرق الأوسط على الكونغرس والهيئة التنفيذية الحكومية.

إن لطغيان إسرائيل على الولايات المتحدة عواقب وخيمة على الـــسلام والحـــرب في العالم، وعلى استقرار وعدم استقرار الاقتصاد العالمـــي، ومستقبل الديمقراطية في الولايات المتحدة. إن هذه الدراسة موضـــوع هذا الكتاب التي تتناول اللوبي لا تناقش موضوع أي لوبي آخر يمارس ضغوطاً على الكونغرس بهدف الحصول على معونة مالية إضافية من الميزانية، أو على إعفاء من الضرائب، أو جزء من تشريع يستفيد منه اقتصاد معيَّن أو مصلحة إقليمية. لقد أدّت مطالب اللوبي مباشَرةً إلى الحصول على دعم أميركي لحروب إسرائيل العدوانية ضد الـــدول العربية عام 1967، و1973، و1982؛ وللحربين الأميركيتين ضد العراق عام 1991 و2003؛ والاجتياح إسرائيل للبنان وغزة عام 2006؛ وتهديـــدات عـــسكرية مستمرة ضد إيران وسوريا منذ العام 2001 وحتى الوقت الحاضر 2006. ومن غير المفاجئ أن تعتبر أكثرية

واضحة من الأوروبيين إسرائيلَ التهديد الأكبر للسلام العالمي[1]، وأن اللوبي يردّ من خلال وسائل الإعلام المؤيّدة له بادّعاءات صارخة يمكن الـــتوقع بها تشير إلى "معاداة للساميّة على نطاق واسع في مختلف أنحاء أوروبـــا وعلى مختلف مستويات المجتمع". وتردّد صدى هذه الادّعاءات لاحقاً في واشنطن استجابةً لحملة اللوبي، كما بدا تأثيرها لدى قيام إدارة بوش بإكراه أوروبا على تأييد موقفها العدواني حيال الشرق الأوسط.

إن المسائل التي طرحها طغيان إسرائيل، واللوبي بالوكالة، على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي أكثر خطورة من أن يـــتمّ التعاطـــي معهـــا بشكل ثانوي بسبب الخوف من الحملات الكلامـــية، أو الابتـــزاز المؤسَّساتي، أو النَبذ من قِبَل الزملاء المُحبّين للإسرائيليين. وهذا هو حال المفكرين الأميركيين بصفة خاصة الذين يواجهـــون معضلة في كيفيّة الرّد على واقع وجود أكثر من 20.000 إصابة (وهي في تزايد) في صفوف الأميركيين في العراق، وأكثر من 250.000 قتيل عراقي[2]، و4 ملايين فلسطيني يواجهون الموت جوعاً بـــسبب حـــصار أميركي يدعمه اللوبي ويمنع تمويل حكومة حماس

(1) طلـــبت المفوّضـــيّة الأوروبية إجراء استطلاع للرأي العام، وقامت به مؤسستا تايلـــور نلـــسن ســـوفريس/إي أو أس غالـــوب يوروب بين 8 و16 تشرين الأول/أكتوبـــر 2003. ووجـــد الاســـتطلاع أن 59 في المئة من الأوروبيين يعتقدون أن إسرائيل تمثّل العائق الأكبر أمام السلام في الشرق الأوسط والعالم.

(2) وفقاً للي روبير (مركز الدراسات المتعلقة بالكوارث العالمية الطارئة واللاجئين في كليّة جونـــز هوبكنـــز بلومبرغ للصحة العامة، وأحد أبرز الاختصاصيين العالمـــيين بالوبائيات وكاتب رئيسي لـــ ذا لانست ريبورت) قد يكون هناك حوالى 300,000 مدني عراقي في عداد الأموات. (انظر إلى لي روبير، "هل أن الإصـــابات المدنـــيّة في العـــراق هـــي ذات أهمـــية؟" ألتـــرنت، 8 شباط/فبراير 2006.

الديمقــراطية. وبناءً على ما تقدم تترتّب علينا مسؤولية خاصة حيال الشعب الأميركي لوصف ثروة اللوبي، ونفوذه، وعملياته، وتأثيراته، والكشف عنها وعن ارتباطاته بدولة إسرائيل الاستعمارية والتوسعيّة والتي تؤيّد التمييز العنصري. (أظهر استطلاع للرأي العام في إسرائيل نــشرته صــحيفة *هاآرتس* اليومية الليبرالية أن 68 في المئة من اليهود الإســرائيليين يرفضون العيش بجوار عربيّ. وتُظهر الإستطلاعات مرةً بعــد مــرة أن نحو نصف اليهود الإسرائيليين يفضّلون هجرة العرب القــسريّة مــن فلــسطين؛ إنها سياسة يمارسها الحزبان الإسرائيليّان الرئيــسيّان مــن خــلال الاستيلاء على الأراضي بالقوة، والتفتيت الجغرافي، والحصارات الاقتصادية).

في مــواجهة طغــيان إســرائيل واللوبي التابع لها، يترتّب على المفكّــرين الأميركــيين مسؤولية التأكيد على حرّيّة عقد مناظرات تتــناول محــور إسرائيل-اللوبي، والبحث في شأنه وانتقاده، ومن ثمّ اســتخدام تلك الحرّيّة لتشخيص سياسة خارجية ديمقراطية بعيدة عن الحروب الإمبريالية البديلة، وانتقادها وتنظيمها. ولا يكفي أن تكون هــناك *إرجاءات طيّ الكتمان* لمعالجة مسألة خضوع زملائنا لطغيان اللــوبي الإســرائيلي. ومــن غير المقبول التعبير عن جُبننا عبر رفض زملائــنا الأكاديمــيين مناقشة الأضاليل والأعذار المتعلّقة بالإرهاب الإســرائيلي في الأراضــي المحــتلّة، مخافة إثارة احتجاجات كلامية هــستيرية تنعتنا بالمُعادين للساميّة المتسلّلين أو السرّيّين. ويجب على المفكّرين الأميركيين رفع النّقاب عن حرّيّتهم لاستهلال مناقشة علنيّة وقــويّة للعــواقب الكارثيّة التي تنجم عن اتّباع خط إسرائيل/اللوبي الداعي إلى حروب شرق أوسطية متعاقبة. ويجب علينا الكشف عن

نظام النفوذ هذا، وطريقة تنظيمه، وامتداداته الدولية؛ دون موارَبة. ومهمّة المفكّرين الأميركيين ليست سوى ثورة ديمقراطية، ولا يجب أن تكون أقل من ذلك: للإطاحة بطغيان لجان العمل السياسي الموالية لإسرائيل على سياستنا الخارجية حيال الشرق الأوسط وعلى سوق الأفكار الأكاديمية، إضافةً إلى طغيان اللوبي على وسائل الإعلام لدينا ممّا يؤدّي إلى انحيازها الواضح لإسرائيل واللوبي. ويجب على المفكرين تحدّي طغيان اللوبي على ميزانية معوناتنا الخارجية. ويجب على المفكرين الناشطين بصفة خاصة تحدّي حركات السلام التي ترفض انتقاد اللوبي أو السياسات العسكرية لإسرائيل.

لقد حقّق اللوبي وإيديولوجيته هيمنة فكرية من خلال عمليات إكراه وإقناع استهدفت نطاقات من الحياة العامة التي تُعتبر رئيسية لجمهوريّتنا؛ تقييم التهديدات التي تواجه حرّيّاتنا وتقرير المصير، والرّد عليها. وقد حان الوقت لإطلاق حركة مناهضة للهيمنة هنا في الولايات المتحدة، لا في سبيل إمبراطورية من نوع مختلف متحرّرة من الأشراك الإسرائيلية، بل ببساطة لإعادة بناء جمهورية ديمقراطية توفّر حريّة حقّة في التعبير ومناقشة المسائل الحاسمة المرتبطة بخَير الأميركيين.

هذا الكتاب هو مسعى متواضع لبلوغ ذلك الهدف. ويركّز القسم الأول النفوذ الصهيوني في أميركا على دور المسؤولين الموالين لإسرائيل في الحكومة، وعلى دور اللوبي في دفع الولايات المتحدة على شنّ حرب العراق (الفصلان 1 و2). كما يخصّ بالذكر النزاع القائم ضمن النُخَب داخل الحكومة بين *المنادين بمصالح إسرائيل أوّلاً* والمسؤولين التقليديين الموالين بشكل أعمى للدولة (الفصل 3). من جهة ثانية، لا يقتصر النفوذ الصهيوني على اللّوبي

فقـــط بل تعكسه أيضاً تقارير الصحافيين التحقيقيين الذين يتجنّبون بشكل منهجي الدور الواضح للمنادين بمصالح إسرائيل أوّلاً، (الفصل الرابع). وفي حين عجز المراسل الصحافي التحقيقي هرش في كشف النقاب عن العلاقة الإسرائيلية-الصهيونية بالحرب، اكتشفت الأف بي أي حالة جاسوسيّة ثلاثيّة الأطراف يشارك فيها عناصر رئيسيون في آيـــباك مـــرتبطون بمسؤول استراتيجي عالي المنصب وبجاسوس في الموساد يتمتّع بمهارة عالية في السفارة الإسرائيلية (الفصل 5).

في القـــسم الـــثاني، نناقش دور التعذيب، والاغتيالات، والإبادة الجماعـــية، بـــصفتها ممارسات أساسية لبناء الإمبراطورية الأميركية-الإســـرائيلية (الفـــصل 6). ونركّز بصفة خاصة على اجتياح إسرائيل الهمجـــي لغزة كونه مثالاً واضحاً على التطهير الاثني من خلال التفجير الإرهـــابي وتدمير البنية التحتية المدنية (الفصل 7). والإبادة الاثنية التي اتّبعـــتها الدولـــة اليهودية في غزة دون فرض أي عقوبات عليها كانت تجربة حيّة للهجوم على لبنان وارتكاب إبادة جماعية على نطاق واسع، ممّا يُثبت العلاقة بين الإفلات من العقوبة والاعتياد على ارتكاب الإبادات الجماعية. وفي غزة ولبنان، لعبت جماعات الضغط اليهودية دوراً رئيسياً لـــضمان دعم واشنطن غير المشروط للمحرقة - الهولوكوست - التي ارتكبـــتها إسرائيل في لبنان (الفصل 8). ويوجز الفصل 9 دور إسرائيل ووكلائهـــا الأميركـــيين في إعداد الولايات المتحدة للحرب ضد إيران، وعـــواقب هذه الحرب الكارثية المحتمَلة. والنفوذ الإسرائيلي إيديولوجي بقـــدر ما هو عسكري. أما في الفصل 10، "سياسات الشرق الأوسط ومنحاها الكاريكاتوري"، فنناقش استخدام إسرائيل للقتال الإيديولوجي كوسيلة لإيجاد قطبيّة مفيدة بين المسيحيين والمسلمين.

في القسم الثالث، نتوسّع بتحليلنا لنعرض للحرب السيكولوجية والأسس الأخلاقية للمقاومة. ونحلّل في الفصل 11 دور خبراء الإرهاب الإسرائيليين والمنتمين إلى اللوبي الذين يسلّطون عنف الجلّادين على الضحايا: الضحايا هم بالطبع فلسطينيون ومسلمون، والشعب العربي والمقاومة. ومن خلال ادّعاءات بامتلاك "الخبرة" واستخدام انتساباتهم الرفيعة إلى المؤسسات، يستعين خبراء الإرهاب بأوصاف مجرَّدة من الصفات الإنسانية لينعتوا أعداءهم بالمعادين للإسرائيليين والمعادين للإمبرياليين بهدف تبرير التعذيب والمعاملة المُهينة، والاعتقالات الكميّة الاعتباطيّة، والعقاب الجماعي لشعب بأكمله. وبعكس أحكام خبراء الإرهاب المتشبثين برأيهم، نعرض في الفصل 12 وجهة نظر بديلة حول 'المفجّرين الانتحاريين' تركّز على الأثر السلبي للضرر المادّي والروحي والوجودي البالغ الذي تتسبّب به القوى الإمبريالية الاستعمارية بوصفها صاعق الهجمات الانتحارية في مواجهة الاختلالات الكبيرة في التوازن العسكري.

أما القسم الرابع، فيتطرّق إلى النزاع السياسي المستمر حول أهميّة اللوبي في تحديد شكل السياسة الأميركية الإمبريالية بما يتناسب ومصالح مجموعات أخرى (الفصل 13). ونُثبت بصفة خاصة، ونقطة بنقطة، بُطلان محاولة نعوم تشومسكي التقليل من شأن دور اللوبي، ومن ثمّ نتفحّص الدور المزعوم للمصالح الاقتصادية لبيغ أويل وفايننس كابيتال التي دفعتهما إلى الترويج لحرب العراق والتوعّد بحدوث مواجهة مع إيران. وفي الفصل 14، نناقش إمكانيات مواجهة الصهيونية، والمطالبة بحرّية مناقشة السياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط.



القسم الأول

النفوذ الصهيوني في أميركا



الفصل الأول

من اختلق العامل المهدِّد بشنّ الحرب على العراق

إن السجال والانتقاد اللذَين جريا في الكونغرس الأميركي ووسائل الإعلام وتناولا الدليل الذي اختلقته إدارة بوش بامتلاك العراق أسلحة دمار شامل، إضافةً إلى مجموعة كبيرة من الأعمال الناجمة عن سوء التصرف (الكذب على الكونغرس، محاكم عسكرية في غوانتانامو، وتعذيب في أبو غرَيب، وأداء السي آي ايه، والتجسس على الأميركيين، والفساد بصورة عامة) بلغا في نهاية المطاف حدّ محاولة قيام الكونغرس بإجراء تحقيق رسمي على خلفيّة اتهام بالخيانة[1]. والتحقيق الأوّلي الذي جرى مع مسؤولين عسكريين أميركيين ذوي مراتب عليا ومسؤولين مدنيين، في البنتاغون ووزارة الخارجية، كشف عن خلافات وانقسامات عميقة بينهم وبين المعنيين *السياسيين* أُضيفت إليها بعض الديباجات المحمِّلة من خلال قيام

---

(1) وقّع ثلاثون عضواً من مجلس النواب على التحقيق بصفتهم مقدّمي اقتراح إتش. ريس 635، لا مشاركين في تقديمه، الذي يتمّ بموجبه تشكيل لجنة مختارة "للتحقيق في عزم الإدارة على الذهاب إلى الحرب قبل قيام الكونغرس بالتفويض بذلك، وإعداد أجهزة مخابرات ما قبل الحرب، وتشجيع وتأييد التعذيب، والرّدّ على المنتقدين، وإعداد توصيات متعلّقة بأسباب اتهام محتمَل بالخيانة". وأُحيل مشروع القرار إلى لجنة القوانين المنبثقة عن مجلس النواب في 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.

جنـــرالات متقاعدين بإطلاق تصاريح علنيّة ضد إدارة بوش، مدّعين عكـــس وجهات نظر القوات المسلّحة العاملة في الميدان وداعين إلى استقالة دونالد رامسفلد[1]. والشهادة والدليل المرتكز على ما كشف عـــنه المحتـــرفون أمران حاسمان لفهم بنية النفوذ الحقيقي داخل إدارة بـــوش، لأنـــه في زمـــن الأزمات والانقسامات التي تشهدها الطبقة الحاكمة يمكننا والرأي العام النفاذ إلى كُنه الأمور حول من يحكم في الواقـــع ولحساب أي جهة. والسجال المستمر، والانتقاد، والانقسام الحاصل في واشنطن اليوم هي أمثلة حيّة على ما تقدّم.

فـــبعد سنوات من أعمال تفتيش أجرتها الأمم المتحدة، وبحث شـــامل قامت به مجموعة المعاينة والتدقيق في العراق طيلة 15 شهراً، وذلـــك إثر آلاف أعمال البحث والمقابلات التي أجراها نحو عشرة آلاف جـــندي ورجل مخابرات ومفتّش علمي، ثبت بشكل قاطع أن العـــراق لم يكـــن يمتلك أسلحة دمار شامل (أو حتى وسائل صالحة للـــدفاع الوطني)، وقد أقرّ الرئيس جورج دبليو بوش بهذا الواقع في الـــنهاية. وطرح هذا الوضع السؤال الجوهري: من الذي وفّر الدليل المختلَق في نظام بوش ولأي هدف؟

مـــا كان للمدافعين عن بوش سوى أن عزوا التلفيقات، وكردّ أوّلي، إلى "أخطاء بيروقراطية وإخفاق في المعلومات المبلّغة"، أو كما ادّعـــى نائـــب وزير الدفاع آنذاك بول وولفويتز، وبطريقة ساخرة،

---

(1) ديفـــيد أس كـــلاود وإريك شميت، "مزيد من الجنرالات المتقاعدين يطالبون باســـتقالة رامسفلد"، نيويورك تايمز، 16 نيسان/إبريل 2006. الجنرالات هم: اللواء بول دي إيتن، الجنرال أنطوني سي زيني، الفريق غريغوري نيوبولد، اللواء جون باتيست، اللواء جون ريغز، واللواء تشارلز إتش سواناك جونيور.

الحاجـــة إلى "ضمان حصول إجماع حول سياسة الحرب". وأصبح مدير السي آي ايه، تينت، كبش الفداء بسبب اعترافه *بالأخطاء*. من جهة ثانية، ومع تقدّم التحقيقات، أظهرت الشهادات التي تقدّمت بها مجموعة كبيرة من المصادر العالية المستوى في النظام وجود قناتَين من المستـــشارين لصنع السياسة، 1) بنية رسمية مؤلّفة من عناصر محترفين في مهنـــتهم ومدنيين من البنتاغون ووزارة الخارجية، و2) بنية موازية داخل البنتاغون مؤلّفة من معيَّنين سياسيين. وأظهرت الأدلة المتوافرة أن المستـــشارين السياسيين *غير الرسميين* الذين عيّنهم وولفويتز وفيث ورامـــسفلد في مكـــتب وضع الخطط الخاصة (OSP) كانوا مصدر الدلـــيل المختلَق الذي استُخدم *لتبرير* اجتياح العراق واحتلاله. وهذه الإدارة الـــتي مارست مهامّها لفترة وجيزة بين أيلول/سبتمبر 2002 وحزيـــران/يونيو 2003 كان يرأسها آدم شولسكي وتضمّ محافظين جدداً آخرين لم يكونوا يتمتّعون عملياً بأي معرفة مهنيّة، ولم يكونوا مـــؤهَّلين علـــى الصعيد المخابراتي والعسكري. وقام دوغلاس فيث، مساعد نائب وزير الدفاع آنذاك، وبول وولفويتز بإنشاء أو أس بي. وكـــان شولسكي تابعاً مخلصاً لريتشارد بيرل ويحظى برعايته، وبيرل هـــو الشخص ذو الروح العسكرية الذائع الصيت ومؤيّد الهجمات العسكرية منذ زمن طويل على الأنظمة العربية في الشرق الأوسط.

ووفقـــاً لـــشهادة أحـــد أفـــراد البنتاغون، وهي المقدَّم كارن كوياتوســـكي الـــتي عملـــت في مكتب مساعد نائب وزير الدفاع للـــشؤون السياسية، وفي قسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا، وأو أس بي في البنـــتاغون، فـــإن "جهاز الخدمة المدنية والمحترفين العسكريين المـــناوبين والناشطين لم يكونوا مشاركين بشكل ملحوظ في مجالات

الاهـــتمام الرئيسية لفيث ووولفويتز ورامسفلد"، وبالتحديد إسرائيل والعراق. وأعطت المقدَّم كوياتوسنكي مزيداً من التفاصيل مفادها أنه "في مـــا يتعلّق بإسرائيل والعراق كان يتولّى معيَّنون سياسيون مهمة إدارة كافة أعضاء فريق العمل الرئيسي، وفي حالة إسرائيل كان المعيَّن موظفاً إدارياً من مؤسسة سياسة الشرق الأدنى في واشنطن، وفي حالة العـــراق كان آيب شولسكي". وبالأهمية نفسها، أشارت المسؤولة الـــسابقة في البنـــتاغون إلى وجـــود "أفراد من وكالات متنوّعة". ووصـــفت كـــيف أن أعـــضاء تشكيلة متنوّعة من المحافظين الجدد والمنظمات الموالية لإسرائيل (مشروع القرن الأميركي الجديد، ومركز السياسة الأمنية، ومعهد المؤسسة الأميركية) يشغلون أيضاً مناصب في نظـــام بـــوش ولا يـــتفاعلون مع بعضهم البعض إلا من خلال هذه الـــوكالات المتنوّعة. وأشارت إلى أن القرارات الرئيسية تصدر "طبقاً للقيَم والمبادئ" الموافَقة على نشر وجهات نظر دون انتقاد، والموافقة علـــى وجهـــات النظـــر الهـــزيلة والمعزولة دون انتقاد. وأُجبرت كوياتوســـكي على تقديم استقالتها، وذلك من قِبَل رئيسها الأعلى، بعد أن أخبرته بأن "بعض الجماعات (زُمَر وشبكات) في البنتاغون قد تمـــثُل إلى جانـــب صدام حسين أمام محكمة جرائم الحرب" بسبب حربها المدمّرة وسياسات الاحتلال.

ومـــا بـــات واضـــحاً جـــداً هو أن أو أس بي ومديرَيه، فيث وولفويتـــز، كانا مسؤولَين بصفة خاصة عن الدليل المختلَق بامتلاك العراق "أسلحة دمار شامل"، والذي برّر شنّ حرب على هذا البلد. وتـــشاطر أو أس بي وأعـــضاء آخـــرون في الـــشبكات العاملة مع الـــوكالات الأميركـــية الرئيـــسية إيديولوجـــية يمينيّة مؤيّدة للعمل

العسكري، وكانوا موالين لإسرائيل بشكل تعصّبي. وأعدّ فيث وبيرل وثيقة سياسية سيّئة السمعة عام 1996 للمتطرّف في حزب الليكود، بنيامين نتنياهو، بعنوان "عملية سَحق نظيفة: إستراتيجية جديدة لضمان أمن العالم"، ودعت إلى تدمير صدام حسين واستبداله بمَلك ينتمي إلى السلالة الهاشمية. وأكّدت الوثيقة أنه سيكون من الواجب في هذه الحالة الإطاحة أيضاً بحكومات سوريا ولبنان وإيران، أو زعزعة استقرار هذه الدول، وذلك بهدف ضمان أمن إسرائيل في إطار 'منطقة ازدهار أميركية-إسرائيلية مشترَكة أكبر'. وأُشير بالبَنان، وبوضوح، إلى المتعصّبين الصهاينة الذين أداروا أو أس بي – كأبرام شولسكي وفيث – كونهم مصدر "المخابرات الزائفة" التي أدّت إلى الحرب، وهذا ما كان يسعى إليه وولفويتز ورامسفلد. وأشارت الطريقة التي اعتمدها المتعصّبون الصهاينة في التنظيم والتصرّف – كزُمرة متعجرفة معادية لأي وجهات نظر مناقضة يُبديها رجال المخابرات المحترفون، والمدنيون، والمسؤولون العسكريون – إلى أن ولاءاتهم وارتباطاتهم كانت لجهة أخرى، ومن الواضح أنها كانت لنظام شارون في إسرائيل. وكما كتب جوليان بورغر في *الغارديان* في 17 تموز/يوليو 2003، "أقامت أو أس بي روابط وثيقة للقيام بعملية مخابراتية موازية ذات هدف محدَّد داخل مكتب أرييل شارون في إسرائيل لتجنّب الموساد بصفة خاصة، وتزويد إدارة بوش بتقارير عن العراق أكثر إثارة للذُعر – وبلا مبرِّر – من التقارير التي كان الموساد مستعداً للسماح بها". ومن المثير للاهتمام الإشارة إلى أن الصهاينة اليمينيين الذين يمتلكون النفوذ في إدارة بوش كانوا يوفّرون في الواقع *تقارير* عن العراق مغايرة لتقارير الموساد الإسرائيلي التي لم

تكـــن تعتبر أن العراق يمثّل أي "تهديد" للولايات المتحدة أو إسرائيل. وشاطرت الـــسي آي ايه شكوكية الموساد، وقد أعلمت إدارة بوش بعدم وجود أسلحة دمـــار شـــامل[1]. وبقـــيام وكالات المخابـــرات الرئيـــسية في إســـرائيل والـــولايات المـــتحدة بتقديم معلومات مختلفة، هل من المقنع التسليم بأن نتائج بحـــث الـــسي آي ايه والموساد حول أسلحة الدمار الشامل العراقية أُبطلت بسبب معلومات أفضل لا بسبب نفوذ أكبر؟

بقيام وكالات المخابرات الرئيسية في إسرائيل والولايات المتحدة بتقديم معلومات مختلفة، هل من المقنع التسليم بأن نتائج بحث السي آي ايه والموساد حول أسلحة الدمار الشامل العراقية أبطلت بسبب معلومات أفضل لا بسبب نفوذ أكبر؟

اللوبي اليهودي، وليس بيغ أويل

علـــى عكس وجهة نظر معظم التقدميين الأميركيين القائلة إن الـــنفط، ولا سيّما مصالح بيغ أويل، هي المحرّك الرئيسي، فلا وجود لأي دليل على أن شركات النفط الأميركية الرئيسية مارست ضغوطاً علـــى الكونغـــرس أو شجّعت لشن الحرب على العراق أو المواجهة الحالـــية مـــع إيران؛ بل بالعكس: هناك الكثير ممّا يشير إلى أن هذه الـــشركات قلقة جداً من الخسائر التي قد تنجم عن هجوم إسرائيلي على إيران. وعلاوةً على ذلك، يبدو من المنطقي افتراض أن بيغ أويل

(1) تشير بيّنات حديثة العهد لضباط متقاعدين في الـــ سي آي ايه، مثل بول بيلار وتاي درامهيلر، إلى أن الـــ سي آي ايه أخبرت إدارة بوش بعدم وجود أسلحة دمـــار شامل في العراق، ولكن تمّ تجاهلها. انظر لاري جونسون، "لِمَ استقال العشرات؟" تروثاوت، 6 أيار/مايو 2006.

بعيدة عن كونها سعيدة بتحمّل عقوبة كل ما يجري في الشرق الأوسط، ولا سيّما عندما تمتزج الأحداث مع الغضب الشعبي بسبب ارتفاع أسعار الغاز، وتؤدّي إلى تحقيقات رسمية من قِبَل مجلس الشيوخ.

هناك كثير من الأدلّة في السنوات الخمس عشرة الماضية تشير إلى أن:

1. شركات النفط لم تشجّع سياسة حربيّة.
2. الحروب أضرّت بمصالحها، وعملياتها، واتفاقاتها المعقودة مع أنظمة عربية وإسلامية بارزة في المنطقة.
3. تمّت التضحية بمصالح شركات النفط صَوناً لمصالح إسرائيل.
4. نفوذ جماعات الضغط الموالية لإسرائيل يفوق نفوذ شركات النفط في تحديد شكل السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.

وإن بحثاً دقيقاً في المنشورات ومحاولات صناعة النفط التأثير في القرارات، إضافةً إلى بحث في نشاطات جماعات الضغط الموالية لإسرائيل في العقد الأخير، يُظهر قدراً كبيراً من الوثائق التي تُثبت أن جماعات الضغط اليهودية كانت مؤيّدة للحرب أكثر من صناعة النفط، وإلى حدٍّ بعيد. وعلاوةً على ذلك، تُثبت السجلات العامة لصناعة النفط مستوى مرتفعاً من التعاون الاقتصادي مع كافة الدول العربية وتكامل متزايد للأسواق. وعلى عكس ذلك، كانت التصاريح العلنيّة لجماعات الضغط السيهودية الموالية لإسرائيل والأكثر قدرة وتأثيراً على الصعيد الاقتصادي، إضافةً إلى منشوراتها ونشاطاتها، تهدف إلى زيادة عدوانية الحكومة الأميركية حيال البلدان العربية، بما في ذلك ممارسة حدّ أقصى من الضغط لصالح قيام الحرب في العراق، ومقاطعة إيران أو شنّ هجوم

عـسكري عليها، ودعم الولايات المتحدة عمليات الاغتيال الإسرائيلية والتطهير الاثني التي يتعرّض لها الفلسطينيون.

إن المـثال الأكثر لفتاً للنظر عن النفوذ اليهودي المؤثّر في تحديد السياسة الأميركية في الشرق الأوسط بما يتعارض ومصلحة بيغ أويل يظهر بوضوح في السياسة الأميركية-الإيرانية. وكما تذكر *الفاينشل تايمـز*: "تقـوم شركات النفط الدولية بتعليق مشاريع في إيران تبلغ قيمـتها عـدة ملـيارات من الدولارات بسبب قلقها من التحفّظ الدبلوماسـي [الـتهديدات الاقتصادية-العسكرية الأميركية] حيال البرنامج النووي لهذا البلد"[1]. وفي الواقع، وكما أشار مايكل كلير:

> ممّا لا شك فيه أن شركات الطاقة الأميركية الرئيسية تفضّل اليوم العمل مع إيران لتطوير مخزونات النفط والغاز هذه. ومـن جهـة ثانية، تُمنع في الوقت الحاضر من القيام بهذا الأمـر بمـوجب النظام الإجرائي رقم 12959 الذي وقّعه الـرئيس كلينـتون عـام 1995 وجـدّده الرئيس بوش في آذار/مارس 2004[2].

بالـرغم مـن واقع أن مليارات الدولارات مستثمَرة في عقود الـنفط والغاز والبتروكيميائيات، فقد أثّر اللوبي الموالي لإسرائيل في الكونغرس لمنع كل شركات النفط الأميركية الرئيسية من الاستثمار في إيـران. ومـن خـلال حملته في الكونغرس والإدارة الأميركيين

(1) فاينشل تايمز، 19/18 آذار/مارس 2006 الصفحة 1.

(2) مايكـل كلـير "الـنفط، الجيوبوليتـيكا والحـرب القادمـة مـع إيران"، TomDispatch.com، 11 نيـسان/إبـريل 2005. يتجاهل كلير كليّاً دور اللوبي، مركّزاً على خدعة المصلحة النفطية حتى بعد إثبات عجزهم عن تحديد السياسة الأميركية!

باستخدام كل الإمكانات المُتاحة، أوجد اللوبي الإسرائيلي-اليهودي-الأميركي مناخاً شبيهاً بمناخ الحرب يوفّر أجواء معاكسة لمصالح كل شركات النفط الرئيسية في مختلف أنحاء العالم كبريتيش بتروليوم، وهي شركة الغاز التي مركزها المملكة المتحدة، وساسول (جنوب أفريقيا)، ورويال داتش شيل، وتوتال الفرنسية، وغيرها.

يجدر التفكير ملياً بما إذا كانت "الحرب لأجل النفط" هي نفسها "الحرب *لأجل مصالح بيغ أويل*".

يجدر التفكير مليّاً بما إذا كانت "الحرب لأجل النفط" هي نفسها "الحرب *لأجل مصالح بيغ أويل*". وكتب يحيا الصادوسقي في المجلة الشهرية الفرنسية ذات المكانة العالية *لو موند ديبلوماتيك*، في نيسان/إبريل 2003، مناقشاً:

كجزء من مخططهم الكبير لاستخدام عراق محرَّر قاعدةً يروّجون من خلالها للديمقراطية والرأسمالية في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، يريد المحافظون الجدد قيام بغداد باستكشاف احتياطيات جديدة، وزيادة الطاقة الإنتاجية بسرعة وإغراق السوق العالمية بالنفط العراقي. هم يعلمون أن هذا الأمر سيؤدّي إلى انهيار في سعر النفط إلى حدود الخمسة عشر دولاراً للبرميل الواحد أو أقل. وهم يأملون في أن يحفّز هذا الانهيار نموّاً اقتصادياً في الولايات المتحدة والغرب، فيدمّر في النهاية أوبيك (منظمة الدول المصدّرة للنفط)، ويحطّم اقتصاديات الدول المارقة، ويخلق مزيداً من الفُرَص "لتبديل النظام" واعتماد النظام الديمقراطي...

لقد قامت شركات متعدّدة الجنسيات - شركات عملاقة كإكسون موبايل، وبريتيش بتروليوم، وشيل، وتوتال،

> وشيفرون–تكساكو – بتنويع مصادر الإنتاج، وباتت مخاوفها أقل من إمكانية انهيار السعر. ولكن الإدارة الأميركية لا تستمع إليها (معظمها غير أميركية). ولدى انتخاب بوش الإبن، مارست هذه الشركات ضغوطاً كبيرة لإبطال قانون العقوبات المفروضة على إيران وليبيا، إضافةً إلى إجراءات حظر تجاري أخرى، حدّت من اتّساع نطاق ممتلكاتها في الشرق الأوسط. ورفض فريق بوش طلباتها، وأصدر نائب الرئيس ديك تشيني سياسته المتعلّقة بالطاقة الوطنية عام 2001 التي ركّزت على فتح مناطق جديدة داخل الولايات المتحدة لاستكشاف الطاقة[1].
>
> ... ولشركات النفط المتعددة الجنسيات، الأميركية منها وغيرها، الكثير ممّا يدعوها للخجل، بدءاً بنهب مخزونات دلتا النيجر وانتهاءً بدعم إرهاب الدولة في إندونيسيا. ولكنها لم تكن تدفع في اتجاه شنّ حرب على العراق. وخطّطت إدارة بوش لحملتها ضد بغداد دون قيام هذه الشركات بتزويدها بمعلومات، ودون أي إلماعة كما يبدو تتناول أسس الاقتصاديات القائمة على النفط[2].

لقد أُحبط هدف المحافظين الجدد بتخفيض سعر نفط أوبيك (وتمكين إسرائيل من الحصول على النفط) بسبب الحالة الرديئة التي آلت إليها البنية التحتية للنفط العراقي بعد عقد من العقوبات الدولية

---

(1) انظر إلى مايكل كلير، "الولايات المتحدة: طاقة واستراتيجية"، لو موند ديبلوماتيك، النسخة الإنكليزية، تشرين الثاني/نوفمبر 2002.

(2) يحيا الصادوسقي، "لا حرب أو لمن يعود النفط؟" لو موند ديبلوماتيك، نيسان/إبريل 2003.

(كما قال الصادوسقي)، وبسبب المقاومة العراقية[1]، ممّا جعل توقّع تحقيق أي ثروة غير مُرتقَبة من مداخيل النفط العراقي أمراً غير محسوم.

ولفهم الدور المركزي للإيديولوجيين الصهاينة في تحديد السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى، من المهمّ وضعه في سياق العلاقات الأميركية-الإسرائيلية، وقوة النفوذ الذي يتمتّع به اللوبي الموالي لإسرائيل داخل الولايات المتحدة. وكما وصف باتريك سيل هذه العلاقات في المجلة الليبرالية الأسبوعية، *ذا نايشن*، "فإن أصدقاء أرييل شارون (وهم متعصّبون يهود موالون لإسرائيل) يشمئزّون من العرب والمسلمين... فما كانوا يرغبون به هو إدخال تحسينات على القوات العسكرية في إسرائيل وعلى البيئة الاستراتيجية".

إن اجتياح الولايات المتحدة للعراق وموقفها العسكري العدائي من معظم الأنظمة العربية في الشرق الأوسط، جعل أسماء صانعي السياسة الصهيونية هؤلاء معروفة في العالم. وكان وولفويتز وفيث في مركز القيادة الثاني والثالث، على التوالي، في البنتاغون. ومن

---

(1) ربما كانت المقاومة العراقية عاملاً رئيسياً لمنع خصخصة النفط العراقي. وكما أشار غريغ بالاست: "إدّعى السيد ألجيبوري، وكان ذات مرة "القناة الخلفية" لرونالد ريغن للنفط العراقي، أن خطط بيع النفط العراقي التي روّج لها مجلس الحكم الذي أنشأه الأميركيون عام 2003 ساعدت على إثارة العصيان والهجمات على قوات الاحتلال الأميركية والبريطانية... 'نشهد تزايداً لعمليات تفجير المنشآت النفطية وأنابيب النفط، وذلك على خلفيّة الفرضيّة القائلة إن الخصخصة قادمة'". غريغ بالاست، "خطط أميركية سرّيّة لنفط العراق"، أخبار بي بي سي، 17 آذار/مارس 2006.

الأشخاص الذين كانوا تحت إمرتهم في أو أس بي أبرام شولسكي، وريتشارد بيرل، رئيس لجنة السياسة الدفاعية آنذاك، وإليوت أبرامز (مدافع عن الإبادة الجماعية التي حدثت في غواتيمالا في ثمانينيات القرن الماضي)، وكان المدير الأعلى آنذاك لشؤون الشرق الأدنى وشمال أفريقيا في مجلس الأمن القومي. ومن المتعصّبين الموالين لإسرائيل في واشنطن والأكثر تأثيراً وليام كريستول وروبرت كاغان الذي يعمل لحساب *ذا ويكلي ستاندارد*، وعائلة بايبس، وعدد كبير من المؤسسات الموالية لإسرائيل التي تعمل بشكل وثيق مع البنتاغون وتتشاطر معه وجهات نظر الصهاينة اليمينيّين في البنتاغون. ويتمثّل الإجماع الحاصل بين منتقدي إدارة بوش الأميركين بأن "أحداث 11/9 وفّرت للمتعصّبين الصهاينة اليمينيين فرصة فريدة لتسخير السياسة الأميركية في الشرق الأوسط ونفوذها العسكري لصالح إسرائيل، وقد نجحت في حمل الولايات المتحدة على تطبيق مبدأ الحرب الاستباقية على أعداء إسرائيل"[1]. وكان دليل تورّط الصهاينة الأميركيين في سياسة الحرب غامراً لدرجة أنه حتى المنظمات الصهيونية الموالية للاتجاه السائد أحجمت عن الاحتجاج على 'معاداة الساميّة'.

بإيلائهم الإهتمام للتفوّق الإسرائيلي أكثر من اهتمامهم بالخسائر التي لحقت بالقوات العسكرية الأميركية، تجاهل الصهاينة المستنقع الذي وجدت القوات العسكرية نفسها فيه في العراق، واستمروا بالتخطيط لحروب جديدة تستهدف إيران.

وبإيلائهم الإهتمام للتفوق الإسرائيلي أكثر من اهتمامهم بالخسائر التي لحقت بالقوات الأميركية المسلّحة، تجاهل الصهاينة المستنقع الذي وجدت

(1) باتريك سيل، "صداقة مكلّفة"، نايشن، 21 تموز/يوليو 2003.

هـــذه القـــوات نفسها فيه في العراق، واستمرّوا بالتخطيط لحروب جديــدة تستهدف إيران، وسوريا، ولبنان، مُصدرين سلسلة جديدة كاملـــة مـــن "تقاريـــر المخابرات" تتّهم فيها البلدان العربية بتمويل الإرهاب وحمايته والترويج له. واستمرّت معلوماتهم المخابراتية المُعَدّة مُسبَقاً بالتدفّق بينما كانوا يشغلون مناصب حكومية، وهم يستمرّون اليوم بالقيام بذلك.

وبارتفاع عدد الإصابات في صفوف القوات الأميركية المسلّحة يومــيّاً في العـــراق، مع عدد غير رسمي للقتلى الأميركيين يقدَّر بـــ 2579 شخـــصاً في أول آب/أغسطس 2006[1]، وتكاليف عسكرية تقـــارب الــــ 300 مليار دولار[2] أرهقت الاقتصاد الأميركي أكثر فأكثر، تحرّر الشعب الأميركي من سحر الإدارة الأميركية القائم على إيهامهم. وبمباشرة التحقيقات العلنيّة، أُعلن عن عمليات أو أس بي، وهـــويّة مهندســـيها والمـــروّجين لها الذين شجّعوا على شنّ حرب أميركية على العراق وتحقيق التفوّق الإسرائيلي.

لكـــن ردّ الفعـــل العنيف والمبرَّر ضد الإيديولوجيين الصهاينة المنـــتمين إلى المحـــافظين الجدد وشبكاتهم داخل الحكومة وخارجها بـــصورة عامة، والذي توقّع الشعب الأميركي حدوثه، لا يتعاظم إلا بـــشكل بطـــيء؛ وقد لا يبرز للعيان بسرعة وبشكل كافٍ لحَرف مخطّطـــاتهم التي يُعدّونها لشنّ حرب مُقبلة على إيران. صحيحٌ أنه تمّ

(1) لإحصاء مستمرّ للإصابات، انظر إلى موقع إحصاء إصابات التحالف في العراق http://casualties.org/oif/

(2) للحصول على مجموع مستمرّ لتكاليف الحرب على دافع الضرائب الأميركي، انظـــر إلى موقع مشروع الأولويّات القومية http://nationalpriorities.org/index.php?option=com-wrapper&Itemid=182

إقفـــال أو أس بي، وأُجـــبر بـــول وولفويتز على تقديم استقالته من البنـــتاغون والانـــتقال إلى البنك الدولي[1]، ويبدو أن دوغلاس فيث يتّجه للعثور على بيئة ملائمة في الميدان الأكاديمي[2]، وتخلّى ريتشارد بـــيرل عن رئاسة لجنة السياسة الدفاعية، ولكن نجم إليوت أبرامز في صـــعود[3]، ويبقـــى دونالد رامسفلد في ظل حماية الرئاسة في وزارة الـــدفاع بالرغم من مهاجمة جنرالاته له، وما يزال ديك تشيني على صـــهوة جـــواده، وتحـــوّلت إدارة بوش لاستهداف إيران بأساليب وإجراءات مماثلة بشكل مُذهل لتلك التي سبقت الحرب ضد العراق.

بالرغم من أن قدرة الرأي العام على الفهم تخطّت كما يبدو الأســـباب الرسمية الأصلية للحرب (أسلحة الدمار الشامل، وجود القاعـــدة، وحمـــل الديمقـــراطية للعراقيين)، كما تخطّت الأعذار الإضـــافية (تغـــيير الـــنظام، حقوق الإنسان)، فإن التركيز الحالي للانتقاد الشعبي والانتقاد الإصلاحي يطال على نطاق واسع مصالح بـــيغ أويـــل أو الإمـــبراطورية كونها مصدر الأزمة وفقاً للاعتقاد الـــشائع. إن المفهوم القائل إن الولايات المتحدة ذهبت إلى الحرب

(1) انظـــر إلى الفصل 5 في ما يتعلّق بالتحقيقات التي أجرتها الـــ إف بي آي حول ولفويتز، فيث، وآل، من ضمن أشياء أخرى.

(2) كـــان قـــد عُيِّن دوغلاس فيث للتوّ أستاذاً زائراً وممارساً مميَّزاً لسياسة الأمن القومـــي في جامعـــة جـــورج واشنطن، بدءاً من خريف العام 2006. ومنذ مغادرتـــه الحكومة، تولّى منصب عضو زائر مميَّز في مؤسسة هوفر المحافظة في جامعـــة ستانفورد، وكان رئيساً مساعداً لمجموعة تتناول استراتيجيات لمقاتلة الإرهاب في كليّة كندي للمهام الحكومية في جامعة هارفارد.

(3) يُحدث إليوت أبرامز تقدّماً داخل نظام بوش، وهو يتولّى حالياً منصب نائب مستـــشار الأمن القومي ورئيس استراتيجية الديمقراطية الشاملة التابعة للرئيس جورج دبليو بوش.

علـــى العراق خدمةً لمصلحة إسرائيل يبقى غائباً عن التعليقات في وسائل الإعلام الرئيسية.

لقـــد طـــرح عدد ضئيل جداً من اليهود التقدميّين أسئلة جدّيّة حـــول قـــيام منظمات يهودية موالية للاتجاه السائد بدعم إسرائيل بطـــريقة غير قابلة للانتقاد، وانتقدوا بشكل لاذع المتعصّبين الصهاينة في البنتاغون. ومع ذلك، وإثر العاصفة النارية التي أحدثها نشر مقالة ميرشـــايمر ووالـــت بعـــنوان "لـــوبي إسرائيل" في *اللندن ريفيو* في آذار/مـــارس 2006، يبدو من الواضح أن مدى التأثير الإسرائيلي لا في الـــسياسة الأميركـــية في الـــشرق الأوسط فحسب، بل أيضاً في المؤسسات السياسية الديمقراطية في أميركا والإجراءات ككل، يطرح مـــشكلة أكـــبر بكثير على الأميركيين التقدميّين، وذلك لأن معظم الـــيهود التقدميّين يشاركون بصفة خاصة بالإنكار - يُنكرون صلة المقالـــة بالأمر الواقع، ويُنكرون ما يمارسه اللوبي اليهودي من نفوذ للتأثير في السياسة الخارجية الأميركية - وهي نقطة سيتمّ التوسّع فيها أكثر فأكثر في فصل لاحق.

الفصل الثاني

الصِلة الأميركية-العراقية الإسرائيلية-الصهيونية

لماذا ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب على العراق في آذار/مارس 2003 مع خطط إضافية لمهاجمة سوريا، وإيران، وربما لبنان؟ لقد أُسقطت مصداقية كل الأسباب المعطاة حتى الآن، فلم يتم اكتشاف أي أسلحة دمار شامل، ولم تقُم روابط بين العراق والقاعدة، ولم تكن هناك تهديدات لأمن الولايات المتحدة. وللعديد من حلفاء الولايات المتحدة السابقين والحاضرين سجلات في حقوق الإنسان متساوية بالسوء مع سجلات العراق في هذا المجال، أو هي أسوأ منها. وأثارت الحرب، والغزو، والاحتلال، والقتل، والتعذيب المنهجي الشنيع، والسجن التي تعرّض لها آلاف العراقيين عدوانية وغضب مئات ملايين المسيحيين، والمسلمين، وذوي التفكير المتحرّر في مختلف أنحاء العالم، مُسقطةً بحقّ مصداقية المؤسسة السياسية بأكملها في واشنطن وعبر البحار.

من استفاد من حرب العراق؟

إذن من استفاد من حرب العراق؟ يمكننا من خلال دراسة وضع المستفيدين تكوين فكرة عمّن كان يمتلك الحافز للتشجيع على ارتكاب هذه الجريمة ضد الإنسانية.

لقد جنت أميركا مذمّة العالم التي ما تزال تؤثّر في الأفراد والأعمال في الولايات المتحدة. ولايزال الإرهاب في ازدياد في حين أنه يمكن افتراض ازدياد حال الأمن الأميركي سوءاً[1]. وتخفّض التكاليف المتصاعدة للحرب التي قد تفوق الترليوني دولار وفقاً لبعض التكهنات[2] الاعتمادات المالية المخصّصة للبنية التحتية الأميركية شيئاً فشيئاً. ويشكّل احتمال تمدّد الإمبراطورية الأميركية التي تواجه هيمنتُها تحدّيات محتمَلة قلقاً متزايداً لبناة الإمبراطورية، نظراً لازدياد التكاليف الإيديولوجية والإنسانية والماديّة المتزايدة في العراق. وبعد أن رفضت بلدان أوبيك لمدة من الزمن الضغوط الأميركية والأوروبية لضخّ مزيد من النفط بأسعار أقل انخفاضاً من تلك المرتفعة جداً - هو رد عدواني إلى حدٍّ ما على الاجتياح الأميركي للعراق - يبدو سعر النفط في الوقت الحاضر مقاوماً لمساعي تخفيضه مع ما يرافق ذلك من تأثير مؤسف على الاقتصاد الأميركي والعالمي.

ووجهت شركات النفط الأميركية بمقاومة متزايدة مناهضة للاستعمار، وتخضع استثماراتها على امتداد منطقتَي الشرق الأوسط وجنوب آسيا الوسطى للحصار. وقد تكون بيغ أويل قد نعمت بأرباح غير منتظَرة، ولكن كان بالإمكان استباق حدوث

---

(1) تشير التقارير الأميركية المتعلّقة بالإرهاب في العام 2005 وفي مختلف دول العالم إلى أن الإرهاب في تصاعد، وأن المقدار الأكبر من هذا الازدياد يحدث في العراق.

(2) توم ريغن، "تقرير: تكاليف الحرب الأميركية قد تتخطى الـ 2 تريليون دولار"، كريستشنساينس مونيتور، 10 كانون الثاني/يناير 2006.

هذه الأرباح، وتجري عملياتها في العراق ببطء شديد[1].

إن دولة إسرائيل هي المستفيد الرئيسي الوحيد من الحرب، وقد نجحت في حمل الولايات المتحدة على تدمير عدوّها العربي الأكثر ثباتاً على مبادئه في الشرق الأوسط؛ أي النظام الذي مدّ المقاومة الفلسطينية بأكبر دعم سياسي. ومن نتائج التهجّم الأميركي على العراق الذي امتدّ طوال عقود من الزمن جعل بنيته التحتية العسكرية والتكنولوجية المدنية غير متكيّفة مع متطلّبات العصر[2]، وتفكيك قواته العسكرية، واصطباغ ممارسات الحكم بطابع الفوضى، والحثّ ربما على اندلاع حرب أهلية تحمل في طيّاتها إمكانية التقسيم والتلاشي الفعلي للبلد بشكل كلّي. وإلى جانب إيران وسوريا، كان العراق قد شكّل المقاومة الرئيسية لمخططات التوسّع الإسرائيلي الهادفة إلى طرد الفلسطينيين، وغزو كل فلسطين واحتلالها.

إن دولة إسرائيل هي المستفيد الرئيسي الوحيد من الحرب، وقد نجحت في حمل الولايات المتحدة على تدمير عدوّها العربي الأكثر ثباتاً على مبادئه.

ترى، ما كانت العقبات التي واجهت إنشاء دولة إسرائيل الكبرى؟

1. الانتفاضتان، وهما الثورتان اللتان قام بهما الفلسطينيون الرافضون لإخراجهم من بلدهم، وكانتا قادرتَين على إلحاق

(1) كما يشير برنهارد زاند، "عشيّة الحرب، كان العراق يضخّ حوالى 2,5 مليون برميل من النفط الخام في اليوم. وفي الأشهر الثلاثة الأولى من هذا العام، تخطّى معدّل التصدير الـ 1.7 بليون برميل". انظر إلى برنارد زاند، "على شفير الانهيار"، دِر شبيغل، 1 أيار/مايو 2006.

(2) ستيفن غراهام، "إيقاف دورة الحياة في المدن"، روتلدج، 2005.

خسائر بالشعب اليهودي الذي انتحل لنفسه بدون وجه حق اسم شعب الله المختار (انطلاقاً من القانون التي تعمل وفقه إسرائيل، فهي دولة يهودية بشكل حصري يقطنها بصفة رئيسية مهاجرون من أوروبا مع أولادهم، وتحكمها عقيدة دينية إقصائيّة).

2. حزب الله، وهو منظمة أُسِّست بعد الغزو الإسرائيلي للبنان وبهدف مواجهته، ألحق هزيمة استراتيجية عسكرية-سياسية بإسرائيل، وأجبرها وعملاءها اللبنانيين على الانسحاب من جنوب لبنان.

3. العراق وإيران وسوريا، وهي البلدان الثلاثة التي كان لمعارضتها عمليات الضمّ الإسرائيلية والهيمنة الإقليمية التأثير الأكبر. فلقد كانت تطوّر روابط اقتصادية وسياسية مع العديد من البلدان ولا سيّما في مجال العقود النفطية، موقّعةً اتفاقيات تجارية واستثمارية مع اليابان، والصين، وروسيا، إضافةً إلى شركات من أوروبا الغربية. وبات تحقيق آمال إسرائيل بتقاسم منطقة ازدهار أميركية-إسرائيلية مشترَكة من خلال الهيمنة بالاعتماد على أنظمة عربية خانعة وعميلة أمراً غير مؤكّد بشكل متزايد.

4. كان النظام العراقي يستعيد عافيته شيئاً فشيئاً بالرغم من مقاطعة أميركية-أوروبية وعدوان عسكري أميركي-بريطاني مستمر على امتداد قرن من الزمن. وبنفاد الوقت، أدرك الإسرائيليون وعملاؤهم الصهاينة في إدارة بوش إمكانية بلوغ اتفاق بين الأمم المتحدة والعراق لإنهاء المقاطعة وتطبيع العلاقات معه بعد إعلان

فِرَق التفتيش التابعة للمنظمة الدولية عن عدم وجود أسلحة دمار شامل، ممّا يؤدّي إلى قيام العراق بعقد صفقات مشترَكة مع شركات نفط فرنسية وروسية، واحتمال استبدال الدولار باليورو كعملة للاتجار بالنفط، وانخفاض تأثير إسرائيل كدولة وصيّة على المنطقة.

5. كانت تواجه إسرائيل أزمة داخلية تزداد عمقاً في شأن التكاليف الاقتصادية والافتقار إلى الأمن الشخصي المرافق لسياسة المستوطنات الاستعمارية والقمع الوحشي في الأراضي المحتلّة. وباتت الهجرة إلى خارج إسرائيل تفوق الهجرة إلى داخلها، وتآكلت سياسات الإنعاش الاجتماعي المخصَّصة لليهود، ورفض مئات جنود الاحتياط الناشطون القيام بخدمتهم العسكرية في الحرب الاستعمارية القذرة. وإن مخطط "نشر الديمقراطية" في الشرق الأوسط الذي اقترحه الصهاينة الأميركيون في الحكومة كان يهدف في الجوهر إلى تحكم الولايات المتحدة وإسرائيل بمنطقة الشرق الأوسط بأكملها من خلال سلسلة من الحروب[1]. ومن الواضح أن سلسلة الحروب الأميركية ضد أنظمة عربية مستقلّة، بدءاً بالعراق، كانت لصالح الدولة الإسرائيلية كما اعتبرها نظام شارون، والموساد، والقوات العسكرية الإسرائيلية، والصهاينة المنتمون إلى جناح اليمين الذين يشغلون مناصب نافذة في واشنطن.

(1) "عملية سَحق نظيفة: إستراتيجية جديدة لضمان أمن العالم"، ريتشارد بيرل، دوغلاس فيث، ديفيد وارمسر، وآل، مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدّمة، 1996.

كيف كانت الدولة اليهودية قادرة على التأثير في الدولة الإمبريالية الأميركية لحملها على متابعة سلسلة الحروب التي من شأنها تعريض المصالح الاقتصادية والأمنيّة الأميركية الخاصة للخطر وتعزيز مصالح إسرائيل في هذه المجالات؟ يمكن العثور على الجواب بشكل مباشَر في الدور الذي لعبه المسؤولون الموالون للصهاينة في المناصب الأكثر أهميّة لاتخاذ القرار السياسي في إدارة بوش. وكان لهؤلاء المسؤولين الأميركيين روابط إيديولوجية وسياسية دائمة مع الدولة الإسرائيلية، وذلك من خلال شغلهم مناصب استشارية في المجال السياسي. وكانوا قد كرّسوا أنفسهم طوال حياتهم السياسية لتعزيز مصالح دولة إسرائيل في الولايات المتحدة.

وفيما كانت مهمة تصميم وتنفيذ استراتيجية الحرب الأميركية بين أيدي المدنيين الصهاينة من ذوي الميول الحربية في البنتاغون، كان نجاح هؤلاء مضموناً بسبب الدعم القوي الذي مارسه معاونو شارون في المؤسسات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة. لقد عمل مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، ورابطة مكافحة التشهير، وآيباك، وآلاف ناشطيها - أطباء، أطباء أسنان، مُحسنون، أقطاب في الميدان العقاري، مموّلون، صحافيون، أشخاص ذوو نفوذ في وسائل الإعلام، وأكاديميون - بالتضامن مع سياسيين وإيديولوجيين يهوداً رئيسيين للحث على الحرب لأنه من مصلحة دولة إسرائيل، كما قالوا في ما بعد، تدمير صدام حسين وحزب البعث العلماني الحاكم.

لكن من يمكنه القول إن القيام بهذا الأمر هو لمصلحة الولايات المتحدة الإمبريالية التي كانت ترى في صدام رجلاً قوياً موجوداً في

المكان المناسب ومستعدّاً لخدمة أميركا؟ ما الذي قام به صدام، وهو أحد الذين تنعتهم الإدارة الأميركية بالسفَلة[1]، ليغدو هدفاً لأميركا؟ هـــل بسبب اجتياح الكويت (وقد حصل على "إشارة المضيّ قُدُماً" من السفيرة الأميركية إبريل غلاسبي التي كانت تُعتبَر في العالم العربي، وعلـــى نطـــاق واسع، بأنَّها التي أوقعته في الشرَك)؟ أم بسبب عدم تعاونـــه في مـــا يـــتعلّق بالمـــصالح المتعددة لإسرائيل (النفط، الماء، وفلسطين).

لطالمـــا كانـــت مسألة الحصول على النفط أمراً مثيراً للمشكل بالنـــسبة إلى إســـرائيل، وذلك بسبب عجزها عن شراء النفط من الـــبلدان المجاورة. وعولجت هذه المشكلة بطريقة نموذجية من خلال مذكّـــرة التفاهم الإسرائيلية-الأميركية المتعلّقة بالنفط، والعائدة لأول آب/أغـــسطس مـــن العام 1975؛ وهي عبارة عن اتفاق تمّ تجديده بـــشكل منـــتظم في الفتـــرة اللاحقة على حساب دافعي الضرائب الأميركيين (انظر إلى المقاطع التالية). مع ذلك، وبحلول العام 2003، وتـــسلّم القوى الموالية للصهيونية زمام الأمور في الحكومة الأميركية، والاستعداد لعمليّة حرّيّة العراق، كان احتمال حصول إسرائيل على الـــنفط العراقي على وشك التحقّق. طالب وزير البنى التحتية الوطنية الإسرائيلي جوزف بارتسكي بوضع تقييم لحالة أنبوب النفط القديم

(1) هناك في الواقع العديد من المتبارين للحصول على هذا اللقب. انظر إلى كفين درام، "الحيوان السياسي"، واشنطن مونثلي، 16 أيار/مايو 2006 الذي يُدرج أسمـــاء أناســـتازيو ســـوموزا، فرانشيسكو فرانكو، والدكتاتور الدومينيكاني تـــروجيللو. يُذكَـــر جوفري كامب، وهو رئيس مجلس الأمن القومي، بصفته مـــصدراً للّقب الذي ارتبط بصدام. انظر إلى جوديت ميلر ولوري ميلروي، صدام حسين وأزمة الخليج، نيويورك، تايمز بوك، 1990، صفحة 85.

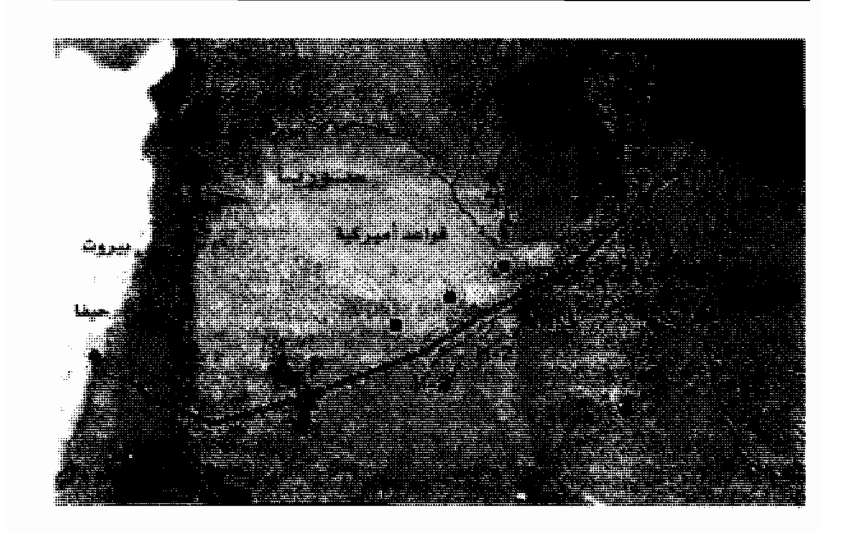
الذي يمتد من الموصل إلى حيفا، وكان يتطلّع إلى تجديد عمليّة تدفّق النفط "في حال قيام نظام غير معاد في العراق في مرحلة ما بعد الحرب"[1]. وأشار بارتسكي إلى أن من شأن أنبوب النفط تخفيض تكلفة فاتورة الطاقة المترتّبة على إسرائيل بشكل جَذري بنسبة قد تزيد عن 25 في المئة، بما أن البلد يعتمد إلى حدٍّ كبير على الواردات المرتفعة الثمن من روسيا. وفي 21 حزيران/يونيو 2003، جاء في تقرير لرويترز ما يلي: "يقول نتنياهو إن خط النفط بين العراق وإسرائيل سيتمّ فتحه في المستقبل القريب". وفي آب/أغسطس 2003، أوردت *هاآرتس* التقرير التالي: "طلبت الولايات المتحدة من إسرائيل التحقّق من إمكانية ضخ النفط من العراق إلى مصاف للنفط في حيفا. وقُدِّم الطلب في برقيّة أرسلها في الأسبوع السابق مسؤول أعلى في البنتاغون إلى مسؤول رفيع المقام في وزارة الخارجية في القدس"[2]. (من قد يكون هذا المسؤول الأعلى...؟) وفي العام 2006، كان يتم بناء ثلاث قواعد أميركية في شمال العراق بالقرب من موقع تشييد خط أنابيب النفط المحتمَل الممتدّ من حقول نفط كركوك إلى مرفأ الشحن الإسرائيلي ومدينة تكرير النفط، حيفا (انظر إلى الرسوم التوضيحية أدناه)، على أمل تحويل تلك المدينة إلى "روتردام جديدة"[3].

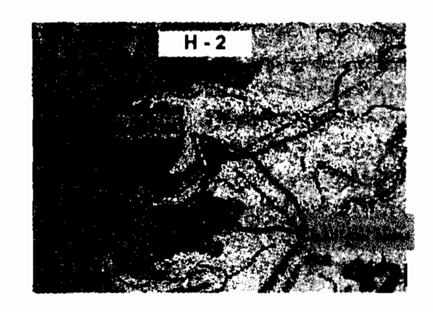
---

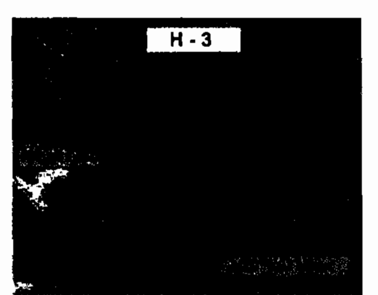
(1) انظر إلى أكيفا إلدار، "وزير البنى التحتية بارتسكي يحلم بالنفط العراقي متدفّقاً إلى حيفا"، هاآرتس، 31 آذار/مارس 2003.

(2) أميرام كوهين، "الولايات المتحدة تتحقق من إمكانية ضخ النفط من شمال العراق إلى حيفا عبر الأردن"، هاآرتس، 23 آب/أغسطس 2003.

(3) خط الأنابيب هذا الذي كان يمتدّ بين الموصل وحيفا وأُقفل عام 1948 مع إنشاء الدولة الصهيونية، ينبعث الآن كخط أنابيب كركوك-الموصل-حيفا. المصدر الذي استقينا منه الخرائط هو http://judicial-inc.biz/pipeline-blown-mossad.htm، علماً أنها تظهر في مكان آخر من شبكة الإنترنت.







وقـــد وُصـــفت العلاقات الأميركية-الإسرائيلية بطرق مختلفة. فالسياسيون يشيرون إلى إسرائيل بأنها حليف الولايات المتحدة الأكثر تعـــويلاً علـــيه في الشرق الأوسط، هذا إن لم يكن في العالم. ويعتبر آخـــرون إســـرائيل حليفاً استراتيجياً. ويتحدّث البعض عن إسرائيل والولايات المتحدة بأنهما يتشاطران قِيَماً ديمقراطية مشترَكة في الحرب ضـــد الإرهاب. ويعتبر المنتقدون اليساريون إسرائيل أداة للإمبريالية الأميركـــية لـــتقويض القومية العربية، ومتراساً في مواجهة الإرهاب الإسلامي الأصولي. ولكن عدداً قليلاً من الكتّاب يشيرون إلى "التأثير

المُفـــرط" للحكـــومات الإسرائيلية في سياسة الحكومة الأميركية من خــلال جماعات الضغط اليهودية القوية، وأفراد في وسائل الإعلام، وأوســاط مالية وحكومية، وممارسة هذا التأثير لصالح إسرائيل بغض النظر عن مدى وقعه على رفاهة الولايات المتحدة وخيرها.

في حــين توجد ذرّة من الحقيقة في معظم ما سبق ذكره، هناك العديــد مــن المظاهر الفريدة في هذه العلاقة بين الولايات المتحدة، بوصــفها قوة إمبريالية، وبين إسرائيل، بوصفها قوة إقليمية. وبخلاف علاقــة واشنطن بالاتحاد الأوروبي، واليابان، وأوقيانيا، فإن إسرائيل هي التي تمارس الضغوط وتضمن تحويل مبالغ ضخمة من الموارد المالية (2.8 مليار دولار عام 2004، 84 مليار دولار على مدى 30 عاماً)[1]. وتــضمن إســرائيل حــصولها على أحدث الأسلحة والتكنولوجيا، ودخــول الأســواق الأميركية دون قيود، وحرّية دخول المهاجرين إلــيها، والتزام غير مشروط بالحصول على دعم الولايات المتحدة في حــال دخولها في حرب، وقمع الشعب المستعمَر، وضمان المعارضة الأميركية لأي قرارات تصدر عن الأمم المتحدة وتشكّل حَرَجاً لها.

من منظور العلاقات بين الدولتَين، تُعتبر إسرائيل القوة الإقليمية الأصــغر حجمــاً التي تحصل على أتاوة من الإمبراطورية الأميركية، وهــي نتيجة فريدة على ما يبدو أو أنها تنطوي على تناقضات. ونجد تفــسير هذه المفارقة في الدور القوي والمؤثّر لليهود الموالين لإسرائيل في قطاعــات الاقتصاد الأميركي الإستراتيجية، والأحزاب السياسية، والكونغرس، والهيئة التنفيذية. والمرادف الأدقّ للإمبراطوريات الزائلة

(1) معــونة مالية أميركية لإسرائيل: وقائع، أرقام وتأثيرات، تقرير واشنطن حول شؤون الشرق الأوسط، 2004.

هو وجود مستوطنين مؤثّرين ذوي بشرة بيضاء في المستوطنات قادرين على ضمان دعم مالي وعلاقات تجارية خاصة من خلال صِلاتهم بدول ما وراء البحار.

لقد قام المستعمرون الإسرائيليون بالاستثمار في الولايات المتحدة ووهبوا مليارات الدولارات لإسرائيل، محوّلين في بعض الحالات مجرى اعتمادات مالية مخصَّصة لتكون مستحقات اتحادية لعمّال منخفضي الأجر، وذلك بهدف شراء سندات في إسرائيل تُستخدَم بدورها لتمويل مستوطنات استعمارية في الأراضي المحتلة. وفي حالات أخرى، قامت الدولة اليهودية بحماية اليهود الفارّين من وجه العدالة في الولايات المتحدة، ولا سيّما أولئك الذين يمارسون ضروب الاحتيال المالي ويجنون ثروات طائلة مثل مارك ريتش، وحتى رجال العصابات والقتَلة. وتمّ تجاهل طلبات رسمية من حين لآخر موجَّهة من وزارة العدل تحديداً.

بدورها، بذلت الإمبراطورية المستعمَرة جهداً خاصاً لإخفاء خضوعها لحليفها المُفترَض، وهو ليس سوى قوة مهيمنة في الواقع. ففي العام 1967، قُصفت *يو إس إس ليبرتي* بالقنابل، وهي سفينة اتصالات واستطلاع أُرسلت لمراقبة المحاربين في الحرب الإسرائيلية-العربية الثالثة، كما أُمطرت بالقذائف من قِبَل الطائرات الإسرائيلية المقاتلة في المياه الدولية، وذلك لحوالى ساعة من الزمن تقريباً، قاتلةً 34 بحّاراً ومُصيبةً 173 شخصاً بجراح من طاقم يبلغ مجموع أفراده 297 جندياً. والرسائل الإسرائيلية التي تمّ اعتراض سبيلها من قبل هذه السفينة، والعَلَم الأميركي المرفوع عليها بشكل واضح، يظهران أن هذا العمل متعمَّد وعدواني. وتصرّفت واشنطن كأي بلد من العالم

الثالث يواجه هجوماً مُربكاً من قِبَل البلد المهيمِن عليه: أسكتت ضبّاطها البحريين الذين كانوا شهوداً على الهجوم، وتلقّت تعويضاً واعتذاراً شكليّاً بكل هدوء[1].

لم يكن هذا الحدث عملاً غير مسبوق في العلاقات العسكرية والدبلوماسية بين الولايات المتحدة وأحد حلفائها فحسب، بل لا وجود أيضاً لأي حالة محفوظة في السجلات تشير إلى قيام بلد إمبريالي بالتغاضي عن هجوم تعرّض له من قِبَل حليف إقليمي[2]. وعلى نقيض ذلك، فقد تلت ظروف مماثلة ردود فعل دبلوماسية ومشاكسة. ولا يمكن شرح هذا الشذوذ الواضح بأنه ضعف عسكري أو فشل دبلوماسي في أي حال من الأحوال: فالولايات المتحدة قوة عسكرية متفوّقة، كما أن دبلوماسييها قادرون على ممارسة الضغوط وحتى على المشاغبة وتقديم توضيحات للحلفاء والأعداء عندما تكون الرغبة السياسية موجودة. ولكن اللوبي اليهودي-الأميركي، وأعضاء الكونغرس، ووسائل الإعلام، والأشخاص النافذين في وول ستريت الذين يتّخذون لهم موقعاً استراتيجياً في النظام السياسي-الاقتصادي الأميركي ضمنوا

كان رد فعل واشنطن على الهجوم الذي تعرّضت له *ليبرتي* كتصرف أي بلد من العالم الثالث يواجه هجوماً مُربِكاً من قِبَل البلد المهيمِن عليه.

---

(1) قبل أربعين عاماً، وبتاريخ 8 حزيران/يونيو 2005، تقدّمت رابطة المحاربين القُدامى على متن يو إس إس ليبرتي بتقرير رسمي مع وزارة الدفاع الأميركية يتناول جرائم الحرب التي ارتكبتها القوات العسكرية الإسرائيلية ضد الجنود الأميركيين في 8 حزيران/يونيو من العام 1967.

(2) جايمس بامفورد، مجموعة أسرار: بنية وكالة الأمن القومي الفائقة السرّيّة، دابلداي، نيويورك، 2001.

تصرّف الرئيس جونسون كتابع وديع. ولم يكن من الضروري ممارسة أي ضغوط مباشَرة لأن الرئيس عرف قواعد اللعبة السياسية، كما وأن قيادة سياسية مهيمَن عليها تتصرف في الظاهر وفقاً لمعتقداتها الخاصة. إن الحد الأدنى هو التالي: العلاقات الإسرائيلية-الأميركية حصينة لدرجة أنه حتى وإن حصل هجوم عسكري غير مبرَّر فهو لن يؤثّر فيها. وككل القوى المهيمَن عليها، هدّدت واشنطن شهود العيان في الأسطول البحري الأميركي بتعرّضهم لمحاكمة عسكرية إن تكلّموا بخلاف ما يُطلَب منهم، في حين أنهم كانوا يدلّلون مهاجميهم في تل أبيب[1].

كما أننا نجد مثالاً آخر عن العلاقة غير المتماثلة في إحدى حالات التجسس الأكثر أهميّة إبّان الحرب الباردة، وكان اللاعبون فيها عميل إسرائيلي، هو جوناثان بولارد، والبنتاغون. فطوال سنوات عدة، سرق بولارد ونسخ ملء أكياس من مستندات هي في غاية السرّيّة تتناول المخابرات الأميركية، ومكافحة الجاسوسية، وخطط استراتيجية، وأسلحة عسكرية، وسلّمها لمحرّضيه الإسرائيليين. وكانت حالة التجسس الأكبر في التاريخ الحديث التي جرت ضد الولايات المتحدة من قِبَل حليف. وأُدين بولارد وزوجته عام 1986، واعترضت الحكومة الأميركية بشكل سرّي لدى الحكومة الإسرائيلية. ومن جهة ثانية، نظّم الإسرائيليون عبر حلفائهم اليهود-الأميركيين جماعة ضغط للترويج لهم. وفي النهاية، شارك كل القادة

(1) جايمس إنس، هجوم على الليبرتي، راندوم هاوس، 1980. انظر أيضاً إلى بيانات رسمية لوارد بوسطن الإبن، نقيب، جاغ يو إس إن، 9 كانون الثاني/يناير 2004 والأميرال توماس مورر، يو إس إن، 11 كانون الثاني/يناير 2003.

الإسرائيليين ذوي المراتب العليا وممارسو الضغوط اليهود-الأميركيون في حملة للصفح عن إسرائيل، ونجحوا في هذا المسعى تقريباً مع الرئيس كلينتون.

تظهر العلاقة غير المتكافئة بوضوح في حالة فارّ رئيسي من وجه العدالة، هو مارك ريتش الذي كان تاجراً ومدير عمليات مالية أدانته المحكمة الفدرالية الأميركية استناداً إلى فقرات اتهامية عدة تتناول خداع الزبائن وسلبهم أموالهم عن طريق الاحتيال. ففرّ إلى سويسرا وحصل في ما بعد على جنسيّة وجواز سفر إسرائيليّين، واستثمر مبالغ كبيرة من ثروته التي جناها من الكسب غير المشروع في الصناعات الإسرائيلية والجمعيات الخيرية. وبالرغم من فداحة جُرمه، كان ريتش على صلة بقادة سياسيين رفيعي المقام والنخبة الاقتصادية في إسرائيل. وفي العام 2000، قام رئيس الوزراء الإسرائيلي وعدد كبير من الشخصيات اليهودية الموالية لإسرائيل، بمن فيهم زوجة ريتش السابقة، بإقناع كلينتون بالصفح عنه. وفي حين علت صَيحة بسبب وجود صلة بين الصفح عن ريتش ومساهمة قدّمتها زوجته السابقة للحزب الديمقراطي تخطّت المئة ألف دولار، كان من الواضح أن العلاقة القائمة على الخضوع الأميركي للتأثير الإسرائيلي ونفوذ اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة هي أكثر أهميّة. وتجدر الإشارة إلى أنه من الغريب وغير العادي قيام رئيس الولايات المتحدة بالتشاور مع حاكم أجنبي (كما تشاور كلينتون مع باراك) حول كيفية التعاطي مع محتال متَّهَم. ولم يسبق أن تمّ الصفح عن فارٍّ مُدان لم تتمّ محاكمته ولم ينفَّذ به أي حكم بالسَجن. لكن الولايات المتحدة تواجه منذ ذلك الحين صعوبة كبيرة في ضمان تسلّم أي نوع من المجرمين

من إسرائيل؛ حتى المواطنين العاديّين المطلوبين لارتكاب جرائم قتل في الـــولايات المتحدة لا تتمّ إعادهم للمحاكمة[1]، بالرغم من التقارب المزعوم بين الدولتَين. تُرى، ما هي المعاني الضمنية التي يمكن للقضاء الجنائـــي الأميركـــي استخلاصـــها من وجود مكان يحمي المجرمين اليهود- الأميركيين؟

ويتجلّـــى نفوذ إسرائيل في رحلات الحج السنوية العديدة التي يقوم بها سياسيون أميركيون مؤثّرون إلى إسرائيل للإعلان عن ولائهم للدولـــة الإســـرائيلية، حـــتى أثناء الفترات التي تقوم فيها إسرائيل، وبشكل مركّز، بقمع شعب محتل متمرّد[2]. وبدلاً من تأنيب إسرائيل علـــى عملها العدواني المتمثّل بشنّ حرب ضد دولة أخرى وانتهاك حقـــوق الإنـــسان في الأراضي المحتلّة، وهو عمل مُدان على الصعيد العالمـــي، صفّق الحكام الأميركيون التابعون للإمبراطورية الإسرائيلية الـــصغيرة لقمعها الدموي للانتفاضتَين الأولى والثانية، ولقيام الدولة الـــيهودية باجتياح لبنان عام 1982 - وهذا ما تكرر عام 2006 - وعارضـــوا أي وســـاطة دولـــية للحـــؤول دون مزيد من المجازر الإســـرائيلية، مضحّين إذ ذاك بالمصداقية الأميركية في الأمم المتحدة وبالرأي العام العالمي.

في عمليات التصويت في الأمم المتحدة، وحتى في مجلس الأمن، كانـــت واشـــنطن تكدّ في خدمة إسرائيل المهيمِنة عليها بالرغم من

---

(1) أليـــسون ويـــر، "روســـيا، إســـرائيل وإغفـــالات وســـائل الإعـــلام"، counterpunch.org، 7 شباط/فبراير 2005.

(2) تقريـــر واشنطن حول شؤون الشرق الأوسط، مساهمات لجنة العمل السياسي الموالية لإسرائيل للمرشحين لمناصب في الكونغرس عام 2002، حزيران/يونيو 2003.

الدليل القاطع الذي يتقدّم به الحلفاء الأوروبيون والذي يشير إلى الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان. وبالتضحية بمصداقيّتها الدولية وتعمّد استعداء 150 دولة أخرى، وضعت واشنطن الانتقادات الموجَّهة للعنصرية الإسرائيلية في خانة **مُعاداة الساميّة.** ولكن هذا الأمر لا يشير إلى الحدّ الأقصى الذي بلغته واشنطن في خنوعها لإسرائيل.

ظهر المؤشر الرئيسي الأخير للخنوع الأميركي في الأشهر التي سبقت وتلت هجمات 11 أيلول/سبتمبر على مركز التجارة العالمي والبنتاغون. ففي 12 كانون الأول/ديسمبر 2001، علمت محطة فوكس نيوز التلفزيونية من مصادر المخابرات الأميركية والمحققين الفدراليين بأنه تمّ اعتقال 60 إسرائيلياً منذ 11/9 كانوا قد دخلوا في مسعى طويل الأمد للتجسس على مسؤولي الحكومة الأميركية. وكان العديد من أولئك المعتقَلين عملاء ناشطين في القوات المسلّحة أو جهاز المخابرات الإسرائيلية، وقد اعتُقلوا وفقاً لقانون يو إس أي باتريوت المناهض للإرهاب. وأخفق العديد منهم، وهم مربطون بجهاز الكشف عن الكذب، في الإجابة عن الأسئلة التي تتناول نشاطات المراقبة في الولايات المتحدة والتي كانت موجَّهة ضد هذا البلد.

الأخطر من ذلك أن المحققين الفدراليين كانوا مُحقِّين باعتقادهم أن العملاء الإسرائيليين يلجؤون مُسبَقاً إلى جمع معلومات مخابراتية عن هجمات 11 أيلول/سبتمبر دون أن يتشاطروها مع حليفتهم واشنطن. وإن مستوى التورّط الإسرائيلي في 11 أيلول/سبتمبر هو سرّ يتّسم بالحذَر الشديد. فقد أخبر محقق فدرالي عالي الرتبة فوكس

نيوز بوجود "روابط". ولدى الطلب منه توفير بعض التفاصيل، رفض المحقق الفدرالي ذلك. "الدليل الذي يربط هؤلاء الإسرائيليين بهجمات 11/9 هو سرّي. لا يمكنني إطلاعكم على الدليل المتوافر. إنها معلومات سرّية"[1].

وحالة التجسس الإسرائيلية هذه هي خير مثال على النفوذ الذي تمارسه إسرائيل على واشنطن. وحتى في حالة الهجمات الأسوأ التي تعرّض لها البرّ الأميركي في تاريخ الولايات المتحدة، كانت واشنطن تتكتّم على الدليل الذي يربط جواسيس إسرائيليين معروفين بدليل محتمَل على جمعهم معلومات دون تشاطرها مع الولايات المتحدة. ومن الواضح أن هذا الدليل قد يطرح أسئلة حول الصِلات والروابط بين النُخَب السياسية والاقتصادية، إضافةً إلى إضعاف العلاقات الاستراتيجية في الشرق الأوسط. والأهم من ذلك أن من شأن هذا الأمر إثارة إدارة بوش على اللوبي اليهودي-الأميركي وشبكاته القوية الرسمية وغير الرسمية التي تطال تأثيراتها وسائل الإعلام، والشؤون المالية، والحكومة[2].

لقد حصلت فوكس نيوز على عدد كبير من المستندات السرّية من المحققين الفدراليين الذين أحبطهم ربما قيام القادة السياسيين في

(1) انظر إلى 'كارل كاميرون يتحرّى' (الأجزاء 1 إلى 4) شبكة فوكس نيوز، 17 كانون الأول/ديسمبر 2001، متوافرة على الموقع http://www.informationclearinghouse.info/article5133.htm.

(2) قارن هذا الأمر مع متابعة إدارة بوش والمطالبة الغاضبة بتنفيذ حكم الإعدام بحق زكريا موسوي بسبب معرفته المُسبَقة بأحداث 11/9 وإحجامه عن التحذير من حدوثها مُسبَقاً.

واشـــنطن بإخفاء الحقائق المرتبطة بالتجسس الإسرائيلي. وتُظهر هذه المـــستندات الـــتي كـــشف عنها كارل كاميرون أنه حتى قبل 11 أيلـــول/سبتمبر، تمّ اعتقال أو احتجاز 140 إسرائيلياً آخر أثناء تحقيق ســـرّي تناول التجسس الإسرائيلي في الولايات المتحدة على نطاق واسع وعلى المدى البعيد. ولم تورِد أي مطـــبوعة أو وســـيلة إعلام إلكترونية رئيـــسية أخـــرى تقاريـــر عـــن هذه الاعتقالات، ولم يتناول الرئيس كذلك أو أي زعـــيم في الكونغـــرس المسعى الإســـرائيلي المـــستمرّ للحصول على معلومات عسكرية ومخابراتية أميركية.

حتى قبل 11 أيلول/سبتمبر، تمّ اعتقال أو احتجاز 140 إسرائيلياً آخر أثناء تحقيق سرّي تناول التجسس الإسرائيلي في الولايات المتحدة على نطاق واسع وعلى المدى البعيد.

وتورِد المستندات السرّيّة تفاصيل "لمئات الحوادث التي وقعت في مدن وبلدات عبر البلاد" ادّعى المحققون أنها قد تكون نشاطات تقوم بهـــا مجموعة مخابراتية إسرائيلية منظّمة. واستهدف عملاء إسرائيليون قـــواعد عـــسكرية واقـــتحموها، بالإضافة إلى مقرّ إدارة مكافحة المخـــدّرات، ومكتب التحقيقات الفدرالي، ودائرة العائدات الداخلية (IRS)، ودائرة الهجرة ومنح الجنسية (INS)، ووكالة الحماية البيئية (EPA)، ودائـــرة المارشـــالات الأميركـــيين، وعشرات المؤسسات الحكومـــية، وحتى مكاتب سرّيّة ومقرّات خاصة لتطبيق القانون غير مُدرَجة على الجداول، كما استهدفوا عناصر المخابرات، وذلك وفقاً لمستندات فدرالية أوردها محطة فوكس نيوز. وأشار مستند صادر عن مكتب محاسبة الحكومة (هو شعبة تحقيق تابعة للكونغرس الأميركي) إلى إســـرائيل بأنها "البلد أ"، قائلاً إن "حكومة البلد أ تقوم بعمليات

التجسس الأكثر عدوانية ضد الولايات المتحدة وأي حليف لها". وجاء في تقرير لمخابرات الدفاع أن إسرائيل تملك "شهيّة نهمة للمعلومات... فهي تكتسب تكنولوجيا عسكرية وصناعية بطريقة عدوانية، والولايات المتحدة هي من أولى أولوياتها".

وظهر تقرير كارل كاميرون في موقع فوكس نيوز على الإنترنت بإيجاز في كانون الأول/ديسمبر 2001 (12 كانون الأول 2001) واختفى بعد ذلك - لم تكن هناك متابَعة له - دون أي تنصّل أو تصحيح رسمي و/أو اعتذار، كما يحدث عادةً في حالات الخطأ. ولم تتطرّق أي وسيلة إعلامية أخرى إلى هذا التقرير الهامّ حول التجسس. وممّا لا شك فيه أن ذوي النفوذ الأقوياء الموالين لإسرائيل في وسائل الإعلام لعبوا دوراً في هذا السياق. والأكثر أهميّة من "الضغط" المباشَر هو تولّي الهيمنة الإسرائيلية مهمة "إقناع" أو "تهديد" المؤسسة الإعلامية والقادة السياسيين باتخاذ أقصى درجات الحذَر من مغبّة إيراد تقارير تتناول وضع إسرائيل يدها على معلومات استراتيجية.

وحين تتعرّض شبكة العملاء الإسرائيليين في بعض الأحيان للاعتقال والاستجواب والطرد، لا تتمّ أبداً إدانة الدولة الإسرائيلية والوزراء المسؤولين علانيةً، كما أنه لا تكون هناك ردود فعل دبلوماسية رسمية سريعة كسحب السفير الأميركي بشكل رمزي ومؤقّت. والأسلوب الموازي والأقرب إلى التصرف الأميركي إزاء الجواسيس الإسرائيليين هو رد فعل دول العالم الثالث الفقيرة والعاجزة حيال عمليات التجسس الأميركية. وفي تلك الحالة، يطلب الحكام المُذعنون من السفير، وبهدوء، كبح جماح بعض العملاء الأكثر عدوانية.

أسئلة لا إجابات عنها: 11 أيلول/سبتمبر والإسرائيليون

إثر 11 أيلول/سبتمبر، سرت شائعات في الشرق العربي مفادها أن التفجير مؤامرة إسرائيلية لحث واشنطن على مهاجمة الأعداء العرب المسلمين. و لم تقدّم هذه الروايات ومؤلّفوها أكثر من دليل ودافع ظرفيّين، مفادهما أن حملة بوش المناهضة للإرهاب ستوفّر الغطاء الشرعي لقيام شارون بقمع الفلسطينيين في سياق مناهضة الإرهاب. ورفضت كل وسائل الإعلام والقادة السياسيون تماماً الروايات التي تورّط إسرائيل.

أما وقد أظهر المحققون الفدراليون الأميركيون أن الإسرائيليين يمكن أن يكونوا قد علموا بالهجوم قبل حدوثه دون أن يشاطروا الأميركيين المعلومات المتوافرة لديهم، فهذا الأمر يطرح أسئلة إضافية تتعلّق بالعلاقة القائمة بين الإرهابيين العرب والموساد الإسرائيلي. هل اخترق الإسرائيليون الجماعة أم جمعوا معلومات عنهم؟[1] قد توضح المعلومات السرّيّة أن هذه الأسئلة حيوية. ولكن هل تصبح المعلومات السرّيّة علنيّة يوماً ما؟ على الأرجح لا، ولسبب وجيه وهو أنها ستكشف عن مدى التأثير الإسرائيلي في الولايات المتحدة من خلال العملاء السرّيّين الإسرائيليين، والأهم من ذلك، من خلال جماعة الضغط القوية التابعة لها والقائمة ما وراء البحار، وحلفائها في

---

(1) ريتشارد رايد، المخادع السابق الذي سيصبح ناقل المتفجرات بالأحذية والذي أدين بمحاولة تفجير طائرة ركاب تابعة للخطوط الجوية الأميركية فوق الأطلسي في كانون الأول/ديسمبر 2001، تمكّن من دخول إسرائيل من خلال رحلة للعال، وذلك بالرغم من خلفيّته غير الاعتيادية. أخبار بي بي سي، 28 كانون الأول/ديسمبر 2001.

الحكومة والشؤون المالية. إن الافتقار إلى أي تصريح علني مرتبط باحتمال معرفة إسرائيل بـ 11/9 يشير إلى الطبيعة المترامية الأطراف، والكلّيّة الوجود، والعدوانية، لداعميها المقتدرين في الشتات[1]. ونظراً للأهمية السياسية والاقتصادية الكبيرة التي أولتها وسائل الإعلام لـ 11/9، والقوى الجارفة، والتمويل، والمؤسسات التي أُنشئت لمعالجة مسألة الأمن القومي، من المدهش عدم ورود أي ذكر إضافي لشبكات التجسس الإسرائيلية العاملة في المواقع الأميركية الأكثر دقّة والمناهضة للإرهاب.

لكن ذلك غير المدهش بتاتاً إن نحن فهمنا بطريقة صحيحة "العلاقة الفريدة" بين الإمبراطورية الأميركية وإسرائيل، التي هي قوة إقليمية.

مسائل نظرية

إن العلاقة بين الولايات المتحدة - وهي قوة إمبريالية- وإسرائيل، وهي قوة إقليمية، توفّر لنا نموذجاً فريداً للعلاقات بين الدول. في هذه الحالة، تتقاضى القوة الإقليمية أتاوة (2,8 مليار دولار سنوياً على صورة مساهمات مباشَرة من الكونغرس الأميركي)، إضافةً إلى ولوج الأسواق الأميركية بحرّيّة، وحماية اليهود الذين ارتكبوا جرائم ما وراء البحار من المقاضاة أو القيام بتسليمهم إلى

(1) انظر غوردن توماس ومارتن ديلون، روبرت ماكسويل، جاسوس إسرائيل المتفوّق: حياة ومقتل شخص قوي النفوذ في الإعلام، (كارول وغراف، نيويورك، 2002) لمناقشة معمّقة حول الروابط الإعلامية القوية القائمة مع إسرائيل.

الولايات المتحدة، بينما تتورط إسرائيل في أعمال تجسس تغلغليّة وفي تبييض الأموال. وفي يوم الجمعة من يوم 23 حزيران/يونيو 2000، أوردت *هاآرتس* تقريراً جاء فيه أن إسرائيل هي أحد الملاذات الرائدة في العالم لتبييض الأموال الدولية غير القانونية.

دام الموقع المهيمن لإسرائيل أثناء الرئاسات الديمقراطية والجمهورية حوالى نصف قرن. وبكلمات أخرى، هي علاقة تاريخية بنيويّة.

علاوة على ذلك، وضعت إسرائيل في المنتديات الدولية حدوداً للسياسة الأميركية في الشرق الأوسط. ودام الموقع المهيمن لإسرائيل أثناء الرئاسات الديمقراطية والجمهورية حوالى نصف قرن. وبكلمات أخرى، هي علاقة تاريخية بنيويّة غير قائمة على الشخصيات أو على سياسة خاصة عابرة.

وتنبثق فرضيات عديدة لدى تفحّص هذه العلاقة الفريدة. وتنشأ الأولى من واقع أن الدولة الإسرائيلية بحدودها الجغرافية تملك قدرة محدودة على الإقناع، أو التأثير الاقتصادي، أو السلطة العسكرية مقارنةً مع القوى الكبرى (أوروبا والولايات المتحدة). فقوة إسرائيل مرتكزة على قوة الشتات، وهي الشبكات اليهودية المقتدرة على الصعيدَين السياسي والاقتصادي وذات التنظيم العالي التي تلج بشكل مباشَر وغير مباشَر مراكز النفوذ والدعاية في أقوى بلد إمبريالي في العالم. ويتمّ تقاضي الأتاوة من خلال قدرة هؤلاء "الاستعماريين الداخليين" على التأثير، والذين ينشطون على مستوى صانعي الرأي في وسائل الإعلام ومن خلال الكونغرس والرئاسة. إن نحو 60 في المئة من التمويل الذي يحصل عليه الحزب الديمقراطي و35 في المئة من تمويل الحزب الجمهوري مصدره اليهود الموالون لإسرائيل.

وفي مقابل كل دولار تنفقه الشبكات اليهودية للتأثير في نتائج الاقتراع، تحصل الدولة الإسرائيلية على 50 دولاراً كمعونة لتمويل عملية بناء وتسليح المستوطنات في الأراضي المحتلة، وتتمَّم هذه المستوطنات ببِرك للسباحة، وحدائق رومانية، وخادمات فيليبينيات.

إن نحو 60 في المئة من التمويل الذي يحصل عليه الحزب الديمقراطي و35 في المئة من تمويل الحزب الجمهوري مصدره اليهود الموالون لإسرائيل.

من خلال الشبكات القائمة عبر البحار، يمكن للدولة الإسرائيلية التدخل مباشَرةً لوضع مقاييس المعونة الخارجية الأميركية المخصَّصة للشرق الأوسط. وتلعب هذه الشبكات دوراً رئيسياً في تحديد شكل النقاش الداخلي الذي يتناول السياسة الأميركية حيال إسرائيل. وتناقلت وسائل الإعلام وكرّرت الدعاية التي تربط القمع الإسرائيلي للفلسطينيين برد فعل مبرَّر أخلاقياً على ضحايا الهولوكوست (الإبادة الجماعية التي تعرّض لها اليهود إبّان الحرب العالمية الثانية). وقد حُرِّف اقتراح الرئيس الإيراني أحمدي نجاد القائل إنه يمكن التعويض بشكل أفضل على ضحايا الهولوكوست بإعطائهم أرضاً في أوروبا أو في البلدان التي ضحّت بهم، وتمّ تناقله بعد ذلك لنشر مفهوم متطرّف يقول إن إيران معادية للساميّة. ومن هرم الشبكة وحتى قاعات اجتماعات المحامين وغرف انتظار الأطباء، يهاجم داعمو الشبكة الموالون لإسرائيل بعدوانية كل منتقد، معتبرين إيّاه **معادياً للساميّة**. ومن خلال التهويل المحلّي والتَدخل الماكر في المِهَن، يدافع المتحمّسون عن سياسة إسرائيل وقادها، ويتبرّعون بالأموال، وينظّمون المقترعين، ويسعون لشَغل مناصب في

الكونغرس أو في الإدارة الأميركية. ومتى بلغوا هذه المناصب، ينحازون إلى متطلبات السياسة الإسرائيلية.

إن ظاهرة المغتربين ما وراء البحار الذين يحاولون التأثير في قوة إمبريالية ليست ظاهرة يهودية بشكل حصري. فالمغتربون الكوبيون في ميامي يؤثّرون إلى حدٍّ كبير في الحزبَين الرئيسيَّين. ولكن هذه الصلة لم تؤدِّ في أي حالة أخرى، باستثناء الحالة الإسرائيلية، إلى قيام علاقة مهيمنة ثابتة: إمبراطورية تستعمرها قوة إقليمية، إضافةً إلى قيام الولايات المتحدة بدفع الأتاوة لإسرائيل كونها خاضعة للمبادئ الإيديولوجية لاستعمارييها ما وراء البحار، وإطلاق حروب عدوانية لصالحها.

تُطرَح أسئلة عديدة دون الحصول على إجابات عنها فيما تسعى الإمبراطورية إلى نشر قوّاتها العسكرية بعدوانية، وتضيّق الأصوات الداخلية المعبِّرة عن القمع شروط النقاش العام.

بامتداد تأثير الاستعماريين ليطال الأوساط السياسية والفكرية في الولايات المتحدة، يشعر هؤلاء بثقة أكبر لدى التأكيد على تفوّق إسرائيل في هذَين المجالَين، ولا سيّما في ما يتعلّق بالإكراه السياسي والحرب. وهم يتباهون بوقاحة بالنظام الأمني الإسرائيلي المتفوّق وبأساليب الاستجواب التي تشمل تقنيات التعذيب، ويطالبون الولايات المتحدة باتّباع برنامج إسرئيل الحربي في الشرق الأوسط. وتُعتمَد في إسرائيل الإساءة الجسدية والعقلية إلى السجناء قَيد الاستجواب، وهذا الأسلوب معترَف به من قِبَل الدولة ويلقى تأييداً شعبياً واسعاً[1].

---

(1) فرانكل، غلن، "تكتيكات السجون مُعضلة إسرائيل منذ زمن طويل"، واشنطن بوست، 16 حزيران/يونيو 2004، صفحة أ01.

حتى أن سيمور هرش حثّ الأف بي آي ووكالات المخابرات في الولايات المتحدة على اتّباع تكتيكات المخابرات الإسرائيلية واستغلال أفراد عائلات المشتبَه بقيامهم بأعمال إرهابية، أو التهديد باستغلالهم[1]. (انظر إلى الفصل الرابع للمزيد من المعلومات عن انحياز هرش الموالي لإسرائيل). واقتدت الولايات المتحدة بإسرائيل من خلال سجن زوجات وبنات البعثيّين العراقيين المطلوبين. وأوصى ريتشارد بيرل، وهو الشخص المؤثّر إلى حدٍّ كبير آنذاك في وزارة الدفاع تحت قيادة رامسفيلد، بالتكتيكات الإسرائيلية القائمة على مهاجمة الأعداء بالقنابل. "عام 1981، واجه الإسرائيليون خياراً طارئاً: هل يُفترَض بهم السماح لصدام حسين بالاحتفاظ بمفاعل نووي قام الفرنسيون ببنائه، أم تدميره؟ وقرّر الإسرائيليون توجيه ضربة وقائيّة. كل ما نعرفه [حرفيًا] عن قوات صدام حسين [حرفيًا]، كان خيار الرئيس بوش مماثلاً: القيام بعمل وقائي أم الانتظار، ربما بعد فوات الأوان"[2].

ودعا استعماري شهير آخر، هو السيناتور جوزف ليبرمان، الولايات المتحدة لقصف سوريا والعراق وإيران على الفَور بعد 11/9، مردّداً بذلك نصيحة رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون للرئيس بوش. وأيّد ألن درشوفيتش علانيّةً، وهو أستاذ في القانون من خرّيجي هارفرد، اعتماد التعذيب والتشريع القمعي في الولايات المتحدة وفقاً للنموذج الإسرائيلي في الاعتقال اللامحدود للفلسطينيين[3].

(1) مقابلة أُجريت على الإذاعة الوطنية العامة، تشرين الأول/أكتوبر 2004.

(2) نيويورك تايمز، 28 كانون الأول/ديسمبر 2001، صفحة 19.

(3) أخبار سي بي أس، 20 أيلول/سبتمبر 2002.

لقد أخضع الاستعماريون السياسة الأميركية لمتطلبات السياسة الخارجية الإسرائيلية، وذلك بمعزل عن الظروف الخاصة للولايات المتحدة وانعكاسات القرارات المتطرّفة عليها والتي تدفعها سياسات إسرائيل الاستعمارية لاتخاذها. وبالإضافة إلى كونهم ممثّلين للنفوذ الاستعماري الإسرائيلي في الولايات المتحدة، حاولوا أيضاً تطبيق الإجراءات الأمنية - التعذيب أثناء الاستجواب - وباتوا مؤيّدين ملحاحين لحرب معمّمة في الشرق الأوسط. ونجح الاستعماريون بالتأثير في الحكومة الأميركية لإعاقة أي مبادرات أوروبية للقيام بوساطات دولية، إضافةً إلى إعاقة تنفيذ خطة ميتشل برعاية أميركية، بهدف تأييد وجود مراقبي سلام في الأراضي المحتلة. وباختصار، وبالرغم من انتقادها المحدود والعرَضي للتجاوزات الإسرائيلية، لم تكن الولايات المتحدة مؤيّداً لإسرائيل بلا قَيد أو شرط، ولكنها كانت كذلك في ما يتعلّق بالقمع الدموي المطوَّل واحتلال الأراضي الفلسطينية، سيّما وأن واشنطن تسعى مع أطراف دوليين آخرين إلى ضمان أمن هذه الأراضي. والهيمنة الإسرائيلية على الولايات المتحدة من خلال استعمارييها توفّر لها سلاحاً قوياً لتحييد حلفاء الولايات المتحدة في الناتو، والزبائن الذين يشترون النفط العربي، والغالبية العظمى من أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة، وحتى شعبها في بعض قضايا الشرق الأوسط.

الأمر الأكثر خطورة هو الشك غير المنطقي بالآخرين الذي اكتسبته الولايات المتحدة من السياسة الإسرائيلية المتّبَعة من قِبَل الاستعماريين الإسرائيليين. فكل العرب مُشتبَه بهم كما عبّرت عن ذلك الصَيحة التي علت في الكونغرس بتحريض صهيوني، وذلك

بسبب قيام شركة في أبو ظبي بشراء مرافئ أميركية. كذلك، يُفترَض تهديد الأعداء الشرق أوسطيين بالقصف هذا إن لم يتمّ اللجوء إلى قصفهم بالفعل. ويُفترَض بالمحاكم العسكرية السرّيّة والأحكام القضائية المعجَّلة معاقبة الإرهابيين المشتبَه بهم. هذا، وإن وسائل الإعلام مُعَدّة خصّيصاً لتنشيط متلازمة الذُهان الارتيابي الإسرائيلي: تضخيم كل تهديد، تمجيد العزم الإسرائيلي وفعّاليّته ضد "الإرهابيين" العرب. وكان قد أدّى الأسلوب السياسي المرتكز على الشك والارتياب إلى قيام إسرائيل بشنّ هجمات على بلدان عربية في الشرق الأوسط، والتجسّس على الولايات المتحدة، وشراء مكوّنات نووية من الولايات المتحدة بشكل غير قانوني، والقيام بعنف متواصل ضد الفلسطينيين واللبنانيين. والتمثّل الأميركي بالأسلوب الإسرائيلي المرتكز على الشك المفرط لا يؤدّي إلى عواقب وخيمة وخطرة على الشرق الأوسط فحسب، بل على بقيّة العالم أيضاً وعلى الحرّيّة الديمقراطية في الولايات المتحدة.

وما ينساه الاستعماريون المثقّفون ووكلاء إسرائيليون آخرون للدعاية والإعلان هو الإشارة إلى أن السياسة الأمنية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة هي كارثة كلّيّة: هوجمت محطات الحافلات ومراكز التسوّق العامة وفنادق الدرجة الأولى ومطاعم البيتزا في إسرائيل، إضافةً إلى كافة الحدود البرّيّة الإسرائيلية، وقُتل وأُصيب مئات المدنيين الإسرائيليين.

ما ينساه الاستعماريون المثقّفون ووكلاء إسرائيليون آخرون للدعاية والإعلان هو الإشارة إلى أن السياسة الأمنية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة هي كارثة كلّيّة.

وفرّ كذلك عشرات الآلاف من الإسرائيليين المثقّفين من البلد بسبب انعـــدام الأمن، وبالتحديد، بمجاورة العنف، وهو أمر ليس باستطاعة الـــشين بت أو الجيش أو المستوطنين تجنّبه. وما زاد من شعور عدد قلـــيل من المفكرين الإسرائيليين بالمرارة بصفة خاصة هي التكاليف الباهظة لحركة الاستيطان[1].

يُـــصرّ الاستعماريون على إنتاج ظروف مؤاتية للقمع الداخلي والحـــرب الخارجية، متعامين عن حالات الفشل الأمني في إسرائيل. ونظـــراً لدورهم الفكري في وسائل الإعلام، وبروزهم في المقالات الافتتاحـــية وصفحات الرأي في الصحف الأكثر تمتّعاً بمكانة رفيعة، تتخطّـــى رســـالة الاستعماريين أعدادهم المحدودة والنوعيّة المتوسطة لفكرهم. ويمكن للمركز والمال التعويض عمّا يعانون منه من أمراض ســـيكولوجية وسياســـية، إضافةً إلى تجاوز أي تأنيب للضمير حول ازدواجية الولاء.

من يموّل دولة إسرائيل

إن معـــرفة هـــويّة مـــن يقوم بتمويل دولة إسرائيل هي مسألة أساســـية لأن إسرائيل كما نعرفها اليوم دولة غير قابلة للحياة دون دعـــم خارجي ضخم. وكما جاء في البيان الافتتاحي لدى العرض للموجـــز المعدَّل لدائرة الأبحاث في الكونغرس في تموز/يوليو 2004 بعنوان إسرائيل: المساعدة الخارجية الأميركية: "إسرائيل غير مكتفية ذاتـــياً علـــى الـــصعيد الاقتصادي وتعتمد على المساعدة الخارجية

(1) جدعـــون ليفـــي، "الـــتعويض علـــى المـــستوطنين لأي سبب؟" هاآرتس، 15 حزيران/يونيو 2004.

إسرائيل غير مكتفية ذاتياً على الصعيد الاقتصادي وتعتمد على المساعدة الخارجية والاستدانة للحفاظ على اقتصادها.

والاستدانة للحفاظ على اقتصادها"[1]. وبالـــرغم ممّا قد يبدو أنه عقبة لا يمكن تذليلها ليس فقط أمام ازدهار إسرائيل بل أيضاً أمام استمرارها، فقد أبلى هذا البلد بالرغم من ذلك بلاءً حسناً. فيتمّ جمع مليارات الدولارات من مجمـــوعة مـــنوَّعة من المؤسسات اليهودية وغير اليهودية لمساندة آلة الحرب الإسرائيلية وسياسة المعونات المالية السخيّة المخصَّصة لليهود، وذلـــك لتشجيعهم على الاستيطان في الأراضي المحتلة وفي إسرائيل؛ وهي كافية لوضع البلد في المرتبة الثامنة والعشرين في العالم لجهة تمتّع المواطنين اليهود في إسرائيل بالمعايير الأعلى للحياة[2].

بـــدون المعونة الخارجية، يتطلّب الاقتصاد الإسرائيلي إدخال تخفيـــضات حادّة على معايير الحياة وظروف العمل، ممّا يؤدّي إلى هـــروب محـــتمَل لمعظـــم المهنيين الإسرائيليين، ورجال الأعمال، والمهاجـــرين الجـــدد إلى ما وراء البحار. وفي هذه الحالة، تخفَّض الميـــزانية العسكرية الإسرائيلية وتصبح إسرائيل مضطرَّة للحدّ من تـــدخلاتها العسكرية في الشرق العربي والأراضي المحتلّة. وستكفّ إســـرائيل عـــن كونها دولة تتّكل في جمع مداخيلها على المعونات المالـــية الخارجـــية، وتكـــون مُضطرَّة للشروع في نشاط إنتاجي،

(1) الموجز الخاص بالكونغرس الصادر عن دائرة الأبحاث التابعة للكونغرس بعنوان "إســـرائيل: المساعدة الأميركية الخارجية" بقلم كلايد آر. مارك، تمّ تحديثه في 12 تموز/يوليو 2004. رمز التسلسل IB86055.

(2) انظـــر إلى الدخل الفردي الإجمالي للعام 2005 وفقاً لمؤشرات التطور الصادرة عـــن البـــنك الـــدولي، في الموقـــع http://www.finfacts.com/biz10/globalworldincomepercapita.htm.

كالعودة إلى الزراعة، والصناعة، والخدمات مع استثناء استغلال الخادمات الآسيويات اللواتي يتقاضَينَ أجوراً منخفضة، والعاملين في ميدان الزراعة المستورَدين من أوروبا الشرقية، وعمّال البناء الفلسطينيين.

وما زالت أوروبا تمنح امتيازات للصادرات الإسرائيلية[1] والخدمات المالية، وذلك بالرغم من الهجمات العلنية والماكرة التي يقوم بها قادة الحزبَين الإسرائيليَّين. ووضعت المنظمات اليهودية البارزة المرتبطة بأحزاب رئيسية في فرنسا وإنكلترا حدّاً لأي مساع لاستخدام الورقة التجارية بهدف الضغط على إسرائيل للموافقة على وساطة الاتحاد الأوروبي أو الأمم المتحدة. ومن جهة ثانية، فإن العلاقات الأوروبية التجارية والمالية مع إسرائيل ليست الدعامة الأساسية لآلة الحرب الإسرائيلية. فالسند الأساسي لدعم مالي طويل الأمد وعلى نطاق واسع موجود في المؤسسات العامة والخاصة في الولايات المتحدة.

---

(1) إن مسعى الاتحاد الأوروبي لتخفيض نسبة الواردات الإسرائيلية المعفيّة من الرسوم والتي تُنتجها الأراضي المحتلة بدا عازماً لدى اتخاذ قرار بفرض رسوم على المنتجات التي كُتب عليها مثلاً "صنع في أرييل، إسرائيل" لا تلك التي كُتب عليها "صنع في تل أبيب، إسرائيل". "يبدو الأمر وكأنه إنقاذ لماء وجه إسرائيل من خلال استخدام كلمة 'إسرائيل' لتحديد موقع المستوطنات، ولكنها تسمح للاتحاد الأوروبي بإضفاء أهمية على الأمر من خلال فرض تعرفات جمركية على السلع التي يتمّ إنتاجها ما وراء الخط الأزرق العائد إلى ما قبل العام 1967"، جاء في مقال لرويترز نُشر بتاريخ 5 آب/أغسطس 2004 وهو بعنوان "الاتحاد الأوروبي، إسرائيل عازمة على نزاع تجاري حول المستوطنات". ومع ذلك، قد تكون رويترز قد أشارت بدلالة أكبر إلى أن هذا القرار أدّى إلى اعتبار الاتحاد الأوروبي الأراضي المتنافسة قائمة في إسرائيل.

في الــولايات المــتحدة، هــناك أربعة مصادر أساسية لدعم الاقتــصاد الإســرائيلي المنــتج على الصعيد المالي والإيديولوجي والسياسي:

1. مساهمون يهود أثرياء ومنظمات لجمع الأموال.
2. الحكومة الأميركية - الكونغرس والرئاسة على حدٍّ سواء.
3. وســائل الإعلام، ولا سيّما *نيويورك تايمز*، وهوليوود، وشبكات التلفزة الرئيسية.
4. رؤساء نقابات العمّال وصناديق معاشات التقاعد.

> **ينشأ التأثير اليهودي من واقع أنهم يعملون بشكل جماعي: هم منظّمون وناشطون ويركّزون على قضيّة واحدة؛ السياسة الأميركية في الشرق الأوسط.**

هــناك تداخل جوهري في هذه الهيئات المؤسساتية الأربع. فعلى سبيل المــثال، يعمل مؤيّدو اليهود في اللوبي الإســرائيلي مــع قــادة الكونغرس، وبشكل وثيق، لضمان معونة عسكرية واقتصادية أميركية طويلة المدى وعلى نطــاق واســع لإسرائيل. إن معظم وسائل الإعلام وعدداً قليلاً من نقابات العمّال متأثّرة بأولئك الذين يؤيّدون آلة الحرب الإسرائيلية بلا قــيد أو شرط. واليهود الموالون لإسرائيل ممثّلون بشكل غير متناسب في القطاعــات المالــية، والسياسية، والمهنية، والأكاديمية، وقطاعات العقارات، والتأمين، والإعلام، في الاقتصاد الأميركي. وفيما يشكّل الــيهود أقلــيّة في كلّ من هذه الفئات، ينشأ نفوذهم وتأثيرهم غير المتناســب مــن واقــع أنهم يعملون بشكل جماعي: هم منظّمون، وناشــطون، ويركّــزون على قضيّة واحدة؛ السياسة الأميركية في الــشرق الأوســط، وبــصفة خاصة، ضمان دعم واشنطن الكبير

والمستمر وغير المشروط على الأصعدة العسكرية، والسياسية، والمالية. ويعملــون انطلاقاً من مواقعهم الاستراتيجية في هيكلية النفوذ هذه ويكــون باستطاعتهم التأثير في السياسة ومراقبة الآراء، وأي معلّقين منــشقّين، وعــدم الــسماح لهم بالظهور بحرّيّة في وسائل الاتصال والنظام السياسي.

في الوســط الــسياسي، قــام السياسيون الموالون لإسرائيل والمــنظمات اليهودية المقتدرة بضم قواهم[1] إلى القادة المسيحيين الأقــوياء، الأصــوليين، والمنتمين إلى اليمين المتطرّف، إضافةً إلى المتمــتعين مــنهم بشعبية كبيرة، وموالين لإسرائيل والذين تقوم روابط بينهم وبين القطاعَين العسكري والصناعي، كوزير الدفاع رامــسفيلد ونائــب الــرئيس تشيني. وقد عزّز دعم إسرائيل غير المشروط لواشنطن إبّان الحرب الباردة والحملة العسكرية المناهضة للإرهــاب اللاحقــة الــروابط بــين القادة السياسيين اليمينيين

---

(1) إيلــي كينتش، "مجموعة تجمع الملايين لإطلاق لجنة AIPAC مسيحية للعمل السياسي"، فوروورد، 21 حزيران/يونيو 2002. يكتب كينتش:

فيما يتواجد عدد قليل من المجموعات المسيحية الموالية لإسرائيل في مختلف أنحاء الــبلاد، يعــتقد ريد وإكشتاين بأن علاقاتهم والميزانية السنوية للرابطة الدولية البالغة 30 مليون دولار ستعززان تأييدهم للدولة اليهودية.

"كانــت على الدوام علاقة غير رسمية"، قال ريد عن صلات اليمين المسيحي بإســرائيل. وأضاف ريد أن منظمات كالائتلاف المسيحي كانت قد اتخذت علــى الــدوام مواقف موالية لإسرائيل، ولكن هذه المسألة "كانت دائماً أحد مواضيع النقاش الـــ 25". وما تناضل من أجله إسرائيل يناضل من أجله أيضاً المــزيج الموالي لإسرائيل، قال إكشتاين، وهي القدرة على تعبئة الكنائس الـــ 100,000 المُلحَقة بالمجموعات و250,000 مانح للتأثير بواشنطن في الأوقات الحاسمة.

الأميركـــيين، والـــسياسيين المـــوالين لإسرائيل، وقادة المنظمات اليهودية الرائدة. وتتوافق سياسات واشنطن القائمة على الإمبريالية الجديـــدة بشكل ممتاز مع غزو شارون - أولمرت للأراضي المحتلة وتدميرها.

إن المـــنظمات اليهودية المنظّمة والثريّة، وممثّلي الشعب المطيعين في الكونغـــرس، والمنظمات الأصولية اليمينية، ليسوا الداعمين الماليين الوحيدين لإسرائيل. فقد دأب دافعو الضرائب الأميركيون على تمويل آلـــة الحرب الإسرائيلية بأكثر من ثلاثة مليارات دولار في العام على صورة مساعدة مباشَرة لأكثر من 35 عاماً (يفوق مجموعها الآن 100 مليار دولار وهي مستمرة بالازدياد).

دعم الحكومة الأميركية لإسرائيل

يؤدّي الدعم اليهودي لإسرائيل انطلاقاً من القطاعات المذكورة أعلاه في المجتمع الأميركي إلى قيام الحكومة الأميركية بدعم إسرائيل باطّـــراد من خلال تقديم المعونات لإسرائيل بإسراف. وكما يذكر الموجز الصادر عن سي آر أس، "تحظى إسرائيل بمعاملة مؤاتية وبفوائد خاصة وفقاً لبرامج المساعدة الأميركية التي قد لا تكون مُتاحة لبلدان أخـــرى". ويتوسّـــع الموجز الصادر عن سي آر أس في عرضه لهذه الفـــوائد مُـــدرِجاً إيّاها في الخانات التالية: تمويل على صورة تدفّق نقـــدي، تحـــويل نقدي وفقاً لأسلوب إي أس أف، تعويضات وفقاً لأسلوب أف أم أف، تحويلات سابقة لأوانها، إستنفاد وفقاً لأسلوب أف أم أف، تـــدابير تمويلية فريدة وفقاً لأسلوب أف أم أف، اعتماد أسلوب أف أم أف لأعمال البحث والتطوير، اعتماد أسلوب أف أم أف لعمليات الشراء داخل البلد.

وبعد جمعها بالموجز الصادر عن سي آر أس عام 2004[1]، توفّر البيانات المُدرَجة أدناه فكرة عامّة عن مدى المعونة الأميركية وميزاتها الخاصة:

- حصلت إسرائيل على أكثر من 90 مليار دولار كمعونة أميركية حتى العام 2003، منها 75 مليار على صورة هبات (أي غير قابلة للرّد)، و15 مليار دولار على صورة قروض.
- منذ العام 1985، وفّرت الولايات المتحدة لإسرائيل ثلاثة مليارات دولار سنوياً على صورة هبات.
- بلغت المساعدة المقدّمة لإعادة استيطان المهاجرين السوفيات والإثيوبيين ذروتها عام 1992؛ 80 مليون دولار، ولكن الإعانات المالية ما تزال مستمرّة إذ بلغت 60 مليون دولار عام 2003، و50 مليون دولار عام 2004، والمبلغ ذاته عام 2005.
- في العام 1990، طلبت إسرائيل مبلغ 10 مليارات دولار على صورة ضمانات قروض، ممّا يمكّنها من الاقتراض من المؤسسات التجارية الأميركية التي تكون قروضها مضمونة إذا ما تخلّفت الحكومة الإسرائيلية عن تسديدها. وفي العام 2004، أُضيفت 9 مليارات دولار على صورة ضمانات قروض إلى بي. إل. 1088-11. (ملاحظة: ضمانات القروض هي نطاق الدعم المالي لإسرائيل الذي تؤثّر فيه الحكومة الأميركية تعبيراً عن استيائها من النشاطات الاستيطانية الإسرائيلية. فقد حُذف من ضمانات القروض الممنوحة للفترة الممتدة بين عامَي 1993 و1996 والبالغة

(1) في الأعلى، هامش 26.

10 مليارات دولار مبلغ 774 مليون دولار جزاءً لتوسيع رقعة الاستيطان[1]. لكن لا أهمية لهذا الإجراء: فإسرائيل تسحب قروضاً بقيمة 6.6 مليار دولار فقط من أصل 10 مليارات دولار، ممّا يُبطل تأثير قيمة الجزاء المزعوم.

- أصبحت كل المعونة الاقتصادية تحويلات نقدية على صورة هبات عام 1981، واعتُمدت الطريقة نفسها عام 1985 للمعونات العسكرية.

وتُستخدَم ما دُعِيت تقنيات لبلوغ الدرجة الفُضلى لزيادة المدى الحالي للتمويل، وعلى سبيل المثال:

- قروض يتمّ التخلّي عن ضرورة ردّها (أو تعهّد بتوفير مساعدة اقتصادية لإسرائيل مساوية لقيمة قروض سابقة تدين بها إسرائيل للولايات المتحدة). فمنذ العام 1974 وحتى العام 2003، حصلت إسرائيل على أكثر من 45 مليار دولار على صورة قروض تمّ التنازل عنها.
- منذ العام 1982، تدفع الولايات المتحدة لإسرائيل أموالاً وفقاً لأسلوب إي أس أف دفعةً واحدة في وقت مُبكر من السنة المالية، وذلك بدلاً من دفعها على أربعة أقساط فصلية كما جرت العادة مع بلدان أخرى. "تدفع الولايات المتحدة فوائد إضافية على المال التي تُقرضه لتسديد الدفعات مرة واحدة.

---

(1) الموجز الخاص بالكونغرس الصادر عن دائرة الأبحاث التابعة للكونغرس والذي أعدّه كلايد آر. مارك أشار إلى أنه "لا يمكن لإسرائيل استخدام أي معونة أميركية في الأراضي المحتلّة لأن الولايات المتحدة لا تريد الظهور بمظهر [حرفياً] المؤيّد لقيام إسرائيل بضمّ الأراضي دون مفاوضات".

ويقـــدّر مسؤولو تقديم المساعدات الاقتصادية للمناطق المصابة بالركود AID بأن الأمر يكلّف الولايات المتحدة ما بين 50 و60 مليون دولار في العام لاقتراض أموال بهدف تسديد دفعات مرة واحـــدة. وبالإضافة إلى ذلك، تدفع الولايات المتحدة لإسرائيل فوائد على الاعتمادات المالية الممنوحة تبعاً لأسلوب إي أس أف والمـــستثمَرة علـــى صورة سندات خزينة أميركية، وذلك وفقاً لمـــسؤولي AID. وجـــاء في أحد التقرير أن إسرائيل كسبت في العـــام 1991 نحـــو 86 مليون دولار من الفائدة المستحقّة على ســـندات الخـــزينة الأميركـــية"[1]. واستمرّت هذه الممارسة في السنوات اللاحقة.

إضـــافةً إلى ذلـــك، دعمـــت الولايات المتحدة تطوير الصناعة العسكرية الدفاعية الإسرائيلية من ضمن أمور أخرى، وذلك من خلال:

- 625 مليون دولار لتطوير ونشر صواريخ أرّوو المضادة للصواريخ.
- 1.8 مليار دولار لتطوير طائرة ليفي. "في 20 آب/أغسطس من العـــام 1987، إقترحت الحكومة الإسرائيلية لصالح إلغاء مشروع ليفـــي، ولكـــنها طلبت من الولايات المتحدة مبلغ 450 مليون دولار لدفعـــه بدلاً للعقود المُلغاة. ووافقت وزارة الخارجية على رفع مؤشّر أف أم أف من 300 إلى 400 مليون دولار لرفع المبلغ المخصَّص لإسرائيل ودفع نفقات إلغاء مشروع ليفي"[2].

(1) الموجـــز الخـــاص بالكونغـــرس الصادر عن دائرة الأبحاث التابعة للكونغرس، في الأعلى، هامش 26.

(2) الموجـــز الخـــاص بالكونغـــرس الصادر عن دائرة الأبحاث التابعة للكونغرس، في الأعلى، هامش 26، ص 9.

- مساعدة عسكرية أميركية لمشتريات عسكرية لإسرائيل (26.3%).

هذا يعني أنه كان بالإمكان إنفاق 568 مليون دولار من المعونة العسكرية في إسرائيل عام 2004. (معظم المعونة العسكرية الأميركية مخصَّصة لشراء أسلحة أميركية).

يأتي مزيد من الدعم على صورة ضمانات تقدّمها الحكومة الأميركية لتمكين إسرائيل من الحصول على النفط وفقاً لمذكرة الاتفاقية بين إسرائيل والولايات المتحدة التي عُقدت في 1 أيلول/سبتمبر 1975. ووفقاً لإد فويامي، وهو كاتب في *الأوبزرفر* اللندنية:

> كان يجري تجديد المذكرة كل خمس سنوات بهدوء، وتُرفَق هذه الخطوة بتشريع خاص تقوم الولايات المتحدة بموجبه بمدّ إسرائيل باحتياطيّ استراتيجي من النفط حتى وإن أدّى ذلك إلى عدم كفاية محليّة من هذه المادة - بتكلفة ثلاثة مليارات دولار (1.9 مليار استرليني) عام 2002 يسدّدها دافعو الضرائب الأميركيون[1].

يبدو أن كل تطوير رئيسي داخل إسرائيل، أو تطوير تستهلّه هذه الدولة، يؤدّي إلى نشوء **تكاليف خاصة** يُطلَب من الولايات المتحدة تسديدها، سواءً كانت مرتبطة بدعم عودة السوفيات والأثيوبيين اليهود إلى إسرائيل، أو بانسحاب من الأراضي المحتلة. وفي العام 2005، تقدّمت إسرائيل بطلب معونة أميركية لتغطية تكلفة انسحابها من غزة وتراوحت ما بين 2 و3 مليارات دولار،

---

(1) إد فويامي، "إسرائيل تنشد خط أنابيب للنفط العراقي"، الأوبزرفر، 23 نيسان/إبريل 2003. انظر أيضاً إلى هامش 7، في الأعلى.

ولكنها سحبت ذلك الطلب ما إن ضربت الأعاصير شواطئ الخليج الأميركي[1]. ومن جهة ثانية، وبتسلّم أولمرت رئاسة الوزراء، فاقت التكاليف المفترَضة لخطة الانسحاب ككل (التي كانت أحادية الجانب بالرغم من طلب الحكومة الأميركية بوجوب التفاوض حول هذا الأمر) هذا المبلغ بكثير، وكان الأمر دلالة على "عزمه المستقبلي على طلب المساعدة المالية الدولية لتسديد تكلفة الخطة التي قدّر علماء الاقتصاد الإسرائيليون بأنها تتراوح ما بين 10 و25 مليار دولار"[2].

السندات الإسرائيلية

على امتداد فترة قيامها طيلة خمسين عاماً، جمعت السندات الإسرائيلية حوالى 22 مليار دولار لدولة إسرائيل. ويدّعي جدعون برات، المدير التنفيذي الأول للسندات الإسرائيلية، أن السندات موّلت أكثر من 50% من تطور إسرائيل[3]، علماً أن هذه النسبة قابلة للنقاش بوضوح بالنظر إلى معدّل الهبات، التي تقدّمها الحكومة الأميركية والمذكورة أعلاه، وغيرها.

ووفقاً لمؤسسة التطوير التي تُصدر نشرات عن إسرائيل، تُستخدَم السندات لثماني فئات من مشاريع التطوير تطال البنية التحتية، كبناء المرافئ، وشبكات الطاقة، والنقل، والاتصالات... إلخ.

---

(1) أوري نير، "يبدأ أولمرت بوضع خطة أحادية الجانب"، فوروورد، 19 أيار/مايو 2006.

(2) المرجع نفسه.

(3) آفي ماكليس، "بتحقيق السندات تطوراً بنسبة 50 في المئة، هل يخبو دورها الحاسم مرة أخرى؟"، جويش نيوز ويكلي، 16 حزيران/يونيو 2000.

ولكن، كما أشار راسل موخِيبر:

> ولكـــن مـــا لا تذكره النشرات هو أن مشاريع التطوير هذه تـــشمل أيـــضاً المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة. وتحوّل إيرادات أخرى للسندات من حساب التطوير الـــتابع للحكومة الإسرائيلية إلى ميزانيتها العادية ليتمّ إنفاقها على القوات المسلّحة، وأجهزة المخابرات، ووكالات أخرى، وفقاً للموجز الإحصائي الذي تنشره الحكومة الإسرائيلية كل عام[1].

قـــد يكون أعضاء نقابات العمال الذين ينتمون إلى عامة الناس تفاجـــأوا لدى علمِهم بأن صناديق معاشات التقاعد الخاصة بهم يتمّ اســـتثمارها في السندات في إسرائيل بمعدّلات أرباح أقل من العادي وبمجازفـــة أكبر. وبالرغم من العائدات المتواضعة التي تحققها نوعية الاســـتثمار في الـــسندات الإسرائيلية، فقد أقرضت نقابات العمال الأميركـــية الأكـــبر حجمـــاً، ومـــدراء صناديق معاشات التقاعد، وشـــركات كـــبرى متعددة الجنسيات، وبشكل جماعي، مليارات الدولارات للنظام الإسرائيلي. وفي كافة الحالات، يعود اتخاذ قرارات بـــشراء ســـندات حكومية أجنبية إلى قادة النقابات العمالية ومدراء الصناديق المتحدة، وذلك دون استشارة الاعضاء أو حاملي الأسهم[2]. ولدى طرح سؤال على ناتان زيركن، وهو مدير مالي في نقابة عمال

---

(1) المرجع نفسه.

(2) "الـــسندات الإســـرائيلية تجمـــع 130 مليون دولار من العمال الأميركيين"، جيروزالـــيم بوســـت، 25 تمـــوز/يوليو 2001. انظر أيضاً إلى "العال تتخذ خطـــوات لـــتفادي مـــشاحنة مع نقابة العمال الكبيرة - شارون يتدخل"، فوروورد، 21 شباط/فبراير 2003.

البيع بالتجزئة والجملة والمتاجر التنويعية، حول ما إذا كانت نقابته مستمرّة بشراء السندات الإسرائيلية بالرغم ممّا تمارسه إسرائيل من قمع واعتقال لأعضاء نقابات العمال الفلسطينيين والناشطين، أجاب: "بالتأكيد، لم يكن الفلسطينيون يملكون شيئاً على الإطلاق إلى أن دخلت إسرائيل"[1].

تقوم المافيا بالتحكم أو التأثير في العديد من نقابات العمال التي تشتري السندات الإسرائيلية. ونقابة سائقي الشاحنات هي الشاري الأكبر لهذه السندات، وهي التي تمّت مقاضاة أكبر عدد من مسؤوليها من ذوي المراتب العليا بتهم إقامة علاقات مع المافيا، وسرقة مبالغ ضخمة من صندوق معاشات التقاعد الخاص بأعضائها. وفي هذه الحالة، كان رجال العصابات في نقابة العمال يدفعون لوسائل الإعلام لقاء شنّ حملة دعائية ملائمة ونيل دعم المنظمات اليهودية المحترَمة عبر شراء سندات إسرائيلية.

لقد استُخدمت أيضاً صناديق معاشات التقاعد الخاصة بنقابات العمال من قِبَل الموظفين الحكوميين العاملين فيها لشراء سندات في إسرائيل. والحالة ذات السمعة الأسوأ خبرتها النقابات العالمية للسيدات العاملات في الملابس (ILGWU)، وتُدعى الآن UNITE، وهي نقابة يشكّل السود وذوو الأصول الإسبانية والصينيون الذين يتقاضون في معظمهم الحدّ الأدنى للأجور، أو ما دون ذلك، نسبة 95 بالمئة من المنتسبين إليها. فقيادة النقابة وهيئة موظفيها هم في غالبيّتهم يهود يتقاضون بدل مصاريف إضافية تتراوح ما بين 100,000 و350,000

(1) راسل موكيبر، "سندات المودّة"، ملتيناشونال مونيتور 1988. انظر إلى http://multinationalmonitor.org.

دولار في العـــام[1]. وبـــتحويل أكثر من 25 مليون دولار من صندوق معاشـــات التقاعد إلى إسرائيل، يُحرَم العمال الأميركيون من الحصول على قروض للإسكان، والخدمات الاجتماعية، والدفاع القانوني... إلخ. فمـــن الواضح أن الرؤساء اليهود لنقابة العمال هذه يشعرون بمودة أكبر لدولة إسرائيل التي تضطهد العمال الفلسطينيين أكثر مما يشعرون بمودة لعمّـــالهم غير المنظمين بشكل جيد والذين تمّ استخدامهم في ظل أسوأ ظروف عمل في الولايات المتحدة.

وقـــام المـــروّجون للسندات الإسرائيلية، وبدعم من الرؤساء الفاســـدين لـــنقابات العمال الذين تؤثّر فيهم المافيا، ببيع كميات كبيرة ممّا تملكه النقابات من هذه السندات التابعة لـــ 1500 منظمة عمالـــية لحكـــومة أجنبـــية كإسرائيل تشهد اضطرابات اقتصادية وبمعدلات فائدة تقلّ عن ضمانات أخرى متوافرة، وتقلّ بكثير عمّا يتوقعه معظم المستثمرين من قروض ممنوحة. وفي 22 آذار/مارس من العـــام 2002، نشرت المجلة الأسبوعية اليهودية *فوروورد* في الواقع رقمـــاً يـــتعلّق بقيمة تلك القروض، ناقلةً عن مدير اللجنة الدولية لعمـــال إســـرائيل قوله إن "العمّال الأميركيين يملكون 5 مليارات دولار على صورة سندات إسرائيلية".

العمّال الأميركيون يملكون 5 مليارات دولار على صورة سندات إسرائيلية.

هناك عوامل عديدة تُسهم في قيام

(1) راشـــيل دونـاديـــو، "مناقـــشة الموضوع أثناء عشاء نقابة العمال الإسرائيلية"، فـــوروورد، 22 آذار/مـــارس 2004؛ انظر أيضاً إلى روبرت فيتش، "مسألة الفـــساد"، متـــرو لايبر بريس أسوسييشن، 21 تشرين الأول/أكتوبر 1999، وروبرت فيتش، الشهادة، مجلس النواب، جلسة سماع حول التنافسية في مكان العمل، 31 آذار/مارس 1998.

رؤســاء نقابات العمال الأميركية بتحويل صناديق معاشات التقاعد والمـستحقات العائـدة إلى أعضائها إلى سندات إسرائيلية: الحماية الـسياسية ومـا ينالونه من احترام كونهم شركاء لإسرائيل وللذين يمارسـون ضـغوطاً خدمـةً لمصالحها؛ هذا الأمر هام بصفة خاصة للمـسؤولين المـرتبطين بالمافـيا وأولـئك الفاسـدين. والروابط الإيديولوجية والإثنية بين القادة اليهود لنقابات العمال وإسرائيل هي العامل الثاني.

وفـيما تكـون الـسندات الإسرائيلية عاملاً ينتقص من قوة الاقتصاد الإسرائيلي المعاصر - ربما بسبب ضمانات القروض البالغة 10 ملـيارات دولار والمنتهـية عـام 1998؟[1] - ما تزال الدولة، وحكـومات الـولايات، والمدرّسـون، والجامعات، والشرطة في الولايات المتحدة، إضافةً إلى 100,000 فرد يشترونها ويحتفظون بها.

شركاء في الإبادة الجماعية

في نيسان/إبريل 2002، نظّم أكثر من 100,000 شخص هم في معظمهم يهود وأصوليّون مسيحيون مسيرة دعماً لنظام شارون أثناء حصار جنين، وخطب فيهم بول وولفويتز، ووليام بينيت، وهيلاري كلينـتون، وديك أرمي، ورودي جولياني، وديك غيفارت، وجون سـويني رئيس AFL-CIO، وآخرون. وفي إسرائيل، دعم اثنان من ثلاثـة إسـرائيليين (65%) شارون في أواخر نيسان/إبريل 2002،

(1) "مـنذ العـام 1995، ضمنت الحكومة الإسرائيلية موطئ قدم لها في الأسواق العالمـية بهـدف إيجاد أطر عمل تمويلية بديلة وثابتة بعد انتهاء برنامج ضمان القروض الأميركي البالغة قيمته 10 مليارات دولار". ماكليس، في الأعلى.

واعـــتقد 90 في المئة تقريباً أن الحملة الدعائية "لن تكون منصفة بحق إسرائيل"، والتي يقوم بها النظام مدّعياً أن اللجنة التابعة للأمم المتحدة ســتحقق في الدمار الذي ألحقته إسرائيل بالأراضي المحتلّة. وهكذا، أصــبح الرأي العام الإسرائيلي، ورؤساء نقابات العمال الأميركية، والــنُخَب السياسية والمالية الأميركية الذين يموّلون شارون شركاء في الجــرائم المــرتكَبة ضد الشعب الفلسطيني. ومن الواضح أن للأقلية المتضائلة من اليهود في إسرائيل الذين يعارضون الآلة العسكرية تأثير محــدود، إذا ما وُجد، في السياسة، ووسائل الإعلام، وضمان الدعم المالي ما وراء البحار.

مـــن المثير للاهتمام أن الولايات المتحدة صوتت بالفعل لصالح قرار يتمّ بموجبه إنشاء لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة في شأن الدمار شبه التام التي ألحقته إسرائيل بجنين في ربيع العام 2003. ولكن اللجنة الدولـــية أُنـــشئت دون أن تقـــوم بمهامّها. وقد أثارت هذه الخطوة عدوانـــية الطبقة السياسية الإسرائيلية بأكملها. واتّهم شيمون بيريز (عـــضو حزب العمل في حكومة شارون آنذاك والذي كان يدّعي الاعتدال) أعضاء منظمة الأمم المتحدة الذين يفوق عددهم الـــ 170 دولـــة بالاتّجار بالدم. وقضت الحكومة الأمنية الإسرائيلية بأن كوفي أنان، أمين عام الأمم المتحدة، لم يلبِّ مطالبها بتعديل التفويض الذي يغطّي مهام اللجنة، "لذلك لا توجد أي إمكانية للبدء بالتحقيق..." وكما قال ألن فيليبس من *الدايلي تلغراف* في هذا الشأن:

> مـــن الواضـــح أنـــه بخـــسارته في اختبار القوة مع أرييل شـــارون، رئـــيس الوزراء الإسرائيلي، أوصى السيد أنان مجلـــس الأمـــن الدولـــي بوجوب إعادة أعضاء الفريق إلى

بلدانهم؛ وهم الذين كانوا ينتظرون في جنيف طيلة ثلاثة أيام للحصول على إذن للمغادرة إلى إسرائيل(1).

والتفّ أيضاً اليهود الأثرياء والأقوياء في الشتات حول شارون. وإن سبعة من النُخَب المافيويّة الروسية الثمانية من أصحاب المليارات الــذين مَــنحوا مساعدات سخيّة للدولة الإسرائيلية كانوا يُقيمون علاقـــات ممتازة مع شارون وشيمون بيريز. في الواقع، فإن اثنَين من هؤلاء، وهما الشريكان الإسرائيليّان-الروسيّان لشركة النفط الروسية يوكـــوس، إشـــتريا مساكن لهما في إسرائيل لتجنّب حظر من قِبَل الإنتـــربول، في حـــين أن الثالث، بوريس بيريزوفتشكي، هو مواطن إســـرائيلي بالـــرغم من إقامته في لندن(2). علماً بأن ستة من هؤلاء السبعة هم يهود(3).

بسبب الدعم المالي والعسكري الخارجي القوي وغير المشروط الـــذي يوفّره في الدرجة الأولى اليهود المؤثّرون المقيمون في الولايات المـــتحدة، والأصـــوليون المسيحيون، والوسط الصناعي العسكري، والمتطـــرّفون في البنـــتاغون، وأعـــضاء نقابات العمال الأميركيون الفاســـدون، يمكن لإسرائيل تحدّي الرأي العام العالمي، والافتراء على المنظمات الإنسانية وقادة حقوق الإنسان، والاستمرار بوقاحة بتطبيق سياســـاتها المـــرتبطة بارتكـــاب الإبادات الجماعية. ويعرف القادة الإســـرائيليون شعبهم: هم يعلمون أن هناك من يؤيّدهم دون قَيد أو

(1) ألن فيليبس، "تسريح فريق الأمم المتحدة بإخراج التحقيق الرسمي في شأن جنين عن مساره"، دايلي تلغراف، 1 أيار، مايو 2002.

(2) وير، في الأعلى، هامش 14.

(3) يوري أفنري، مذكور في وير، المرجع نفسه.

شـــرط بعـــد خضعوهم للاختبار. إنهم يعلمون أن مدراء المصارف، والمهنـــيين، والأصـــوليين سيدعمونهم حتى اغتيال آخر فلسطيني: إن مسيرة المئة ألف مؤيّد للصهاينة في واشنطن إبّان حدوث مجزرة جنين تُثبت ذلك. كما أن اجتماع السياسيين بأعداد كبيرة في مؤتمر لجان العمـــل الـــسياسي الأميركـــية-الإسرائيلية (آيباك-AIPAC) أثناء ارتكـــاب المجـــازر في مخـــيّم رفح للاّجئين في قطاع غزة يؤكّد أنهم يدعمون بدورهم جزّاري رفح.

شكل النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة

كتب سي رايت ميلز ذات مرة أن "النخبة المتمتّعة بالنفوذ" في الولايات المتحدة تحكم وتُنكر في الوقت نفسه أنها تملك النفوذ. وتتّبع النُخـــبة الصهيونية هذه الصيغة، ولكنها تدافع عن نفسها من خلال اتهـــام أعدائها بمعاداة الساميّة وباتخاذ إجراءات عقابيّة تُسرّ السيناتور الـــسابق جوزف ماكارثي. ولا يمكن فهم بنية النفوذ الصهيوني (ZPC) بأنه متمـــثّل باللوبي الصهيوني فقط أو حتى بآيباك، مهما كانت مهيبة، والتي يعمل لـــديها 150 موظفاً بدوام كامل، بل يمكـــن فهمـــه بطريقة أفضل كشبكة مؤلّفة من مجموعات رسمية وغير رسمية متـــرابطة تعمل على مستويات دولية، ووطنـــية، ومحلّـــيّة، وتتـــبع بصورة مباشَرة ومنهجية دولة إسرائيل والمتمتّعين بالنفوذ فيها وصناع القرار الرئيسيين.

يمكن فهم بنية النفوذ الصهيوني بطريقة أفضل كشبكة مؤلّفة من مجموعات رسمية وغير رسمية مترابطة تعمل على مستويات دولية، ووطنية، ومحليّة، وتتبع بصورة مباشَرة ومنهجية دولة إسرائيل.

يُستخدَم النفوذ ببراعة من خلال *التأثير المباشَر* للممثّلين الصهاينة في الحكومة (ولا سيما في البنتاغون في ظل حكم بوش) في الفرع التنفيذي وفي الكونغرس على حدٍّ سواء، ومن خلال التأثير غير المباشَر عبر استخدام الأموال أثناء الحملات وذلك: 1) للتأثير في اختيار المرشحين المنتمين إلى الحزبَين السياسيَّين الرئيسيَّين. و2) للتغلّب على منتقدي إسرائيل ومكافأة المسؤولين المنتخَبين الذين سيلتزمون بالخط الإسرائيلي.

يحدّد النفوذ الذي تمارسه المنظمات الصهيونية واليهودية المتغلغلة في وسائل الإعلام شكل متغيّرات النزاع السياسي حول المسائل المتعلّقة بإسرائيل التي اتسعت مع الوقت، فتُخضع المنتقدين للرقابة وتهاجمهم بقسوة، وتلفت الأنظار إلى الأخبار والتعليقات المؤيّدة لإسرائيل. وكانت وسائل الإعلام في الولايات المتحدة، ولا سيما *النيويورك تايمز* المحترَمة، في الطليعة في عملية الترويج لممارسات إسرائيل الإخضاعية والتدميرية، واصفة إيّاها بالحرب الدفاعية والمناهضة للإرهاب. ولم يصدر عن *النيويورك تايمز* أي تعليق أو افتتاحية تشير إلى القتل الجماعي الذي يتعرّض له المدنيون الفلسطينيون، وقيام إسرائيل بتدمير المواقع التاريخية المسيحية التي لا تقدَّر بثمن والتي تعود لأكثر من 2000 عام[1]. وفيما تدمّر الآلة الحربية الإسرائيلية الأديرة القديمة وإرث الثقافة العالمية، تركز وسائل الإعلام الأميركية في انتقاداتها على الفضائح المرتبطة برجال الدين

(1) وليام دالريمبا، من الجبل المقدّس، هاربر كولينز، 1997. يعرض الفصل الخامس للأحداث وفقاً لتسلسلها الزمني التي واكبت تدمير المجتمع المسيحي الأرثوذوكسي القديم في إسرائيل والأراضي المحتلة، بمن فيهم الأميركيون.

الكاثوليك. وهكذا، يتمّ إسكات احتجاجات الكنيسة على القصف الإسرائيلي لكنيسة المهد ومقتل أولئك الذين التجأوا إليها.

تشمل منطقة النفوذ الرابعة المنظمات المحلية والقطاعية والاتحادات المحلية والحكومية اليهودية، ومن خلالها الهيئات المهنية ونقابات العمال وصناديق معاشات التقاعد. وقد يكون الناشطون منتسبين إلى الجهاز الوطني و/أو هم جزء لا يتجزّأ من المجتمع المدني المحلي. وهذا هو التهديد الأكثر خطورة على الأرجح بما أنه يمنع المواطنين الأميركيين العاديين من انتقاد السياسة الإسرائيلية والتعبير عن شكوكهم حيالها، ويخفّف من فعالية القطاع المناصر في المجتمع الأميركي الذي بات يلعب دوراً متقدّماً بالغ الأهمية في ميادين أخرى مرتبطة بالسياسة الأميركية. وفي كافة أنحاء الولايات المتحدة، وُصف المحرّرون المحليّون، والمفكرون الانتقاديون والناشطون، وحتى الأطباء، بأنهم نازيون جدد وقد عانوا من التهديدات عبر الاتصالات الهاتفية ومن زيارات قام بها متعصّبون محليون موالون لإسرائيل؛ بمن فيهم أعضاء محترَمون من الجالية اليهودية. ومن نتائج التهديد عادةً إيقاف المناقشات و/أو التهويل على المواطنين المحليين الداعين إلى سياسة خارجية مستقلة وديمقراطية.

بالإضافة إلى ذلك، تتألف بنية النفوذ الصهيوني الرسمية وغير الرسمية من عنصر ديناميكي بالغ الأهمية: كل مركز نفوذ *يتفاعل* مع مراكز النفوذ الأخرى ممّا يؤدّي إلى حركة وحيوية ثابتَتين تقرّب القادة والأتباع من بعضهم وتمدّهم بالطاقة للعمل. كما أن وسائل الإعلام السياسية غير اليهودية، أو حتى غير الصهيونية، والقادة المدنيين المتأثرين ببنية النفوذ الصهيوني يؤثّرون بدورهم في مجموع

ناخبيهم مما يضاعف التأثير الأولي لأولئك الذين يسيطرون عليهم. وقد أدّى الغياب النسبي لسياسة خارجية ناشطة ومنظّمة ذات أساس ديمقراطي، ولا سيما في ما يتعلق بالشرق الأوسط، إلى غياب منافسين لبنية النفوذ الصهيوني عملياً. و لم تواجه هذه البنية التحدي إلا مؤخّراً من خلال حملة متنامية للتخلّص من التأثير الإسرائيلي، وقد حصلت على درجات متفاوتة من الدعم من جماعات مسيحية (البريسبيتاريون، الميثوديون، الإبيسكوباليون) وفي حرم الجامعات؛ علماً أن هذه الحركة كانت مؤقّتة وواجهت معارضة منظّمة. وخير مثال على ذلك ما حدث في مدينة سومرفيل حيث اعتزم أستاذ الفنون والآداب التخلّص من التأثير الإسرائيلي، ولكنهم ما لبثوا أن تراجعوا عن ذلك بعد احتجاجات يهودية أمام مجلس المدينة.

مع الوقت، ظهر نموذج النفوذ الصهيوني نفسه في الوكالات التنفيذية في الولايات المتحدة، فاستُبدل المستعربون في وزارة الخارجية بالموالين للصهاينة كما هي حال الميّالين إلى خوض الحروب من مدنيين ذوي مراتب عليا في البنتاغون، وفي المؤسسات الاستشارية لشؤون الشرق الأوسط، ومجلس العلاقات الخارجية، وغيرها. وتجدر الإشارة إلى أن ما كان يُدعى في الماضي تركيز بنية النفوذ الصهيوني "على مسألة واحدة" (السياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط) استُبدل بالاستراتيجيات الصهيونية الجديدة في البنتاغون والمؤسسات الاستشارية اليمينية التي تربط تمدّد النفوذ الإسرائيلي إلى ما وراء فلسطين بالعلاقات الأميركية-الأوروبية (ولا سيما التهجّم على الفرنسيين)، وبالسياسة الأميركية النوويّة، والقوات العسكرية الأميركية، والاستراتيجية المتّبعة حيال الطاقة. وهذا الإطار التحليلي

مفـــيد لفهم الحرب الأميركية-العراقية، والسياسة الإمبريالية المُفرطة، إضافةً إلى الممارسات الاستعمارية المُفرطة.

بنية النفوذ الصهيوني تتحرك: الحرب على العراق

بـــول وولفويتـــز هو الخبير الاستراتيجي النظري الرئيسي في الإمـــبراطورية الأميركـــية العالمـــية، وهو أول من وضع الخطوط الرئيسية المفصَّلة لتحرّك العام 1992[1]. وتمّ التقدم لإدارة كلينتون الأولى، وبالتفـــصيل، بالخُلاصات التي تناولت الحروب المستمرة، والتحـــرك الأحـــادي، والحرب الاستباقية، والغزو الاستعماري، ودُعمـــت في مـــا بعـــد بشكل مُطلَق أثناء الهجمات العسكرية المـــستمرة الـــتي شـــنّتها إدارة كلينتون ضد العراق ودعمها غير المشروط للحرب التي شنّتها إسرائيل على الفلسطينيين، والحروب في الـــبلقان، والـــسيطرة الفعلية على الدول الشيوعية السابقة في أوروبـــا الـــشرقية وعلى دول البلطيق والجمهوريات الموجودة في الوسط الجنوبي للاتحاد السوفياتي السابق.

إن تدخل إدارة كلينتون بقوة لصالح قيام يلتسين بالاستيلاء على السلطة ودعم النُخَب الروسية (اليهودية) الحاكمة لعب دوراً رئيسياً في عملية تقسيم خصمه السابق وإضعاف هيمنته على العالم. وكان دعـــم كلينـــتون غير المشروط لإسرائيل، وبشكل أكثر أهمية لوضع اســـتراتيجية شـــرق أوسطية تتقارب مع سياسة إسرائيل الخارجية، مرتبطاً بثلاث مجموعات من السياسات:

---

(1) توجـــيه للتخطيط الدفاعي للسنوات المالية 1994-1999، 18 شباط/فبراير 1992.

1. تدمير القوة العسكرية والاقتصادية لأحد المنتقدين الرئيسيين لإسرائيل في الشرق الأوسط (العراق) من خلال المقاطعة الاقتصادية، والتفتيش عن الأسلحة، ونزع سلاح العراق بصورة أحادية، بينما تقوم إسرائيل بخزن أسلحة نووية وأسلحة دمار شامل أخرى؛
2. تمويل وتسليح عملية التوسع الإسرائيلي وإقامة المستوطنات في فلسطين العربية؛
3. الإبقاء على المقاطعة الاقتصادية المفروضة على ليبيا وإيران (الداعمتان للفلسطينيين) بينما تقدّم الولايات المتحدة العون المالي للدول العربية التابعة لها والميّالة إلى إسرائيل، والتي أدى إعترافها بدولة إسرائيل وإقامة العلاقات معها إلى قمع متزايد للرأي الحر والمقاومة الداخلية للسياسات المتّبعة (وقيام الولايات المتحدة بتغطية نفقات إنجاز هذه الأهداف).

لقد حدّدت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت شكل التأثير الصهيوني المباشَر في السياسة الأميركية الشرق أوسطية، وقد استفادت من اكتشاف جذورها اليهودية بعد تحوّلها من الكنيسة الكاثوليكية إلى الكنيسة الإبيسكوبالية التي تضمّ النُخبة الأميركية. وبرّرت أولبرايت بشكل مقيت موت 500.000 طفل عراقي بسبب الولايات المتحدة إبّان تولّيها منصب رئاسة الدبلوماسية، وقد أعلنت أن "الأمر يستحق ذلك". وكان وزير الدفاع كوهين فعّالاً في الترويج للهيمنة العسكرية الإسرائيلية في الشرق الأوسط، وكان ريتشارد هولبروك، وهو صهيوني مقرَّب من إسرائيل، أحد

مستـــشاري كلينـــتون الأكثر تأثيراً في مفاوضات السلام في الشرق الأوســـط. وأرسى الرئيس كلينتون والديموقراطيون أسس الاستحواذ في الـــنهاية علـــى السياسة الخارجية الأميركية التي وضعها الصهاينة الموجودون في إدارة بوش التالية، وذلك من خلال الموافقة على شغل الـــصهاينة مناصب استراتيجية في إدارة السياسة الخارجية، متمكّنين بـــذلك مـــن التأثير في سياسة الشرق الأوسط وتحديد شكل سياسة أميركية تتلاءم مع الأهداف الإسرائيلية التوسعية.

وبالتأكـــيد، لم يهدّد كلينتون والصهاينة *المعتدلون* المؤيّدون له منـــتقدي إسرائيل من البلدان العربية بشن هجمات عسكرية عليهم؛ كمـــا فعل نظام بوش الذي هيمن عليه ذوو الميول الحربية والمؤيّدون للـــصهيونية بشكل متطرّف. ولم يتّبع نظامه كذلك الخط الإسرائيلي في اتهـــام كل أوروبا، ولا سيما فرنسا، بمعاداة الساميّة بسبب انتقاد المـــذابح الـــتي ارتكبـــتها إسرائيل بحق الفلسطينيين. لقد كان نظام كلينـــتون والصهاينة النافذون المعتدلون المؤيّدون له يعتقدون أنه من الممكـــن بسط الهيمنة الأميركية بالتشاور مع أوروبا والأنظمة العربية المحافظـــة، ومشاطرة الفوائد الاقتصادية للغنائم الإمبريالية في الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه دعم التوسع الإسرائيلي.

لقـــد مهّد نظام بوش لتقدم كمّي للنفوذ الصهيوني في السياسات الأميركية الخارجية والمحلية على حدٍّ سواء. وكان ألن غرينسبن، رئيس البـــنك المركـــزي الأميركي والصديق الحميم والقديم لأصحاب النفوذ الماليين في وول ستريت والمروّج لمؤسسات الاستثمار الموالية لإسرائيل – المسؤولة عن الازدهار التخميني والإخفاق التام للاقتصاد في التسعينيات من القرن العشرين – الصانع الرئيسي للسياسة الاقتصادية.

هـؤلاء المتآمرون المنتمون إلى المحافظين الجدد فاق تأثيرهم في السياسة الأميركية الشرق أوسطية ما تمنحهم إيّاه المواقع الرسمية التي يشغلونها من نفوذ، وذلك لأنهم كانوا مدعومين من مجموعة من الإيديولوجيين الصهاينة الأكاديميين المؤثّرين (كاغان، كوهين، بايبس)، ومن متبحّرين سياسيين (كريستولز، كروتامر، بيريتز...إلخ) ومدراء مؤسسات استشارية في مجال الحروب (بايبس، روبين) الذين ما زالوا يعبّرون عن وجهات نظرهم باستمرار في صفحات الرأي في الصحف الأميركية الرئيسية، أو تُجرى معهم مقابلات في برامج إذاعية وتلفزيونية موالية لإسرائيل كونهم خبراء في شؤون الشرق الأوسط، مروّجين لبرنامجهم الحربي المصمَّم لتعزيز السياسة الدفاعية الأميركية بما يتناسب وبرنامج إسرائيل في الشرق الأوسط، وذلك بالرغم من المستنقع الواضح الذي غرقت فيه الولايات المتحدة في العراق وتنامي الرفض الشعبي لتلك الحرب. لقد استند صانعو السياسة والرأي أولئك في عملهم، وبدعم من وسائل الإعلام، على استشارة المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة بشكل وثيق وترادفي، واستشارة المسؤولين ذوي المناصب العليا في نظام شارون بشكل وثيق أيضاً؛ وسيستمرون بذلك مع أولمرت. وكان بإمكان عملاء الموساد، والدبلوماسيين الإسرائيليين، والمسؤولين الأساسيين في نظام شارون دخول مكاتب المسؤولين الصهاينة في واشنطن وتبادل المعلومات حول كيفية إيصال المصالح الإسرائيلية إلى الدرجة الفضلى.

قبل الاجتياح الأميركي للعراق، دعم كل الصهاينة الذين يشغلون مناصب سياسية رئيسية، إضافةً إلى زملائهم في الكونغرس، الحرب الأميركية على العراق. وبعد 11/9 مباشرةً، اقترح وولفويتز

والـــسيناتور ليبرمان شن حرب على العراق وطالبا وكالات المخابرات بالعـــثور علـــى الصلة بين عمليات 11/9 والنظام العراقي، متّهمَين القوات المسلحة بالجبن بسبب عدم دخولها في حرب لحماية إسرائيل. وبالرغم من الجهود الجبّارة التي بذلها فيث وآل لتحريف تقاريرالسي آي ايه والأم آي لتتلاءم والخط الإسرائيلي المؤيّد للحرب، فقد افتقر خطابهمـــا المشاكس إلى الواقع. عندها، قاما بابتكار ما باتا يسلّمان بصعوبة بأنه كذبة كبيرة (أطلقها وولفويتز) وتتعلّق بما تشكله أسلحة الـــدمار الـــشامل العراقية من تهديد لأمن الولايات المتحدة. وكانت حالـــة نموذجـــية تمّ فيها إعداد الوقائع لتتلاءم مع السياسة كما بات جليّاً عندما رُفعت السريّة عن مذكرة داوننغ ستريت[1].

للاســـتمرار في هذا الخط، تجاهل الصهاينة في البنتاغون الوكالات العسكرية/المخابراتية التقليدية وأنشأوا وكالة مخابرات خاصة بهم للدعاية أو مكـــتب الخطـــط الخاصة. وقام بروس جاكسن، وهو مدير سابق لمـــشروع المحافظين الجدد الذي أُطلق عليه اسم القرن الأميركي الجديد، بتأســـيس لجـــنة تحرير العراق (CLI) بهدف الحث على تغيير النظام في العراق. ومن الأعضاء الآخرين في اللجنة مستشار بوش ريتشارد بيرل، ورئيس مجلس النواب الجمهوري السابق نيوت غينغريتش، ومدير السي آي ايـــه الـــسابق جـــايمس وولـــسي، ومحرر *الويكلي ستاندارد* وليام كريستول، إضافةً إلى السيناتورين جون ماكين وبوب كيري.

---

(1) "أراد بـــوش الإطاحـــة بصدام من خلال عمل عسكري برّره بامتزاج الإرهاب بأســـلحة الـــدمار الـــشامل. ولكن المعلومات المخابراتية والوقائع رُكِّزت حول السياسة". انظر إلى مذكّرة داوننغ ستريت السرية المرفَقة بموقع كليرنغ هاوس على الوِب http://www.informationclearinghouse.info/article8709.htm.

في بادئ الأمر، تجلّى النفوذ الصهيوني بالإعداد للحرب، ومن ثمّ بعدم رفع الحصانة عن مرتكبي جزائم الحرب المشاركين في الحكومة. كان الصهاينة قد رسموا عَمداً صورة غير واقعية ومغلوطة عن الحرب وعواقبها، وعن ردّ الفعل المحتمَل للمقاومة العراقية إزاء غزو واحتلال وفقاً للنسق الإسرائيلي؛ علماً أنهم هم من وضعوا الأرقام ودعموا حججهم بما يتمتّعون به من معرفة خاصة مزعومة. وكان الصهاينة قادرين في الأساس على تهميش مسؤولين عسكريين ذوي رُتَب عُليا كالجنرال أنطوني زيني الذي طرح تساؤلات عن الحرب وعارض طريقة شن الحرب وقواعد الاشتباك. وقطعوا الطريق على أي مناقشة تتناول تحديد المستفيدين والخاسرين من الحرب: مقتل جنود أميركيين، ارتفاع تكاليف النفط والطاقة، حالات عجز ضخمة في الميزانية، وبالطبع خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات بين العراقيين.

لقد ادّعى وولفويتز أنه سيتمّ الترحيب بالجيش المجتاح كونه محرِّراً (مستذكراً تحرير باريس). وادّعى بيرل أن مقاومة العرب، إذا وُجدت، ستكون محدودة (لأنهم مجتمع قبَلي). وادّعى كاغان أن من شأن "قنبلة كبيرة واحدة" إسكات الشارع والرأي العام العربيَّين.

وفيما شنّت القوات المسلحة الأميركية حملة إبّان حرب العراق الأولى لتدمير مظاهر العصرنة في هذا البلد حتى من خلال مهاجمة البنية التحتية التكنولوجية المدنية المرتبطة بالمياه والصَرف الصحي، ركزت إدارة بوش الإبن، وفيث، وولفوتيز في الهجوم الثاني على العراق على تدمير المجتمع العراقي أيضاً. وروّجوا للتطهير الكبير الذي

استـــهدف البعثـــيين في كافة الإدارات المدنية، والمِهَن، والجامعات، والمدارس، والمستشفيات في العراق، إضافةً إلى تفكيك الجيش العراقي وتسريح 400.000 عسكري وشرطي؛ بالرغم من اعتراضات الضباط العسكريين الأميركيين الكبار الذين كانوا قد توقّعوا العمل مع الجنود المستسلمين والبنية الإدارية في العراق لضبط شؤون البلد. ومهّد هذا الأمر الطريق لنهب البنية التحتية المتطورة، والكنوز التاريخية، والمكتبات إضـــافةً إلى نـــشوء العـــصابات الإجرامية المتورّطة في أعمال السرقة، والاختطاف لقاء فدية، والقتل، والاغتصاب؛ نشاطات لم تكن معروفة في الواقـــع إبّان الحكم الصارم للنظام البعثي. ووصف رامسفيلد الدمار الشامل الذي لحق بالمجتمع العراقي بأنه "قذارة الحرية".

لقد اعترض العديد من المسؤولين العسكريين الأميركيين الكبار، كما كان حال الحاكم الأميركي الأول الجنرال السابق جاي غارنر الذي أعلن أنه "تشاجر مع أوساط بوش لأنه كان يريد انتخابات حرة، ورفض برنامجاً مفروضاً للخصخصة"[1]. ولكن الصهاينة في

---

(1) ديفـــيد لاي، "الجنرال الذي صرفه بوش من الخدمة يقول إنه كان يريد انتخابات مُبكـــرة"، غارديان، 18 آذار/مارس 2004. ومن جهة ثانية، وكما ذكر روبرت دريفـــاس، "لأكثـــر مـــن قرن من الزمن، وخلال خدمته العسكرية ومن ثمّ أثناء تقاعده، أرسى غارنر نموذجاً من العلاقات الحميمة مع القوات الإسرائيلية المسلّحة ومؤيّديها الأميركيين. وحملت فوروورد مؤخَّراً، وهي النسخة الإنكليزية للصحيفة الأســـبوعية المحترَمة يديش، عنواناً رئيسياً حول غارنر جاء فيه، 'سيُشرف الجنرال الموالي لإسرائيل على إعادة بناء عراق ما بعد الحرب'". روبرت دريفاس، "شخص قصير سمين في بغداد"، أمريكن بروسبكت، 1 أيار/مايو 2003. وبما أن غارنر كان ما يزال عضواً في المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (JINSA) ومُدركاً تماماً– كما هو مُفترَض– للبرنامج الموثوق الذي اختير لتنفيذه، فقد تكون الأسباب الفعلية لإزالته من منصبه مرتبطة بأمور أخرى.

البنتاغون وشريكيْهم في الجُرم، رامسفيلد وتشيني، كانوا عازمين على تفكيك الدولة العراقية العلمانية بهدف وضع سياسة لتحويل العراق إلى مملكة مهجورة؛ مجموعة متقلقلة من ثلاث دُوَيلات قبلية تابعة، على الأقل، تقوم على الإثنيات والولاءات القبلية الدينية، وغير قادرة على مواجهة التوسع الإسرائيلي ولا سيما في شمال العراق[1].

لكن، وبدلاً من أن تكون ردود الفعل على الغزو محدودة، أثار مسؤولو البنتاغون الذين يضعون مصلحة إسرائيل في الطليعة معارضة شعبية كبيرة وحّدت الجماعات الدينية والعلمانية في مواجهة الاحتلال الأميركي، وملأت صفوف المقاومة المسلّحة بآلاف المحترفين العسكريين المصروفين من الخدمة. وفي سياق اتّباع سياسة لتعزيز موقع إسرائيل إقليمياً، أضعف الصهاينة الاحتلال الأميركي وأي خطط على المدى المتوسط لتحويل العراق إلى مستعمرة أميركية للنفط. وكانت النتيجة موت آلاف الجنود الأميركيين والمتعاونين معهم، أو إصابتهم بجراح أو بعطل دائم، ونشوء معارضة عالمية ولا سيما في الشرق العربي وبين عدة مئات الملايين من المسلمين.

---

(1) "عملية سَحق نظيفة: إستراتيجية جديدة لضمان أمن العالم"، ريتشارد بيرل، دوغلاس فيث، ديفيد وارمسر، وآل، مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدّمة، 1996. انظر أيضاً إلى لسلس غلب، "الحل القائم على الدول الثلاث"، نيويورك تايمز، 25 تشرين الثاني/نوفمبر 2003، وسيمور هرش، "الخطة بي"، ذا نيويوركر، 28 حزيران/يونيو 2004 حول النشاط الإسرائيلي في العراق الشمالي الكردي.

لقـــد نجح مسؤولو البنتاغون الذين يضعون مصلحة إسرائيل في الطليعة في الترويج لفكرة امتلاك القوات العسكرية الإسرائيلية وخبراء أجهـــزة المخابـــرات الكثير ممّا يمكنهم تعليمه لزملائهم الأميركيين الجاهلين في ما يتعلق بالحرب المدينية وجمع المعلومات، مركّزين على خبرة إسرائيل الواسعة على مدى 50 عاماً في طرد وتدمير الجماعات الفلـــسطينية، وتطويـــر تقنـــيات الاستجواب والتعذيب التي طبّقتها على الأســـرى الفلـــسطينيين واللبنانيين[1]. كانـــت غايـــة الصهاينة في البنتاغون تعميق عُرى التعاون مع الأجهزة الأمنية الإسرائيلية كجزء من الهدف المتوسط المـــدى المتمثل "بعدم الفصل بين قضية إســـرائيل وقضية أميركا" (كما تعهّد المرشـــح الرئاسي كيري)[2]. وتمثّل الهدف البعيد المدى بزيادة فعّالية الأمـــن العسكري وتعزيز الصناعة المشترَكة للأسلحة العسكرية بين الـــولايات المتحدة وإسرائيل بهدف تحقيق المخطط الكبير القائم على إنـــشاء منطقة ازدهار أميركية-إسرائيلية مشترَكة كبرى[3]. عندها،

إن المخطط الكبير القائم على إنشاء منطقة ازدهار أميركية-إسرائيلية مشتركة كبرى سيمكّن إسرائيل الإمبريالية من الحصول على الماء، والنفط، ورأس المال، والأسواق التي تفتقر إليها في الوقت الحاضر هذه الدولة ذات الميول الحربية.

---

(1) لـــن فرنكل، "تكتيكات السجن معضلة تواجهها إسرائيل منذ وقت طويل"، واشنطن بوست، 16 حزيران/يونيو 2004.

(2) جـــون كـــيري، وجهات نظر: نظرة عامة حول إسرائيل، منشورات جامعة براون، 18 تشرين الثاني/نوفمبر 2003.

(3) كيفـــية تطور هذا الأمر مذكورة في اتفاقية التجارة الحرة الحديثة (FTA) مع الأردن، وقد سبق وصفه بأنه آل إلى "التجارة البشرية والعبودية غير المقصودة" وفقاً للجنة العمل الوطنية للعمال وحقوق الإنسان.

سيكون بإمكان إسرائيل الإمبريالية الحصول على الماء، والنفط، ورأس المال، والأسواق التي تفتقر إليها في الوقت الحاضر هذه الدولة ذات الميول الحربية والتي تجمع مداخيلها من المعونات المالية إلى حدٍّ بعيد.

لقد اكتُسبت بدقة تقنيات الاستجواب باستخدام التعذيب التي قام المدرّبون الإسرائيليون بتلقينها، فطوّرت وصقلت ممارسات التعذيب القديمة التي تستخدمها السي آي ايه، ولا سيما خاصيّات تتعلّق بتعذيب المسلمين وبصفة خاصة العرب[1]. ولكن مرة ثانية، قوّضت الأولويات الصهيونية-الإسرائيلية السياسات الأميركية الإمبريالية: شوّهت الصور التي تُظهر الجنود الأميركيين يمارسون التعذيب بحق السجناء العراقيين، ويغتصبونهم، ويُذلّونهم، سمعة الاحتلال الأميركي في العالم، وزادت من حدّة المقاومة العربية والمسلمة في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، وشوّهت سمعة نظام بوش. حتى أن جلسات الاستماع التي يُقيمها الكونغرس والتقارير الواردة في وسائل الإعلام أثارت موجة عارمة من الاستنكار الشعبي لاجتياح العراق والطريقة التي اعتمدها بوش لإدارة الاحتلال. وكانت هناك دعوات من مختلف أنحاء البلاد، ولا سيما من أعضاء في الكونغرس، بضرورة تقديم رامسفيلد استقالته.

الغريب في الأمر أنه لم تكن هناك في الواقع دعوات لاستقالة مسؤولي البنتاغون الذين يضعون مصلحة إسرائيل في الطليعة؛ فلقد كانوا معنيّين بالأمر على قدم المساواة ومسؤولين عن التعذيب الجماعي

(1) ماثيو كلارك، "الإسمنت، الأسلاك الشائكة، بطاقات الهويّة"، كريستشن ساينس مونيتور، 8 كانون الأول/ديسمبر 2003.

للمعتقلين المسلمين. ووفقاً *للنيوزويك*، كان دوغلاس فيث المسؤول في الواقع عن تطبيق السياسة الاستنطاقية على المعتقلين العراقيين[1]. وحتى في مواجهة هذه الجريمة في حق الإنسانية، والدعوة الوطنية العامة للتحقيق في الأمر ومقاضاة أولئك المتورطين واعتبارهم مسؤولين عمّا يجري، أفلت بول من إدانة رسمية علنيّة بسبب الدعم الذي حظي، ويحظى، به من المتبحّرين وجامعي الأموال السياسيين، وجامعي الأموال للحملات الانتخابية، وذوي النفوذ الموالين لإسرائيل؛ فوولفوتيز هو المهندس الصهيوني للحرب والمسؤول عن المخابرات في البنتاغون (الرجل الثاني) في الحرب العراقية والمتورط في إصدار الأوامر بممارسة التعذيب (انظر إلى الفصل الرابع إلى العرض الذي أعدّه سيمور هرش). وكونه الرجل الثالث، وبالرغم من واقع أن دوغلاس فيث ما زال يخضع للمرحلة الثانية من التحقيق الذي تُجريه معه لجنة المخابرات المنبثقة عن مجلس الشيوخ حول التخطيط في مرحلة ما قبل الحرب والفشل الحاصل بعد الاجتياح (ركزت المرحلة الأولى في الأساس على ما مُني به جهاز المخابرات من فشل)، دُعي فيث إلى إعطاء مقرَّر دراسي لطلاب كلية إدموند أي. والش للشؤون الخارجية في جامعة جورج تاون في خريف العام 2006، يتناول استراتيجية إدارة بوش في الحرب على الإرهاب.

فيما يتمّ توجيه الانتقادات العلنية للصهاينة في البنتاغون والتحقيق معهم، ما يزال من الواجب تأنيبهم رسمياً وبشكل علنيّ بسبب تعاونهم مع *الموساد*.

وفيما عاقب الكنيست الإسرائيلي الموساد في وقت لاحق بسبب الفشل المخابراتي بعد صدور قرار شتينيتز في 29 آذار/مارس

(1) نيوزويك ماغازين، 7 حزيران/يونيو 2004، ص 35.

2004، فإنـه مـا يـزال من الواجب تأنيب زملائهم الصهاينة في البنتاغون رسمياً وبشكل علنيّ- شولسكي، وولفويتز، فيث، وأبرامز- وأيّاً تكن الانتقادات العلنية التي تعرّضوا لها والتحقيقات التي خضعوا لهـا، وذلك بسبب تعاونهم *مع الموساد*. وسيعتمد الأمر في كثير من نواحـيه علـى التحقيق المستمر الذي تُجريه الأف بي آي، إنه بشير للكـشف عـن الحقائـق أكثر من التحقيقات الشكلية التي يُجريها الكونغرس. وكما قال روبرت درايفاس في *النايشن*: "هل قام أرييل شـارون، رئـيس وزراء إسرائيل، بتنفيذ برنامج سرّي مع أشخاص يـشغلون مناصب عالية في الحكومة الأميركية بهدف التأثير في قرار إدارة بوش في الذهاب إلى الحرب على العراق؟ الأف بي آي تريد أن تعلـم"[1]. في الواقـع، بدا أن الأف بي آي هي إحدى المؤسسات الأميركية المستعدة للتعاطي مع مسألة النفوذ الصهيوني في أميركا كما تشير إليه جهودها المبذولة في إطار فضيحة التجسس المرتبطة بلجان العمل السياسي الأميركية-الإسرائيلية آيباك (انظر إلى الفصل 5).

وسـط الإدانـة الواسعة الانتشار لجرائم الحرب هذه وفضح وسـائل الإعلام الأكاذيب المنهجية لمسؤولي البنتاغون الذين يضعون مـصلحة إسرائيل في الطليعة، فإن الخوف من أن يؤدّي الدور الكبير المؤثّر والواضح لهؤلاء إلى رد فعل عنيف معادي لإسرائيل كان بمثابة إنـذار لبعض الصهاينة الأكثر مَكراً في الكونغرس[2]. ودعا السيناتور

(1) روبرت درايفاس، "عوامل النفوذ"، ذا نايشن، 4 تشرين الأول/أكتوبر 2004.

(2) انظر إلى هاآرتس، 24 نيسان/إبريل 2004 التي جاء فيها أن نائب السفير الإسرائيلي إلى الأمم المتحدة، أريه ميكيل، تذمّر من الانتقادات التي "لا تعزّز سوى الشبهات... رابطـةً إيّانـا بالعراق حيث لا عمل لدينا"، وناتان غاتمن، "يهود أميركيون بارزون وإسرائيل أُلقي اللوم عليهما بسبب بدء حرب العراق"، هاآرتس، 31 أيار/مايو 2004.

فرانك لوتنبرغ (الحزب الديمقراطي عن ولاية نيوجرسي)، وهو صهيوني ملتزم، إلى استبدال وولفويتز وفيث بهدف إبعادهما عن الأنظار وتأييد إدانة صارخة لمناهضة الصهيونية. "لقد خذل من هم في سدّة المسؤولية الجنود في بذّاتهم الرسمية. واستبدال الوزير رامسفيلد لن يُحدث إلاّ تغييراً طفيفاً في البنتاغون إذا بقي فريق مستشاريه المشوَّهة سمعتهم في مناصب عُليا. حان الوقت لنا لاختيار قيادة مدنيّة جديدة في وزارة الدفاع"(1). وأوضح لوتنبرغ رأيه في ما يظنّ أنه كان أساسياً للمسعى الأميركي برمّته لشن الحرب، بدءاً بدق طبول الحرب، ومروراً بالتلاعب بالمعلومات ووضع استراتيجية الحرب، ووصولاً إلى التقليل من شأن اعتماد التعذيب أثناء الاستجواب.

لقد اعترض العديد من المحترفين العسكريين الأميركيين السابقين من ذوي المراتب العليا على التحكم الصهيوني بالسياسة الأميركية وبشبكات معاونيهم المقرَّبين. وزوّدتنا الكولونيل كارن كوياتوسكي بصورة داخلية عن قوة فيث/شولسكي اللذَين بدت صلاتهما بالموساد أكثر وثاقة ممّا هي مع القوات العسكرية الأميركية. وقد أدّى احتكار المجموعة الصهيونية-رامسفيلد للسياسة العسكرية، واستراتيجية الحرب، والاستشارات العسكرية، والترقيات العسكرية، إلى استعداء القيادة العسكرية العليا. وبعض الذين توقّعوا بوضوح العواقب الكارثية للسياسات التي تضع مصالح إسرائيل في الطليعة انطلاقاً من الطموحات الأميركية العالمية التزموا الصمت وهُمِّشوا.

(1) نيوزداي، 13 أيار/مايو 2004.

من المحتمل أن يكون مسؤولون عسكريون ذوو مراتب عليا أو مسؤولون سابقون قد شجّعوا أو روّجوا لتمرير صور التعذيب لوسائل الإعلام كوسيلة لتشويه سمعة رامسفيلد والصهاينة في البنتاغون[1]. لقد حدّت هذه الخطوة إلى حدٍّ كبير من الجهود الحربية المبذولة التي اعتبر مزيد من أفراد القيادة العسكرية الأولى أنها ستُبلى بالفشل، ولكنهم كانوا عازمين على ألاّ يصبحوا كبش فداء للمحافظين الجدد. وليحظوا بانسحاب مشرِّف، كان عليهم أن يُدركوا أنه يُفترَض بهم التخلص من رامسفيلد وزملائه الصهاينة، علماً أن معيار تقييم الحرب مرتبط بالمكاسب الإسرائيلية التوسعية في الشرق الأوسط أكثر منه بأهداف القوات المسلّحة الأميركية ومكانتها.

وبينما كان الصهاينة في البنتاغون وشبكة المنظمات اليهودية القوية الموالية لإسرائيل يشاهدون إخفاق الاستراتيجية التسلسلية للحرب على العراق، نجحوا في ضمان عقوبات اقتصادية رئاسية ضد سوريا وعزّزوا التأييد السياسي الأميركي لما يقوم به شارون من تدمير لما تبقّى من فلسطين وضمّه. علاوةً على ذلك، كانت المنظمات اليهودية الرائدة قادرة على ضمان تصويت شبه إجماعي في الكونغرس (407 أصوات في مقابل 9 أصوات) لصالح إعلان بوش تأييد الحدود الجديدة لإسرائيل في فلسطين[2]. وأظهر اللوبي الصهيوني

(1) مارتن سيف، "الجيش والسي آي ايه يريدون الكشف عن الحقائق من خلال التعذيب"، يونايتد بريس إنترناشونال، 18 أيار/مايو 2004.

(2) "شارون يُثني على الولايات المتحدة بسبب لاجئي الضفة الغربية"، هاآرتس، 25 حزيران/يونيو 2004.

نفوذه مجدَّداً، حتى أنه جعل بوش والكونغرس في نظر شارون أغبياء سياسيين غير راغبين في الظهور. وبعد أن استثمر بوش كل مصداقيته في السياسات الشرق أوسطية من خلال خارطة الطريق التي أعدّها لاتفاق سلام للشرق الأوسط، أعلن شارون بشكل أحادي عن سياسة الضم والفصل وطلب من بوش قبولها دون اعتراض. لقد دعمت كل المنظمات اليهودية الرئيسية خطة شارون، فسلّم بوش بالأمر ووافق عليها ممّا حمله في النهاية على استعداء كل من البلدان الأوروبية وكل البلدان العربية، مُظهراً بوضوح التواطؤ الخانع لصانعي السياسة الأميركية الذين أنكروا مجدَّداً وجود مصالح إمبريالية أميركية في الشرق الأوسط، وذلك خدمةً للتوسع الإسرائيلي في ما تبقى من فلسطين. ودعمت الغالبية العظمى من الكونغرس الانقلاب الحاصل في سياسة بوش بسبب خوفهم الدائم من الانتقام الصهيوني-اليهودي لأقل انحراف عن الدعم الكامل واللامشروط لإسرائيل.

إبّان اجتياح العراق واحتلاله، انتقد بعض أعضاء الكونغرس الحرب، وتظاهر مئات آلاف الأشخاص تعبيراً عن عدم موافقتهم عليها، علماً أن العديد من اليهود الأميركيين شاركوا بالاحتجاجات وتولّوا قيادتها في بعض الحالات. وقامت وسائل الإعلام في بعض الأحيان (ولا سيما بعد افتضاح أعمال التعذيب) بنشر أخبار مناوئة للحرب (أعمال تعذيب، ضحايا مدنيون، تعرّض حفلات زفاف للقصف، وجرف منازل وبساتين). وفيما تواصل الولايات المتحدة الحرب في العراق، تُظهر الحكومة الإسرائيلية قَدْراً مماثلاً من الوحشية: المشاركة في اغتيالات مخطَّط لها مسبَقاً لقادة فلسطينيين، وتدمير آلاف المنازل، والمزارع، والبساتين، والمتاجر، والمدارس، والمساجد، والمصانع

بــصورة منهجية وقتل وإعطاب آلاف الناشطين الفلسطينيين والمدنيين والنــساء والأطفــال. ولجأوا أيضاً إلى اعتماد الوسائل الروتينية المتمثلة بتغطية رؤوس السجناء، وتقييدهم بالأصفاد والأغلال، وتعذيبهم.

دافعت كل المجموعات اليهودية الرئيسية الموالية لإسرائيل والتي تــضمّ مختلف الطبقات الاجتماعية عن تلك الجرائم ضد الإنسانية، ونجحت في الضغط على الحزبَين الرئيسيَّين وعلى الكونغرس والرئيس لالتزام الصمت؛ لا احتجاجات، لا تحقيقات، لا عقوبات. وهكذا، وفــيما كانــت الــولايات المتحدة تشعر بألم معنوي من افتضاح ممارســات التعذيب في أبو غريب والتي لاحقتها لجنة الأمم المتحدة المعنيّة بأمور التعذيب، ومنظمة العفو الدولية، وجماعات أخرى تُعنى بحقــوق الإنسان، مورِست على الولايات المتحدة ضغوطات لمحاكمة أكثــر مــن 100 جندي متّهَمين بالإساءة إلى السجناء في أفغانستان والعــراق، وهو أمر يشير إلى ممارسة متجذّرة في السياسة المتّبَعة[1]. ويتمــثّل الأمر الأكثر شذوذاً المرافق لما تُحدثه إسرائيل من ضرر بالغ بقيام جماعات يهودية موالية لإسرائيل بتأمين 10 مليارات دولار على صــورة معونات وعقود تجارية عسكرية مُربحة (لا احتجاجات هنا على إبرام عقود وفقاً للنموذج الذي اعتمدته هاليبرتن).

إسرائيل وحريّة التعبير

في الوقت الحالي، تعاني أميركا من عجز حتى في صياغة خطاب سياســي متعلّق بموضوع التأثير الإسرائيلي في الولايات المتحدة، أو

(1) "الــولايات المــتحدة تعطــي تفاصيل جديدة عن العراق، والتحقيقات حول انتهاكات الأفغان"، رويترز، 8 أيار/مايو 2006.

ضمان التأييد له. وبدا الحصول على فرصة لبلوغ هذا النوع من الخطاب ممكناً مع النشر الجريء لبحث موثّق بصورة جيدة وضعه البروفسور والت من جامعة هارفرد والبروفسور ميرشايمر من جامعة شيكاغو، وهو ينتقد تأثير اللوبي في سياسة الشرق الأوسط. ولكن كل مؤسسات النشر اليهودية الرئيسية والمنظمات الموالية لإسرائيل شنّت حملة عنيفة ضد ميرشايمر ووالت. ومن *جويش برس* التي تلتزم خط اليمين المتطرف تقليدياً (تدّعي أنها الصحيفة اليهودية المستقلة الأكبر في الولايات المتحدة)، مروراً *بفوروورد* التي كانت تتّبع في السابق النهج الديمقراطي الاجتماعي، ووصولاً إلى *الجويش ويكلي*، فقد أطلقت كلها مع المنظمات اليهودية الرئيسية حملة قَدح دعائية ("البروتوكولات الجديدة لصهيون"، "معاداة الساميّة"، "مصادر من مواقع للنازية الجديدة"...) ومارست ضغوطاً لإخراجهما من الميدان الأكاديمي.

في الوقت الحالي، تعاني أميركا من عجز حتى في صياغة خطاب سياسي متعلّق بموضوع التأثير الإسرائيلي في الولايات المتحدة.

لقد نجح الاستبداديون اليهود جزئياً، ونشرت وسائل الإعلام نشراتهم الإعلامية دون السماح للأكاديميين اللذين يتعرّضان للهجوم بدحض ادّعاءاتهم. طلبت جامعة هارفرد بإزالة اسم كليّة كينيدي التابعة لهارفرد عن البحث. ولم يعد يظهر في منشورات البروفسور والت لقب الخبير المالي عن المقعد المهني الذي يحمله في الكليّة بوصفه عميداً أكاديمياً. إن المنحى الصهيوني المتطرّف للبروفسور درشوفيتز وزملائه المتعصّبين في هارفرد، وتأييدهم للتعذيب، وضع مؤهّلاته الأخلاقية والأكاديمية التعليمية موضع تساؤل؛ يُفترَض توافر هذه

المؤهلات لدى الأساتذة ذوي مكانة عالية والذين يملكون سجلاً معترَفاً به في أفضل الجامعات الأميركية.

في الولايات المتحدة وفرنسا، تُعَدّ تشريعات للمساواة بين معاداة الصهيونية ومعاداة الساميّة ولاعتبار التعبير الحر عن فظاعة الأعمال الوحشية الإسرائيلية وأي انتقاد يطال تحكّم اللوبي بالسياسة الأميركية في الشرق الأوسط "كُرهاً جنائياً" يستوجب حكم القضاء[1]. وفي الولايات المتحدة، سيتخذ التشريع المقترَح[2] شكل استرداد أموال فدرالية من أي مؤسسة أكاديمية تكون فيها سياسات إسرائيل عرضة للانتقاد.

تشمل الهجمات الأخرى على الأكاديميين الأميركيين المسعى الذي يبذله دانييل بايبس، وهو مدير منتدى الشرق الأوسط، لوضع لائحة سوداء تتناول طلاب الجامعات على موقع الوِب بعنوان كامبوس-واتش ذات النزعة المكارثية الجديدة. فبايبس هو جزء من "عُصبة مؤلّفة من محافظين جدد بحّاثة يدينون بولاء كبير لإسرائيل، وقد تولّوا مهمة شن هجوم مركّز على البحّاثة الشرق أوسطيين"[3]. ولم يكن هذا المسعى الأخير إلا جزء في سلسلة مساعٍ على مدى

(1) قامت كندا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى التي تدّعي إجلال حرية التعبير بالتصديق على قوانين تجعل من "إنكار الهولوكوست" جُنحة جنائية. وأعلن أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان (التي ترتبط زوجته اليهودية بعائلة راوول والنبرغ السويدية البارزة) أنه يُفترَض بالعالم تحدّي أولئك الذين يُنكرون حدوث الهولوكوست.

(2) مُرِّر قانون الدراسات الدولية والتعليم العالي (HR 3077) إلى مجلس النواب عام 2003 وهو الآن أمام لجنة مجلس الشيوخ.

(3) جويل بنين "المكارثية الأميركية الجديدة: فكر سياسي حول الشرق الأوسط"، ريس أند كلاس، المجلّد 46 (1)، ص 104.

تاريخ طويل لاستثناء مواضيع قد تكون مرتبطة بإسرائيل من النقاش الأكاديمي[1].

في مديـــنة نيويورك، تمّ إلغاء عرض إنتاج مسرحي هام يتناول حـــياة راشيل كوري، وهي متطوّعة أميركية في المجال الإنساني قُتلت في الأراضـــي المحـــتلة على يد جندي إسرائيلي يقود جرّافة، وذلك بسبب الضغط اليهودي والتهديدات المالية. وأقرّ المسرح بأن الإلغاء مـــرتبط بحساسيات (ودفتر جَيب) المسؤولين الذين يضعون مصلحة إســـرائيل في الطليعة. حتى أن المجلة التقدميّة موذر جونـــز تكبّدت عناء نشر مقالة تنتقد كوري وقد عنونتها كالتالي:

> **خبـــر: شـــهيدة، غبـــية، مضلَّلة. لماذا عرّضت هذه الطالبة الأميركية التي سحقتها جرّافة إسرائيلية حياتها للخطر؟ وهل كان للأمر أهمية؟**[2]

الدعم الذي يقدّمه اللوبي الموالي لإسرائيل لرأي أقليّة في شأن ما يتعرّض له الشرق الأوسط من عدوان يطال حالياً بقدراته الاستبدادية الحق الأساسي للأميركيين في التعبير بحريّة وبانفتاح، مقوّضاً إيّاه. ولا وجود لأي مجموعة من المستثمرين أو المموّلين الراغبين في تمويل حملة لحقـــوق الإنسان دفاعاً عن حريّة التعبير، والحريّة الأكاديمية والفنّيّة، وذلـــك لمـــواجهة النُخبة المالية والمهنية الصهيونية التي تُعتبَر أقليّة في المجتمع الأميركي.

---

(1) يتـــضمّن مقال بنين على تاريخ قيّم لعملية التهويل على الأكاديميين الأميركيين الذين هم على صلة بالمسائل المتعلقة بإسرائيل. المرجع نفسه.

(2) جوشوا هامر، "موت راشيل كوري"، موذر جونـــز، أيلول/سبتمبر- تشرين الأول/أكتوبر 2003.

يـــرفض قادة حركات السلام، يهوداً كانوا أم غير يهود، أي مـــسعى لإضافة حرب الإبادة التي تشنّها إسرائيل على فلسطين إلى قائمـــة انتهاكات حقوق الإنسان مخافة استعداء الشعب (إشارة إلى المـــنظمات الـــيهودية الرئيـــسية) والـــيهود الذين يصفون أنفسهم بالتقدميين الذين يحمون على الدوام كل ما هو يهودي؛ حتى جرائم الحـــرب. والأسوأ من ذلك، وباستثناءات قليلة، فإن المنتقدين اليهود التقدمـــيين للحرب وإسرائيل عازمون على الدوام على تجنّب انتقاد دور صـــانعي الـــسياسة الصهاينة المقتدرين الموجودين في الحكومة، إضافةً إلى صلاتهم بإسرائيل والدعم الكبير الذي يتلقّونه من المنظمات الـــيهودية الرئيسية في كل المسائل المتعلّقة من قريب أو بعيد بالمصالح الإسرائيلية.

كـــذلك، هم يعتبرون إسرائيل، وببساطة، عمياء، وأداة في يد الولايات المتحدة لإضعاف العرب خدمةً للمصالح النفطية الأميركية. ويـــبدو أنهـــم لم يعمـــدوا أبداً إلى استشارة مديرين تنفيذيين أُوَلاً أميركـــيين في مجال النفط، أو مستشارين، أو وسطاء للاستثمارات، سيّما وأن هؤلاء يوافقون الرأي القائل إن الدعم الأميركي لإسرائيل يزعـــزع الاستقرار في المنطقة، مهدّداً عملـــية التزوّد بالنفط، ورافعاً الأسعار علـــى المستهلكين الأميركيين، وخالقاً أعـــداء للحكام العرب المتحالفين مع الـــولايات المتحدة والذين يستثمرون فيها ويشترون العملات للحؤول دون انهـــيار أســـعارها، ويرفعون حصص

كان التحالف الأميركي مع إسرائيل أحد أكبرالمحركات في العالم للحركات المناهضة للإمبريالية، والتهجين العرقي، وإنشاء حواجز بين الأديان والأجناس؛ في كل مكان باستثناء أوساط اليسار الأميركي.

أوبيك للمساعدة على تخفيض أسعار المشتقات النفطية في الولايات المتحدة. وبدعمها الأعمى للوحشية الإسرائيلية الاستعمارية، إستعدت الولايات المتحدة عدة مئات من ملايين المسلمين، وملايين العرب من كافة الأديان، والغالبية العظمى من الأوروبيين، والأفريقيين، والآسيويين، مضاعفةً بذلك العزلة الأميركية العالمية. وكان التحالف الأميركي مع إسرائيل أحد أكبر المحركات في العالم للحركات المناهضة للإمبريالية، والتهجين العرقي، وإنشاء حواجز بين الأديان والأجناس.

والأكثر فظاظة في الأمر هو تأثير الإيديولوجية الخبيثة المناهضة لأوروبا في الحكومة الأميركية، والتي نشرها الإيديولوجيون الإسرائيليون والمنظمات اليهودية التي تنقل أفكارهم في الولايات المتحدة وأوروبا. وفيما كانت تتمّ الهيمنة على المسلمين والعرب وملاحقتهم، وسجن الآلاف، واختفاء العديدين على أيدي الأميركيين، عقدت الحكومات الإسرائيلية والأوروبية ووزير الخارجية باول لقاء في أوروبا أثناء تنامي خطر... معاداة الساميّة!! وحذت الأمم المتحدة برئاسة كوفي أنان حذو هؤلاء وعقدت لقاء خاصاً بها حول معاداة الساميّة أثناء أعمال التدمير المستمرّة في مخيّم رفح للاّجئين في قطاع غزة! وتُردّد المنظمات اليهودية الرئيسية مقولات شارون، وأولمرت في الوقت الحاضر، بأن المعادين للصهاينة هم معادون للساميّة؛ وتصبح هذه السياسة معترَفاً بها في الولايات المتحدة وبعض بلدان أوروبا... لدرجة القيام بطرد الأفراد الذين ينتقدون الصهيونية، وممارسة الضغوط على المؤسسات الثقافية لإخضاع الأحداث المناهضة للصهيونية للرقابة، وإيجاد ثقافة خوف عامة من

إغاظة المنظمات اليهودية المهيمنة. ومن المثير للدهشة أنه وسط ما يجري، أدانت المنظمات اليهودية الرئيسية في فرنسا علَناً الهستيريا المختلَقة كونها آلية إسرائيلية لتشجيع هجرة اليهود الفرنسيين إلى إسرائيل[1].

يشغل اليهود في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية وأوروبا أعلى المناصب وبشكل غير متكافئ، ويشكّلون النسبة الأعلى في الجامعات الخاصة ذات المكانة الرفيعة والمقتصرة على فئة من المجتمع دون غيرها، ويمارسون تأثيرهم في الشؤون المالية ووسائل الإعلام بشكل غير متكافئ أيضاً. من الواضح أن معاداة الساميّة هي مسألة هامشية عالمية وأن اليهود هم في الواقع الجماعة الإثنيّة الأكثر تأثيراً.

إن قِصَر البصر المأساوي أو رفض اليهود اليساريين بعناد مواجهة الدور المؤذي للجماعات الصهيونية واليهودية الرئيسية التي تروّج لسياسة المصالح الإسرائيلية في الطليعة، وتفرضها في برامج العمل الانتخابية، يُضعف إلى حدٍّ كبير جهودهم وجهودنا المبذولة لضمان السلام والعدل في الشرق الأوسط واعتماد سياسة أميركية خارجية ديمقراطية.

(1) كزافييه ترنيسيان، "مسؤولو اتحادات وطنية يعترضون على مخطط إسرائيلي يحثّ اليهود الفرنسيين على الهجرة"، لو موند، 17 حزيران/يونيو 2004.



الفصل الثالث

قضية ليبـــي والحرب الداخلية

إن النقاش الوطني الذي أُثير في وسائل الإعلام حول اتهام إرفين لـــويس ليبـــــي بالحنث باليمين وإعاقة العدالة فشل في التعاطي مع التساؤلات الأسياسية المرتبطة بالظروف البنيوية المعقّدة التي أثّرت في ســـلوكه الإجرامي. والتفسير الأكثر سطحية هو أن ليبـــي تصرّف بدافع الثأر لدى كشفه عن هويّة فاليري بلايم (عميلة سرّيّة للسي آي ايـــه) وذلك لمعاقبة زوجها جوزف ويلسن بسبب إفشاء الأكاذيب التي نشرها بوش حول استيراد العراق المزعوم لليورانيوم من النيجر. ويدّعـــي صـــحافيون آخـــرون أن سبب تصرّف ليبـــي هو إخفاء التلفـــيقات التي ابتُدعت للذهاب إلى الحرب. ومع ذلك، فقد طرح هذا الزَعم سؤالاً أكثر تعقيداً: من كان ملفّقو الدعاية للحرب، ومن كان يحمي ليبـــي؟ ولا يكفي كشف النقاب عن مختلقي الحرب بل أيـــضاً عـــن المخططين الاستراتيجيين، وواضعي الخُطَب، ومهندسي الحـــرب الذين تعاونوا مع مُروّجي الدعاية والصحافيين الذين قاموا بنـــشرها. وما كان الرابط بين كل هؤلاء الموظّفين ومُروّجي الدعاية والصحافيين؟

بالأهمـــية نفـــسها، ونظـــراً للمناصب التي كان يشغلها هؤلاء المتآمـــرون والتي كانت تؤمّن لهم النفوذ، ونظراً لتأثيرهم في وسائل الإعلام وفي وضع السياسة الاستراتيجية، من كانت القوى المتورّطة في توجيه التُهَم الجنائية لفرد أساسي من مجموعة المتآمرين؟

لفهم نشوء إرفين لويس سكوتر ليبـــي بشكل أفضل وسقوطه الجليّ، من الأهمية بمكان معرفة أنه كان عضواً في مجموعة متماسكة إيديولوجـــياً ذات تاريخ طويل في إيديولوجية يتمّ تشاطرها، وهدف مـــشترَك، وتعاون تنظيمي. كان بلوغ ليبـــي موقع النفوذ جزءاً لا يتجـــزّأ مـــن ارتقاء المحافظين الجدد الصهاينة إلى المناصب العليا في صـــناعة الـــسياسة الأميركية. وكان ليبــــــي طالباً يلقى الرعاية والاهتمام، ومعاونـــاً لبول وولفويتز لأكثر من 25 عامــاً. ويــؤمن ليبـــــي إضافةً إلى وولفويتـــز، وإليوت أبرامز، ودوغلاس فـــيث، وكاغان، وكوهين، وروبين، وبـــولاك، وشيرتوف، وفلايشر، وكريستول، وشولسكي، ومجموعة كـــبيرة من السياسيين ذوي النفوذ، بوجود مَيل صهيوني شديد إلى الحـــرب مرتبط عُضوياً بحزب الليكود اليميني في إسرائيل، ويؤيّدون هـــذا المـــيل بقـــوة. في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، كُلّف وولفويتز وفيث مهمة تمرير مستندات سرّيّة لإسرائيل، ونتيجةً لذلك فقـــد هذا الأخير تصريحه الأمني مؤقّتاً. ولكن هذا الأمر لم يحُل دون ارتقائهما مناصب أرفع في وقت لاحق. ويصعب تصوّر توجيه تهمة مماثلـــة في حالة بلد آخر غير إسرائيل دون أن يثير الأمر قلق المعنيين حول مستقبلهم المهني داخل الحكومة الأميركية.

يؤمن ليبـــي ومجموعة كبيرة من السياسيين ذوي النفوذ بوجود ميل صهيوني شديد إلى الحرب مرتبط عُضوياً بحزب الليكود اليميني في إسرائيل، ويؤيّدون هذا المَيل بقوة.

بـــدأ المحافظون الصهاينة الإيديولوجيون "مسيرتهم الطويلة" في مؤسسات الدولة؛ في بعض الحالات كمستشارين لأعضاء يمينيين في الكونغـــرس موالين لإسرائيل، وشغل آخرون مناصب أقل أهمية في

البنـــتاغون ووزارة الخارجية؛ وفي حالات أخرى كانوا أكاديميين أو قادة لمؤسسات استشارية محافظة في واشنطن إبّان إدارتي ريغن وبوش الأب. وبانـــتخاب بـــوش عام 2001، انتقلوا إلى مواقع استراتيجية رئيسية في الحكومة وعملوا كإيديولوجيين أساسيين وروّجوا لسلسلة مـــن الحروب ضد عرب يناصبون الدولة الإسرائيلية العداء. ووضع محافظـــون صهاينة بارزون، مثل ليبـــي، استراتيجية حربية لحكومة اللـــيكود عـــام 1996، وقاموا بتعديلها في ما بعد لتتلاءم مع الحرب الأميركية ضد العراق *قبل وبعد* 01/9/11 *مباشَرةً*.

في موازاة ارتقائهم مناصب تؤمّن لهم أكبر قَدْر من النفوذ في إدارة بوش، إجتذب المحافظون الصهاينة أعضاء جدد كجوديث ميلر، مراسل *النـــيويورك تايمز*. والمدهش في عمليات مجموعة المتآمرين من المحافظين الـــصهاينة هو طريقة عملهم المباشَرة وغير المقيَّدة. فالفريق وليام أودن (المدير السابق لوكالة الأمن القومي إبّان حكم ريغن)، والجنرال أنطوني زيـــني (قائد متقاعد للأسطول البحري)، والكولونيل كاي ويلكرسن (رئـــيس أركـــان سابق لكولن باول)، وبرنت سكوكروفت (مستشار الأمن القومي للرئيس جورج بوش الأب)، والعديد من المسؤولين الذين زال ســـحرهم الـــشعبي، بمـــن فيهم أشخاص متمرّسون في وكالات المخابرات، ومراقبون ذوو مستوى عالٍ، ودبلوماسيون سابقون، انتقدوا بـــشكل صريح اطّلاع المحافظين الصهاينة بالسياسة الأميركية وعلاقتهم العـــشوائية بجنـــرالات إسرائيليين، وبالموساد، وكان بإمكانهم دخول مكاتبهم دون أي عوائق.

في الفتـــرة التي سبقت اجتياح العراق، كان وولفويتز وليبـــي المنتمـــيان إلى المحـــافظين الصهاينة مهندسَي الاستراتيجية العسكرية

لرامسفيلد وتشيني، وهما رئيساهما المزعومان. لقد أنشأ دوغلاس فيث مكتب الخطط الخاصة لاختلاق أكاذيب تبرّر الحرب. وتولّى جوديث ميلر، وديفيد فرام، وآري فلايشر مهمة نشر الأكاذيب والدعاية للحرب من خلال المقالات، والمقابلات، والمؤتمرات الصحافية، وصياغة خُطَب الرئيس بوش. وتُظهر مراجعة الصحف البارزة والمستندات الحكومية أن المحافظين الصهاينة يردّدون حرفياً، وعلى الدوام، المطالب السياسية المنبثقة عن نظام شارون والمتمثّلة بأنه يُفترَض بالولايات المتحدة اجتياح العراق وتدمير النظام العراقي وأجهزة الدولة. ولم يُبدِ أي محافظ صهيوني في الحكومة أو خارجها في الجامعات الخاصة ذات المكانة الرفيعة أو في المؤسسات الاستشارية حدّاً أدنى من الانحراف عن سياسة الحرب التي يتّبعها نظام شارون. وفي ما يمكن أن يكون إحدى الخِدَع الأكثر تهكّماً في التاريخ الحديث، صُوِّرت الحملة التي شنّها المحافظون الصهاينة ضد العرب والإسلام لصالح إسرائيل الكبرى بأنها سياسة لنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط... وذلك من قِبَل أولئك الذين دمّروا جنين بقصفهم، والذين حوّلوا الفلّوجة إلى أنقاض بقنابل النابالم.

الحرب في الداخل

في إطار سعيهم المتغطرس للسيطرة بالكامل على سياسة الحكومة- يحثّهم على ذلك ولاؤهم المتعصّب لإسرائيل الكبرى- واصل المحافظون الصهاينة سعيهم لتدبّر أمر العديد من المؤسسات الأساسية في الدولة الأميركية الإمبريالية وتهميشها. وللتحايل على جهاز السي آي ايه الذي لا يروّج لبرنامج العمل الإسرائيلي المرتبط

بالحــــرب مع العراق، إختلق مكتب التخطيط الخاص التابع للمحافظ الـــصهيوني دوغـــلاس فـــيث حملة دعائية حوّلها مباشَرةً إلى مكتب الرئيس، متجنّباً ومهمّشاً أي مراجعة انتقادية تقوم بها السي آي ايه. كمـــا قام كل من وولفويتز ورامسفيلد بتهميش الجنرالات البارزين تماماً، وروّجا لتولّي الموالين المناصب العليا، وطرحا جانباً أي نصيحة تعـــارض خططهمـــا لـــشن حرب على العراق، أو تتضارب معها. ووصف كولن باول، وزير الخارجية، خطاب أعدّه له إرفين ليبـــي بالهُراء بسبب ما يحتويه من كذب صارخ. وكتب مساعده الأعلى، الكولونـــيل ويلكرسن، بأسلوب محقِّر عن مجموعة المحافظين الصهاينة المتآمـــرين، الذين همشوا وزارة الخارجية ورئيس الدبلوماسية باول. ومع ذلك، استمرّ باول بتقديم مجموعة إضافية من الأكاذيب في الأمم المتحدة قُدِّمت للعالم بشكل عشوائي.

في النهاية، أُقحمت الأف بي آي في حرب مستمرة مع الموساد الإســـرائيلي بـــسبب دخول عدد كبير من الجواسيس الإسرائيليين، وبـــشكل ملفت للنظر، إلى الولايات المتحدة؛ وتمّ ترحيل المئات منذ أيلول/سبتمبر 2001.

الجُـــرم الـــذي ارتكبه ليبـــي (الحِنث باليمين في شأن البَوح بهـــويّة عميل في السي آي ايه) هو جُرم قليل الخطورة مقارنةً مع الجـــرائم الـــتي يـــرتكبها المحافظون الـــصهاينة في الدولة الأميركية على نطاق واسع، وعلى المدى البعيد، ضد الإنسانية، والقانون الدولي، والدستور الأميركـــي. ومع ذلك، فإن مقاضاة

تظهر مقاضاة ليبـــي الصراع الداخلي الكبير حول التحكم بالدولة الأميركية الإمبريالية بين المحافظين الصهاينة والقادة التقليديين لمؤسساتها الرئيسية.

ليبـــــي تُظهـــر الـــصراع الداخلي الكبير حول التحكم بالدولة الأميركـــية الإمـــبريالية بين المحافظين الصهاينة والقادة التقليديين لمؤسساتها الرئيسية. وإلى جانب إصدار النائب العام أمراً باعتقال ليبـــــي، إعتقلت الأف بي آي صانعَي السياسة البارزَين في اللوبي المـــوالي لإســـرائيل الذي يتمتّع بأكبر قَدْر من النفوذ (AIPAC) بـــتهمة التجـــسس لـــصالح دولة إسرائيل. ولا يمكن اعتبار هذه الأعمـــال ببساطة أعمالاً فردية قام بها مسؤولون أو محققون على صعيد فردي.

لقـــد انـــــزعجت الـــسي آي ايه بعمق بسبب قيام المحافظين الـــصهاينة باغتصاب الدور المخابراتي لهذه الوكالة، وبسبب القنوات المباشـــرة الـــتي تربطهم بالرئيس، وولائهم الأساسي لدولة إسرائيل، وجهلـــهم للمـــوارد الموثوقة. كما يمكن الاشارة إلى غضب القوات المـــسلّحة بشكل كبير، بسبب استبعادها عن المداولات الحكومية في شأن مسائل الحرب؛ وسياسة الحرب الكارثية التي استنفدت مجنَّديها ودمّـــرت معـــنويات الجنود؛ وجهل المحافظين الصهاينة بشكل غير طبيعي لتكاليف الاحتلال الاستعماري. فلا عجَب أن يشير الجنرال تومي فرانكس إلى المحافظ الصهيوني دوغلاس فيث بأنه "الوغد الأكثر غباءً الذي التقاه".

تُذكّـــر الحرب الحالية الدائرة بين مؤسسات الدولة بنـــزاع سابق بين السيناتور اليميني جوزف مكارثي ووزارة الدفاع. ففي أواســـط الخمـــسينيات من القرن الماضي، كان السيناتور مكارثي يـــزداد نفوذاً بسبب تطهير نقابات العمال وهوليوود والجامعات، والتـــرويج للمسؤولين المحافظين الذين يملكون طريقة تفكير مماثلة.

ونجـــح في توســـيع تحقيقاته، وطالت عملية التطهير التي شرع بها وزارة الخارجـــية، وفي الـــنهاية القـــوات المسلّحة. وهنا خاض الـــسيناتور مكارثي 'معركة واترلو' الخاصة به. وردّاً على الهجوم الذي شنّه، حافظ الجيش على مواقعه، ودحض ادّعاءاته، وكذّب تلفيقاته، وأمسك بزمام السلطة.

فهـــل نـــشهد اليوم نشوء عملية مماثلة؟ وهل ستتمّ إعاقة قيام المحافظين الصهاينة بالإمساك بزمام السلطة بسبب "مبالغتهم في تقدير قوّتهم" داخل الدولة الأميركية؟ أم أن تعيين الجنرال مايكل هيدن على رأس الـــسي آي ايـــه يعكس تبعيّة السي آي ايه للبنتاغون، وبالتالي للمحـــافظين الـــصهاينة؟ ففي أي جلسات سماع علنيّة بين المحافظين الـــصهاينة والهيـــئات الدستورية في الدولة، تنكشف للشعب الطبيعة الحقيقية للنـــزاع وما هو على المحك: الخيار بين مصالح إسرائيل أوّلاً أو المصالح السياسية الأميركية.

في هذه الأثناء، لا يشعر المحافظون الصهاينة بالإحباط بسبب المحاكمـــات الـــتي يخضع لها زملاؤهم في آيباك وفي مكتب نائب الـــرئيس: هـــم يواصلون ممارسة الضغوط لقيام الولايات المتحدة بمهاجمة سوريا وإيران من خلال فرض عقوبات اقتصادية وقصف الدولـــتين. في 30 تـــشرين الأول/أكتوبـــر 2005، طلب الرئيس الـــسابق للـــشين بت من آيباك تصعيد حملتها بهدف الضغط على الـــولايات المـــتحدة لمهاجمـــة إيـــران (موقع Israel National News.com). وبالرغم من المساعدة التي قدّمتها سوريا في مرحلة مـــا بعـــد 11 ايلول للولايات المتحدة، ضمنت آيباك تصويتاً شبه إجماعـــي في الكونغرس الأميركي لصالح فرض عقوبات اقتصادية

عليها. وبالرغم من التظاهرات الحاشدة، وكونغرس *مُستولى عليه*، يبدو بتناقض ظاهري أن القوة الوحيدة القادرة على التغلّب على المحافظين الصهاينة الطُغاة، على غرار جو مكارثي في السابق، هم الأشخاص الرافضون بقوة لحروب جديدة مدمِّرة دون أن يكونوا قد شاركوا في صنعها.

الفصل الرابع

الكشف عن الوقائع

سيمور هرش والصلة الصهيونية-الإسرائيلية المفقودة

فيما كنت أقرأ تقارير هرش الملفتة والمؤثّرة في *النيويوركر* حول ممارسة التعذيب في العراق الذي تحتلّه الولايات المتحدة(1)، اتّضح لي بشكل متزايد أن هذا الأمر لم يكن كشفاً عن وقائع قائماً على معلومات دقيقة تتناول أشخاصاً ذوي مراتب عُليا مسؤولين عن سياسة التعذيب. كان التحقيق الصحافي لهرش رواية انتقائية توجّهها تساؤلات انتقائية حول مسؤولين انتقائيين. وبقراءتنا نسخة هرش عن سلسلة الأحداث بتشكك، ندرك أن هرش يربط مناقشة الموضوع برمّته ومسألة الكشف عن هويّة المسؤولين الأميركيين المتورّطين في استخدام التعذيب بشخص واحد - وزير الدفاع دونالد رامسفيلد (هو أمر هام بلا ريب) - وليس بمسؤولي وزارة الدفاع الآخرين

(1) سيمور هرش، "تعذيب في أبو غريب: جنود أميركيون يستخدمون أساليب وحشية مع العراقيين. إلى أي مدى يتصرّفون بمسؤولية؟"، ذا نيويوركر، 10 أيار/مايو 2004؛ "المنطقة الرمادية: كيف وصل برنامج سرّي للبنتاغون إلى أبو غريب"، ذا نيويوركر، 25 أيار/مايو 2004، و"رسائل مختلطة: لمَ لم تكن الحكومة على عِلم بما تعرف"، ذا نيويوركر، 3 حزيران/يونيو 2004.

ذوي المراتب العليا الذين كانوا مؤثّرين جداً ومسؤولين عن سياسة الحرب إذ أنشأوا وكالات المخابرات وقاموا بتنسيق الاستراتيجية والتكتيكات إبّان الاحتلال. كان رامسفيلد فرداً من نُخبة أجازت ممارسة التعذيب وشجّعت على القيام به. وطوال مرحلة كشفه عن الوقائع، أغفل هرش عَمداً دور الصهاينة، وولفويتز وفيث وهما الرجلان الثاني والثالث في البنتاغون اللذان دعما الحرب والاستجواب باستخدام التعذيب وروّجا لهما. أغفل هرش بصفة خاصة الخبراء الإسرائيليين الذين أقاموا ندوات لتعليم عناصر المخابرات العسكرية الأميركية على تقنيات الاستجواب باستخدام التعذيب، وهي التقنيات التي طبّقوها على السجناء العرب طيلة نصف قرن من الممارسة.

أغفل هرش دور الصهاينة ولا سيّما الخبراء الإسرائيليين الذين أقاموا ندوات لتعليم عناصر المخابرات العسكرية الأميركية على تقنيات الاستجواب باستخدام التعذيب، وهي التقنيات التي طبّقوها على السجناء العرب طيلة نصف قرن من الممارسة.

وأثناء بحثه عن موارد وثائقية تشير إلى الاستجواب باستخدام التعذيب، اعتمد هرش على النصوص الأكاديمية وكتيّبات التعليمات التابعة للسي آي ايه التي يعود تاريخها لعشرين عاماً خلت، وليس على الممارسات الإسرائيلية التي يعتمدها في الوقت الحاضر، وعلى نطاق واسع، مستشارو الموساد والشين بِت المتورّطون بممارسة التعذيب في هذه الأيام في فلسطين والجوار، وفي العراق، اليوم.

يعرَّف عن هرش في وسائل الإعلام بأنه صحافي تحقيقي معارض للمعتقدات التقليدية، وهو دور يُضفي على تحقيقاته وعملية كشفه عن الوقائع قدراً كبيراً من المصداقية. ولكن سيمور هرش هو من

دافـــع علانيةً بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر عن تعذيب المشتبَه بهم وأفـــراد عـــائلاتهم واصفاً الأمر بأنه وسيلة للاستجواب، مستشهداً بالأمـــثلة الإســـرائيلية، ومبرّراً ممارسة التعذيب كما يبرّر البنتاغون ممارســـته الآن بحق المشتبَه بهم العراقيين. وبدلاً من الاستشهاد بأقوال أســـتاذ مغمـــور في جامعة شيكاغو، كان يُفترَض بهرش الاستشهاد بالمنـــشور المؤثّـــر المدافع عن التعذيب الـــذي أعدّه أُستاذ القانون في جامعة هارفـــرد البروفـــسور ألان درشوفيتز (صـــهيوني زمـــيل) ويقرأه على نطاق واسع المدنيون المشرَبون بالروح الحربية الـــذين يسيّرون شؤون البنتاغون اليوم ويُديرون سلسلة القيادة المؤدّية إلى الاستجواب باستخدام التعذيب.

بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر دافع سيمور هرش علانيةً عن تعذيب المشتبَه بهم وأفراد عائلاتهم واصفاً الأمر بأنه وسيلة للاستجواب، مستشهداً بالأمثلة الإسرائيلية.

فـــشلت رواية هرش في توفير بيئة سياسية في البنتاغون والشرق الأوســـط لاستخدام التعذيب بطريقة منهجية. وإن فهم مسألة قيام الولايات المتحدة بتعذيب السجناء العراقيين والمدنيين، والإساءة إليهم بطـــريقة عنيفة يتطلّب تفحّصاً لواقع إضفاء طابع الشر على الشعب العراقـــي -' العـــرب - إيديولوجـــياً، والدعم الأميركي السياسي والعـــسكري اللامـــشروط لدولة إسرائيل، وهي الممارسة الأساسية للـــتعذيب ضـــد العرب على المدى البعيد وعلى نطاق واسع. ونجد التشويه المنهجي واللاذع لسمعة العرب والمسلمين في الشرق الأوسط في كـــتابات وخُطَـــب الإيديولوجيين الصهاينة المؤثّرين والمقيمين في الـــولايات المـــتحدة، مـــثل آل بايبس (الأب والإبن)، وآل كريستول (الأكبر سنّاً والأصغر سنّاً)، وآل كاغان وكوهين وغولدهاغن وغيرهم.

تتمثّل الخطوة الأولى في اتجاه تبرير التعذيب بتجريد الضحية من صفاتها الإنسانية، ونعت هؤلاء بالمتوحشين العنيفين منذ الولادة. لقد كـــان الصهاينة في الولايات المتحدة يتّبعون فحسب آراء مرشديهم الإيديولوجـــيين في إسرائيل الذين يعلنون تكراراً أن "الشيء الوحيد الذي يفهمه العرب هو القوة" (شارون، غولدا مئير، دايان، رابين... إلخ). وكـــان الإيديولوجيون الصهاينة في البنتاغون مؤثّرين في إثارة حقد العرب بطرق شتّى. ففي معرض دفاعهم عن إسرائيل، تعمّدوا تـــشويه طبـــيعة الحرب الاستعمارية التي تعتمدها إسرائيل، محمّلين الضحايا الفلسطينيين مسؤولية العنف المنهجي الذي تمارسه إسرائيل في حقهـــم. ودافـــع الإيديولوجيون عن كل عمل عنف إسرائيلي: المجـــزرة في جنين، إقامة مستوطنات يهودية جديدة في الضفة الغربية، الهجـــوم الفتّاك على رفح، قتل عمّال توزيع معونات الأمم المتحدة والناشـــطين في سبيل السلام، الجدار الهائل الذي يحجز شعباً بكامله، القـــتل الجماعي لمئات الفلسطينيين وتدمير آلاف المنازل في غزة. لقد أحـــدث العنف الإسرائيلي ضد الفلسطينيين انطباعاً عميقاً في نفوس الصهاينة الأميركيين الذين عمّموا وعمّقوا عداءهم للمسلمين العرب في مخـــتلف أنحاء الشرق الأوسط، ولا سيّما في العراق حيث هم في وضع يمكّنهم من تطبيق سياساتهم.

الصهاينة وممارسة التعذيب في العراق

كـــان مكـــتب الخطط الخاصة مصدراً رئيسياً للبنتاغون في ما يـــتعلق بالمعلـــومات المخابـــراتية والدعاية المرتبطة باجتياح العراق واحـــتلاله. وتجنّبت المجموعة الخاصة وكالات المخابرات العسكرية

والسي آي ايه في عملية *توفير معلومات مخابراتية* إبّان المراحل الأولى من الاحتلال (قبل تفكيكها). وبازدياد فعّالية هذه المجموعة بسبب المقاومة العراقية، والتثبّت في النهاية من أن التبرير الأميركي للحرب (أسلحة الدمار الشامل) مختلَق كليّاً من قِبَل المجموعة الخاصة، أُصيب رأس الهرم في البنتاغون، والمتمثّل برامسفيلد والصهاينة، بالإحباط؛ فأُصدرت الأوامر بشكل جماعي لتكثيف عملية التعذيب ونشره ليطال كل العراقيين المشتبَه بهم في كافة السجون. والقول إن القيادة كانت مقتصرة على رامسفيلد دون غيره، في حين كان وولفويتز وفيث وأبرامز متورّطين بشكل صريح وعلني في السياسات اليومية للحرب، يدافعون عن الاحتلال ويتحكمون بالمعلومات المخابراتية، هو ضرب من ضروب التبسيط الفادح.

حتى أن المتعصّبين الصهاينة في البنتاغون كانوا يروّجون بحماسة أكبر من حماسة رامسفيلد لاعتماد وسائل التعذيب الإسرائيلية وإذلال العرب المشتبَه بهم، وتمجيد النجاحات الإسرائيلية في التعاطي مع العرب. وهم من روّج، لا المخابرات العسكرية، للاستعانة بالخبراء الإسرائيليين أثناء الاستجواب، وشجّعوا الندوات التي يقيمها الإسرائيليون لضباط المخابرات العسكرية الأميركية والمتعهّدين الخاصّين ويتناولون فيها الحرب المدينية وتقنيات الاستجواب.

ولدى الكشف عن الوقائع، لم يُحمّل هرش صهاينة البنتاغون أي مسؤولية لتعريض العراقيين للتعذيب. فالإغفالات الفاضحة متعمَّدة بقدر ما هي جليّة، وهي نموذج منهجي يخدم الهدف المتمثّل بتبرئة صهاينة البنتاغون وإسرائيل، وتحميل مسؤولية جرائم الحرب لرامسفيلد بشكل كامل.

نظرة متفحّصة لطريقة هرش

تُظهر قراءة متفحّصة لسلسلة مقالات هرش في *ذا نيويوركر* فرضيّاته ووجهات نظره السياسية التي لا علاقة لأي منها بالقيَم الديمقراطية أو الاكتراث بحقوق الإنسان. ويتمثّل الاهتمام الأساسي لهرش بالأمر الشامل الذي أصدره رامسفيلد لممارسة التعذيب والذي عطّل عمليات مجموعة نُخبوية مؤلّفة من رجال كوماندوس محترفين مشاركين في برنامج سرّي خاص للقيام بأعمال قتل، واختطاف، وتعذيب إرهابيين مشتبَه بهم في كافة أنحاء العالم. بكلمات أخرى، كان رامسفيلد يعرّض عمل القتَلة المحترفين في العالم للخطر، وذلك بتوريط آلاف الجنود الأميركيين يومياً في ممارسات التعذيب. كان الاهتمام الرئيسي الثاني لهرش هو اكتشاف أعمال التعذيب التي من شأنها "إلحاق الأذى بفرص أميركا [*حرفيًا*] في الحرب على الإرهاب"؛ أي أن التكتيك الذي عزاه إلى رامسفيلد (دون غيره وبشكل خاطئ) كان يعرّض للخطر القدرة على بناء إمبراطورية. ونظرة هرش المحورية للإمبراطورية ترفض الاعتراف بالحقوق الأساسية لتقرير المصير، وتحظير القانون الدولي للتعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام خارِج إطار القضاء.

الاهتمام الثالث الجليّ لهرش يتناول قيام رامسفيلد بتجنّب السي آي ايه ووكالات مخابرات أخرى، إضافةً إلى محاولته احتكار المعلومات المخابراتية، فالأمر ينطوي على قليل من المراوغة. وقد أنشأ وولفويتز وفيث وكالة المخابرات الخاصة التي زوّدت رامسفيلد بالمعلومات الملفّقة، وروّجا لشلَبي (المعروف في مختلف أوساط المخابرات بأنه لا يمكن الاعتماد عليه البتّة) واصفَين إيّاه بمصدر لا

عيب فيه للمعلومات الداخلية في ما يتعلّق بأسلحة صدام للدمار الشامل التي لا وجود لها، *عالمَين مسبَقًا بأنهما يمرّران معلومات مزيّفة*. وكما أقرّ وولفويتز لاحقاً وبطريقة تهكميّة، فقد اتُخذ قرار شنّ عملية الاجتياح الأميركي تحت عنوان الأسلحة المحظورة لأنها المسألة الوحيدة التي تمكّنوا من التوافق حولها.

هرش ليس غبياً؛ فقد كان على عِلم بما يعرفه كل شخص في واشنطن وخارج الحكومة: كان الصهاينة في البنتاغون يحثّون على حرب مع العراق قبل 11 أيلول (حتى قبل تسلّمهم زمام الحكم في واشنطن، وكانوا يعملون مع الدولة الإسرائيلية) ويعتزمون حمل الولايات المتحدة على تدمير العراق *بأي ثمن*، بما في ذلك زهق أرواح الأميركيين، وحدوث عجز في الميزانية، وتعريض المصالح النفطية والمصالح الأمبريالية الأميركية العالمية للخطر. لقد شنوّا عملية الاجتياح متجاهلين القيادة العسكرية المركزية من خلال تزييف ردّ الفعل المتوقّع للشعب العراقي المحتَلّ ("سوف يتأهّلون بنا بصفتنا محرِّرين"؛ وولفويتز وبيرل) وكانوا يعتزمون تدمير البُنى التحتية العراقية المدنية والحكومية (تحت ستار تطهير المرافق من حزب البعث) بهدف تقويض قدرة العراق على تحدّي هيمنة إسرائيل على الشرق الأوسط.

لم تقم أي من المسائل التي طرحها هرش بسبر أغوار هذه الوقائع المعروفة التي تتناول هوية المسؤول عن الفظاعات التي ارتُكبت في حق العراقيين. ولم يكن عليه الاستشهاد بعملاء مخابرات دون ذكر أسمائهم، أو بمصادر في البنتاغون؛ كان الجنرال أنطوني زيني والعديد من الدخلاء غير الصهاينة، إضافةً إلى السي آي ايه والقيادة المركزية، على عِلم بخطط المروّجين الصهاينة، وعلاوةً على ذلك،

كانوا على علم بالدور الذي لعبه فيث في الحث على اعتماد تقنيات استجواب أكثر قساوة. لكن هرش تجاهل هذه المسائل وهؤلاء الصهاينة ومؤيّديهم ومستشاريهم الإيديولوجيين الذين قاموا بكل ما يمكن قبل الاجتياح لتقويض أي إمكانية لاستعادة الاقتصاد العراقي نشاطه وتمكّن العراقيين من تسيير مؤسساتهم التعليمية والصحية والانتخابية. لقد أُريد من اجتثاث البعث تحويل العراق إلى بلد قَبَلي متخلّف، إلى صحراء منقسمة يدير شؤونها ربيبهم شلَبي وهو المرشح الوحيد الذي سيعترف بإسرائيل ويزوّدها بالنفط والماء ويدعم التكامل الشرق أوسطي في إطار هيمنة إسرائيلية.

لقد نجح مسؤولو البنتاغون الذين يضعون مصلحة إسرائيل في الطليعة في ضمان نشوب الحرب وتدمير الخدمات الاجتماعية العراقية الأساسية، كما دمّروا الدولة العراقية (المحاكم، القوات المسلّحة، الخدمات المدنية). ومن جهة ثانية، وانطلاقاً من خضوعهم الأعمى لإسرائيل، فقد تغاضوا عن الواقع المتمثّل بأن الجنود المحترفين المسرَّحين والقادة المدنيين والمحترفين الذين شملتهم عملية التطهير أصبحوا جزءاً من مقاومة مسلَّحة تتمتع بالخبرة، وأن العراق أصبح بلداً لا يمكن ممارسة الحكم فيه، فأصبحت الولايات المتحدة عاجزة عن تحقيق أي تقدم في حرب سياسية خاسرة، ويفقد النظام العراقي الذي هو ألعوبة بين يدَيها أي شرعية أو دعم شعبي. لقد قام الصهاينة بما ظنّوا أنه الأفضل لإسرائيل حتى وإن أثار الأمر معارضة عالمية أكبر شملت الولايات المتحدة. حيث غدت غالبية الأميركيين في أيار/مايو 2004 مناهضة للاحتلال. وحدها آيباك أيّدت بوش وأيّدت استمرار الاحتلال، كما تعهّدت بالولاء للحرب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين.

وعندما تحوّل توقعهم الملائم لهم، والمتمثّل بمجتمع عراقي مرحِّب، إلى حـــرب شعبية شجاعة مناهضة للإحتلال، دعا فيث ومرؤوسوه إلى اســـتخدام أكبر لوسائل الاستجواب بالقوة؛ شجّع رامسفيلد وفيث الـــتعذيب وفقـــاً للنموذج الإسرائيلي المتّبع لإذلال العرب. وفي هذه الأثـــناء، امتُحنت دعوة كاغان إلى "قصف الشارع العربي" ولكنها فشلت في ترهيب المقاومة العراقية.

إن قـــيام هرش باعتبار رامسفيلد المذنب الأعلى *الوحيد* جاء في وقـــت مناسب: عندما فشلت السياسة الأميركية واقترب المسؤولون المطّلعون من تحديد دور الصهاينة في البنتاغون. وينمّ عن ذكاء زائد: كـــان رامسفيلد مُحتقَراً كلّيّاً في الكونغرس وفي أوساط العسكريين المحترفين ومجموعة كبيرة من أشخاص آخرين، وذلك بسبب سياساته وإطلالـــته المتعجرفة على الجمهور. ومع ذلك، وحتى بافتضاح أمر رامـــسفيلد، كـــان هرش حريصاً على القيام بذلك بطريقة سمحت لـــزملائه الـــصهاينة بالاستمرار في ممارسة الحكم دون التعرّض لأي أذى. وعلاوةً على ذلك، برّر هرش بعض أعمال رامسفيلد المندرجة في إطـــار الترهيب غير القانوني قائلاً إنها عوائق قانونية للقضاء على الإرهابيين. كما أن تأييد هرش لجوء رامسفيلد إلى الاستعانة برجال كوماندوس غير مسؤولين لاغتيال مشتبَه بهم في كافة أنحاء العالم، أو خطفهـــم، أو تعذيـــبهم، خدم في الواقع تلك التكتيكات بعد تخلّي رامسفيلد عن منصبه الوزاري.

لقـــد أثار هرش موضوعاً لا لزوم له يتناول موظفاً من المستوى الخـــامس تحت إدارة فيث، هو ستيفان كامبون، ويخبرنا عنه قائلاً إنه "كـــان متورّطاً بعمق" في تعذيب السجناء؛ أكثر تورّطاً من مسؤوليه

كيف حدث أن وجّه هرش اللوم لأولئك الذين يفوقون رامسفيلد مرتبةً وأولئك الذين هم ما دون كامبون أهمية، ولكنه لم يركّز أبداً على فيث وولفويتز اللذَين وضعا السياسة وأداراها؟

الصهاينة؟ ولكننا قد نطرح السؤال التالي على الصحافي الاستقصائي الذي لا نظير له: كيف حدث أن وجّه هرش اللوم لأولئك الذين يفوقون رامسفيلد مرتبةً وأولئك الذين هم ما دون كامبون أهمية، ولكنه لم يركّز أبداً على فيث وولفويتز اللذَين وضعا السياسة وأداراها؟

في سياق الإعداد لافتضاح أمر كامبون، أورد هرش معلومات عن حياة كامبون تُظهر صلته الوثيقة بالصهاينة: أيّد الحرب مع العراق (وفقاً لوولفويتز، فيث، بيرل، وأبرامز)؛ إزدرى السي آي ايه التي يعتبرها صهاينة البنتاغون "شديدة الحذَر"، مهاجماً إيّاها بسبب عدم العثور على أسلحة الدمار الشامل. وبما أن كامبون كان يعمل تحت إمرة وولفويتز وفيث، فكان يكرّر ما أراد رئيساه أن يسمعاه فحسب، ولهذا السبب ربما عهدا إليه بالمهام القذرة المذكورة المتمثلة بجمع 'المعلومات المخابراتية' من خلال ممارسة التعذيب.

يحاول هرش ربط كامبون بانتشار التعذيب الذي مارسه برنامج الوكالة الخاصة انتقائياً. ولكن هذا البرنامج كان قائماً قبل تسلّم كامبون منصبه، وكان رامسفيلد وولفويتز وفيث وأبرامز يُشرفون على عملياته. إن تاريخ بدء التعذيب في آب/أغسطس 2003، وفقاً لهرش، مع تعيين كامبون واللواء ميلر (في غوانتانامو) خاطئ. فقد بدأ قبل ذلك التاريخ تحت إشراف برنامج الوكالة الخاصة مع مستجوبين قامت إسرائيل بتدريبهم. وعلاوةً على ذلك، كان البنتاغون برئاسة الثلاثة أنفسهم (رامسفيلد، وولفويتز، وفيث) هو الذي أصدر الأمر

لميلـــر بممارســـة التعذيب في حق المشتبَه بهم في غوانتانامو بالدرجة الأولى قبل نقله إلى العراق مكافأةً لعمله المثالي. ولا يسبر هرش أغوار صلات ميلر برامسفيلد ووولفويتز وفيث قبل المغادرة إلى العراق. فهو يوقـــف التحلـــيل ببساطة، مركّزاً على المستويات الوسطى والدنيا لممارســـة السلطة: كامبون، ميلر، المحققون، والمجنَّدون. وخارج هذا الإطـــار، يقـــدّم هرش عملاً صحافياً تحقيقياً انتقائياً مفصَّلاً. فهو يكـــشف عـــن بعض الحقائق ولكنه يُخفي تلك المرتبطة بأولئك الأكثر تورّطاً، وبشكل ناشط، في التسبّب بالحرب وإدارتها بطريقة تخـــدم المـــصالح الإســـرائيلية. إن الخسائر التي تتكبّدها الولايات المـــتحدة في الأرواح، ومـــا يتعرّض له الجنود الأميركيون الشبّان الذين فُرض عليهم لعب دور المعذّبين من تحقير، هي أمور لا يَقلق صهاينة البنتاغون في شأنها.

لقـــد تعرّض صهاينة البنتاغون لهجوم. فقد حدّد أنطوني زيني، وهـــو جنـــرال في القوات البحرية، والسيناتور فريتز هولينغز وقادة سياســـيون ودبلوماسيون وعسكريون بارزون آخرون دور صهاينة البنـــتاغون في شنّ وإدارة الحرب لصالح إسرائيل. وما بدا أنه خطوة واضـــحة في اتجـــاه تهميش شلبي الموالي لإسرائيل - ربيب وولفويتز وفيث وأبرامز - من خلال الإغارة على منـــزله ومصادرة سجلاّته للتحقـــيق في أعمالـــه المالية الشاذة كما زُعم، كان نكسة رمزيّة[1].

(1) يشهد المسار العملي لشلبي قفزات مستمرة. فبعد ظهوره المستنكَر في الانتخابات العـــراقية في 15 كانون الأول/ديسمبر 2005، اختير للحلول مكان وزير النفط آنـــذاك بحـــر العلوم الذي سبق له أن هدّد بالاستقالة بسبب قرار الحكومة برفع أسعار الغاز للعراقيين. ومن ثمّ استُبدل بحسين الشهرستاني. وظهر مؤخّراً في لقاء مؤتمر بيلدربرغ عام 2006 الذي جرى خارج أوتاوا، كندا.

وهكـــذا كان حال امتناع الولايات المتحدة عن التصويت في مجلس الأمـــن لـــصالح قرار يُدين المجازر الإسرائيلية في رفح؛ بسبب المرارة العظـــيمة الـــتي شعر بها الحشد الإسرائيلي الذي حضر للمرة الأولى مؤتمر آيباك.

ورداً علـــي ذلـــك، شـــجبت كل المنظمات اليهودية الرئيسية والمنشورات بدءاً بفروورد وانتهاءً بالحلف المناهض لتشويه السمعة، وAJC وغيرها، الانتقادات الصادرة عن صهاينة البنتاغون. وبالرغم مـــن كل حالات الكشف عن ممارسة التعذيب والقتل والاغتصاب، شـــنّ الإيديولوجيون الصهاينة الرئيسيون مثل كريستول، وكروتامر، وروبين، وبيرل، وكاغان، وفرام، هجمات على بوش بسبب "تراجع مستوى التأييد" الذي تحظى به الحرب.

كانت محاولات هرش لإجبار التحالف المناهض للصهاينة على التراجع عن مواقفه من خلال التركيز على الشخصَين غير اليهوديَّين – رامـــسفيلد وكامبون – بلا طائل فاستُلّت السيوف. وبسبب النفوذ الـــصهيوني داخل الحكومة وخارجها، اســـتخدم التحالف المناهض للصهاينة ومـــؤيّدوهم كلمـــات سر، وأكثرها شـــيوعاً: **محافظـــون جدد** وهو تعبير يعـــرف الجميع أنه يراد به الإشارة إلى وولفويتز وفيث وأبرامز وصهاينة آخرين داخل الحكومة وخارجها. ونتـــيجة لشعور آيباك، والحلف المناهض لتشويه السمعة، وساعون آخـــرون إلى ضمان مصالح إسرائيل في المقام الأول، بالخطر المُحدق بمـــن يـــشاطرونهم الـــتفكير نفسه، تحوّلوا إلى نعت المحافظين الجدد

بسبب النفوذ الصهيوني داخل الحكومة وخارجها، إستخدم التحالف المناهض للصهاينة ومؤيّدوهم كلمات سر، وأكثرها شيوعاً: محافظون جدد.

المُشرَبين بروح الحرب بالمعادين للساميّة، وأثاروا الكونغرس ووسائل الإعلام وآلتهم الدعائية بهدف ترهيب التحالف وإخضاعه.

لكن صور التعذيب التي أضعفت الثقة بسياسة الحرب هدّدت بعزل المتعصّبين الصهاينة. وفي مواجهة غضب العالم المتحضّر بأكمله بسبب جرائم الحرب، تولّى المبرِّرون الصهاينة التقدميّون، مثل هرش، مهمة تحميل كامبون ورامسفيلد المسؤولية دون غيرهما، وحصر المسؤولية "بعدد قليل من الجنود" كما فعل السيناتور ليبرمان؛ بالرغم من أن القوات المسلحة الأميركية قالت إن عدد المتهمين فاق الـ 100 شخص، فهذا الأمر بحدّ ذاته هو مؤشّر للمدى الذي بلغته المشكلة وأصولها السياسية؛ في حين أن نُخبة آيباك شجّعت بوش، متجاهلةً القذارة ودم التعذيب.

ربط رامسفيلد بمهارة مستقبله بشركائه الصهاينة في البنتاغون وخارجه، معتمداً على التمسّك بأهداب معطفهم، وجانياً دعم اللوبي اليهودي القوي وقادته في الدولة الإسرائيلية الذين يقفون وراءه. فحلفاؤه المؤثّرون قليلو العدد.

خاتمة

في التحليل النهائي، لم يكن إبعاد أعضاء أساسيين من مجموعة صهاينة البنتاغون عن مناصبهم - وولفويتز، فيث، أبرامز، روبين، ليبي - سوى نكسة مؤقّتة. وما زالت المنظمات السياسية الصهيونية سليمة، ويبقى تأثيرها في الكونغرس غامراً. وقطع لها الحزبان الرئيسيان تعهّدات بأن "قضية إسرائيل ليست سوى قضية أميركا" (بوش وكيري). وكشرت المنظمات الإسرائيلية عن أسنانها،

ضامنةً فرض عقوبات ضد سوريا، وداعية إلى قصف المنشآت النووية الإيـــرانية المـــزعومة، ومحاولةً إيجاد أجواء أزمة. وخلال زيارته إلى واشنطن في أيار/مايو 2006، حصل رئيس الوزراء أولمرت على دعم بـــوش لقيام إسرائيل برسم "الحدود النهائية" بشكل أحادي، فارضاً بـــذلك علـــى واشنطن وحلفائها الأوروبيين المقرَّبين التنكّر لخارطة الطريق التي وضعوها.

في هذه الأثناء، وبالنسبة إلى أولئك الذين ما زالوا يُنكرون دور الـــنفوذ الصهيوني في السياسة الخارجية الأميركية، ليس عليهم سوى قراءة التقارير المرتبطة بمؤتمر آيباك الذي عُقِد في واشنطن في أيار/مايو 2004. فبيـــنما كانت إسرائيل تقتل الأطفال في شوارع رفح وتدمّر مـــئات المـــنازل تحت أنظار العالم المتمدّن المروَّع بأكمله، وفي حين وقف مجلس الأمن الدولي المغتاظ على قدمَيه وأدان إسرائيل بالإجماع، تعهّد قادة الكونغرس الأميركي والمرشحان الرئاسيان الرئيسيان بدعم غير مشروط لإسرائيل، مثيرين هتافات الوسطاء في مجال الاستثمار، وأطباء الأسنان، والأطباء، والمحامين المتعطشين للدماء؛ صفوة الصفوة في المجتمع اليهودي الأميركي.

لقـــد أعلـــن كل مرشَّح بالفم الملآن أن "قضية إسرائيل ليست ســـوى قضية أميركا" بينما يقوم الإسرائيليون بجرف المنازل، ويطلق القنّاصـــة الـــنار علـــى الفتيات الصغيرات وهنّ في طريقهنّ لشراء السكاكر. كان الأمر تقريباً وكأن شارون يريد إظهار نفوذ الصهاينة في الـــولايات المتحدة، مؤقّتاً دمار رفح ليتزامن ومؤتمر آيباك والمظهر المقـــيت للـــسياسيين الأميركيين الضعفاء الشخصية وهم يدعمون الجـــرائم المـــستمرة ضـــد الإنسانية. ولم يُرفع صوت واحد وإن في

احتجاج خنوع. وفي مواجهة أولئك الذين يدّعون أن الصهاينة ليسوا سوى جماعة ضغط واحدة من "جماعات الضغط العديدة المؤثّرة"، حاولوا إبراز ما يقدّمه السياسيون الأكثر نفوذاً في الولايات المتحدة من دعم لامشروط للإبادة الجماعية التي يتعرّض لها الشعب الفلسطيني.

لم يكن الأمر سارّاً لدى مشاهدة شارون يمرّغ وجوه السياسيين الأميركيين المتذلّلين بالقذارة والدم المتخثّر اللذين خلفهما اجتياح رفح؛ إن السياسيين الأميركيين الخانعين وشارون المتسلط يستحقان بعضهما البعض. ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين يؤيّدون سياسة خارجية ديمقراطية مناهضة للإمبريالية، فقد كان هذا الأمر أحد الأوقات الأكثر إذلالاً في تاريخ الولايات المتحدة. وهو أمر لن نقرأه لدى قيام هرش بالكشف عن وقائع معيَّنة، أو في مقالات الصهاينة الواسعي المعرفة والمدافعين عن الحروب اللامتناهية.



الفصل الخامس

محاكمة الجاسوس

قنبلة سياسية

ما هي الدولة التي كانت تملك مئات العملاء السريّين، والجواسيس الداخليين، والمتعاونين العاملين لصالح حكومة أجنبية في الولايات المتحدة طيلة أكثر من 30 عاماً، وفي إطار من الحصانة؟ وفقاً لمراسلين مطّلعين سابقين وحاليين في برامج إخبارية قامت الأف بي آي بإجراء مقابلات مع بعضهم، أشار العملاء الفدراليون إلى أن الموساد هو من قام بتنظيم شبكة التجسس داخل الولايات المتحدة وروّج لها.

في أحد أكبر تحقيقاته على الإطلاق حول التجسس، أجرى أكثر من 100 عميل للأف بي آي في مدن عبر البلاد مقابلات مع آلاف الشهود المحتمَلين، والمُخبرين، والمشتبَه بصلتهم بالتجسس الإسرائيلي في الولايات المتحدة.

أخبرني مراسل إخباري سابق لصحيفة بريطانية أسبوعية مؤثّرة بأنه أُجريت معه مقابلتان في غضون اثنَتي عشرة ساعة حول تعاون وسائل الإعلام مع الموساد في عملية بث معلومات مضلّلة وأخبار في إطار دعاية موالية لإسرائيل. من خلال محادثات مع صحافيين أجرت الأف بي آي مقابلات معهم، كان هناك انطباع عن مدى عمق

اختـــراق الجواسيس الإسرائيليين والمتعاونين معهم المجتمع الأميركي وحكومـــته. ووفقـــاً لمصادري، كانت الأف بي آي تجري تحقيقات حول شبكات تجسس إسرائيلية طيلة 30 عاماً، وقد أعاق سياسيون مـــن الحـــزبَين هذه التحقيقات خدمةً لجماعات الضغط الإسرائيلية والممـــوّلين الأثـــرياء للحملات الموالية لإسرائيل. حتى أنه تمّ اختراق الأف بي آي، وفقـــاً لكاتب يعمل لصالح *الإكونوميست* البريطانية: شـــهادة على صورة تقرير تقدّم بها الكاتب في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي وتُورّط ريتشارد بيرل وبول وولفويتز في عملية تسليم مـــستندات لعمـــلاء الموســـاد "أُخـــذت من ملفات الأف بي آي واختفت".

علـــى مـــرّ السنين، أصبحت الأجهزة السرّيّة الإسرائيلية أكثر وقاحـــة وفظاظـــة في عمليات التجسس في الولايات المتحدة، وقد جـــنّدت لهـــذه الغاية مئات الإسرائيليين، والإسرائيليين الأميركيين (يحملون جنسيّتَين) والمتعاونين المحلّيين معهم (*'سايانيم'* أو داعمون متطوّعون للـــيهود يعاونون العملاء الإسرائيليين خـــارج إسرائيل). وبعد 11/9، رحل مئات العملاء الإسرائيليين الذين كانوا منتشرين في الوزارات الحكومية *بهدوء*.

على مرّ السنين، أصبحت الأجهزة السرّيّة الإسرائيلية أكثر وقاحة وفظاظة في عمليات التجسس في الولايات المتحدة.

كـــان الترحيل الجماعي للجواسيس الإسرائيليين ردّاً على فشل إســـرائيل في الـــتعاون لـــتفادي وقـــوع المجزرة في نيويورك بتاريخ 11 أيلول/سبتمبر 2001 والتي أدّت إلى مقتل آلاف الأشخاص. ويبدو أن لـــدى الأف بي آي ما يشير إلى أن المخابرات الإسرائيلية كانت

تملك دليلاً مفصَّلاً عن هجمات 11/9 الإرهابية دون أن تقوم بتزويد السلطات الأميركية بالمعلومات. ووفقاً لمصادري، فإن الإسرائيليين نقلوا معلومات قبل الهجوم مباشَرةً أخرجت الأف بي آي عن مسارها. وفي حين يملك الموساد أكبر شبكة تجسس، ونظام الدعم الأقوى مقارنةً مع أي بلد آخر عامل في الولايات المتحدة، فإن ما يثير الاهتمام بصفة خاصة هو اختراق هذه العمليات الأوساط الأرفع مرتبة في الحكومة الأميركية، بما في ذلك مكتب نائب الرئيس تشيني، وفقاً لمحقّقي الأف بي آي. ويعود سبب التحقيق المطوَّل، وتخصيص موارد كبيرة مؤخّراً وعملاء لهذه المسألة، إلى التعاطي الشائك مع المشتبَه بهم في المناصب الحكومية العليا. ووفقاً لأحد الفدراليين في فيلادلفيا، فإن من شأن خطوة خاطئة أن تؤدّي إلى قيام موظفين رفيعي المقام بإلغاء التحقيق. لذلك، وسّع المحققون نطاق المقابلات، مغطّين كافة المصادر الممكنة، ومكدّسين آلاف الصفحات من الوثائق، والشهادات، وتقارير تنصّت عبر الهاتف، وشرائط مسجَّلة لأي شخص مطّلع على عمليات التجسس الإسرائيلية أو ثبت احتمال تورّطه فيها. وبالرغم من التحقيقات المكثّفة، إستمرّ عدد قياسي من العملاء الإسرائيليين والمجنَّدين الجدد بأعمالهم التجسسيّة، وقد حصل العديد منهم على تغطية وقائية من قِبَل المسيحيين الإنجيليين المُحبّين للصهاينة إضافةً إلى *السايانيم*. وكانت AL الهدف الرئيسي لتحقيقات الأف بي آي ولكن كان من الصعب اختراقها – وهي وحدة سرّيّة من الكتساس الذين يتمتّعون بالخبرة (ضباط من الموساد يجنّدون عملاء في صفوف الأعداء، كما وصفهم عميل الموساد السابق فيكتور أوستروفسكي في كتابه ***عن طريق التضليل***).

ووفقــاً لمــصادري الــصحفية، كان تمرير معلومات إسرائيلية مضلّلة، كما في حالة جوديث ميلر، ممارسة شائعة طوال الثمانينيات والتــسعينيات مــن القرن الماضي. وقد وافق العديد من الصحافيين وكــاتبي الافتتاحيات المرموقين على نشر أو بثّ معلومات إسرائيلية مــضلّلة صــاغها عملاء للموساد يعملون كمسؤولين سياسيين في الــسفارة الإســرائيلية. وإلــيكم مثال حديث العهد عن ذلك: في أيــار/مايو 2006، نشرت آيباك - والسيناتور عن تل أبيب، تشارلز شــومر - شائعة ماكرة مفادها أن البرلمان الإيراني أقرّ قانوناً يفرض علــى اليهود والمسيحيين والزرادشتيين ارتداء شارات ملوّنة للتعريف عن أنفسهم بأنهم غير مسلمين. وردّدت وزارة الخارجية هذه الكذبة الــوقحة كالببّغاء، وبطريقة يمكن التوقع بحصولها، قائلةً إنها مثال عن "الأصداء الواضحة... لألمانيا إبّان حكم هتلر". في الحقيقة لم يقر مثل هــذا القانون، وقال المشرّعون الإيرانيون، بمن فيهم عضو يهودي في البرلمان، إنه لم تتمّ مناقشه هذا القانون أبداً[1].

كان التحقيق الذي أجرته الأف بي آي حول عمليات التجسس الواســعة التي تقوم بها إسرائيل في الولايات المتحدة ناجماً عن عوامل عدة. أولاً: وبعد سنوات من التعاون الوثيق بين المخابرات الإسرائيلية والأف بي آي، حُمِّلت هذه الأخيرة (مع السي آي ايه) مسؤولية "فشل المخابــرات في مــا يــتعلّق بأحداث 11/9"، وذلك دون أي ذكر لقلّــة تعاون إسرائيل في هذا المجال وما نشرته من معلومات مضلّلة. وثانــياً: أضعف اجتياح العملاء الإسرائيليين الوقح للأف بي آي (في الــولايات المتحدة)، وعلى نطاق واسع، النشاطات الخاصة بالوكالة

---

(1) فايننشل تايمز، 23 أيار/مايو 2006.

الـــتي تآكل وضعها كوكالة أمنية، وشكّل تحدياً لعمليات التجسس المـــضادة بصفة خاصة. وثالثاً: إن ارتقاء وولفويتز وفيث وبيرل إلى المناصـــب العليا في البنتاغون، وتولّي إليوت أبرامز وروبين وليبـــي مناصب عليا في مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية ومكتب نائب الـــرئيس، أدّيـــا إلى تمرير مكثّف وسريع لمستندات سرّيّة وقرارات حـــساسة لمجمـــوعة عملاء الموساد الكبيرة وضباط رفيعي الرُتب في المخابرات العسكرية الإسرائيلية في الولايات المتحدة وإسرائيل.

لقد تحوّل تدفّق المعلومات من الولايات المتحدة إلى إسرائيل إلى سيل جارف لا يمكن التحكم به، والأسوأ من كل ذلك أن الأف بي آي باتت مهمَّشة، هذا إن لم تكن مرفوضة، على الصعيد التنظيمي. ومـــا كان يغيظ الأف بي آي أنه كان لديها خمسة شهود على الأقل مـــستعدّين للـــشهادة ضد وولفويتز وفيث في شأن حادث تجسس، ولكـــن لم يكن بالإمكان المسّ بهما بسبب منصبَيهما المرموقَين وما كانـــا يتمـــتعان به من دعم رئاسي (ولا سيما بعد 11/9). وكانت الأف بي آي مُدركـــة تمامـــاً للاختـــراق العميق الحاصل في الدولة الأميركـــية، والـــدور الأساسي الذي لعبته إسرائيل في تقديم النُصح لعملائهـــا والمـــتعاونين معهـــم وللمـــنظمات الصهيونية الرئيسية، وتوجيههم، وتمرير حملات دعائية وتوجيهات إليهم، وذلك في الفترة التي سبقت الاجتياح الأميركي للعراق. ونظراً للهستيريا التي رافقت الإعـــداد للحـــرب والحملة الدعائية "المناهضة للإرهاب" التي شنّها الجهـــاز الإيديولوجـــي المـــوالي لإسرائيل، عمل مؤيّدو إسرائيل في الحكومة بشكل علني، متمتّعين بحصانة كاملة، ومتحدّين بذلك الأف بي آي والـــسي آي ايه من خلال إنشاء مكتب الخطط الخاصة التابع

لهـــم، وهـــو مركـــز العمليات المخابراتية الأساسي لنقل المعلومات الإسرائيلية المضلّلة إلى البيت الأبيض مباشَرةً.

لـــيس شـــن الحـــرب على العراق، والعواقب التي تلتها مباشَرةً، والاحتلال الذي تكرّس في وقت لاحق سوى دلالة أكيدة على الطغيان الإســـرائيلي علـــى واشنطن. واحتفل المستشارون الموالون لإسرائيل، وأعـــضاء الحكـــومة، والإيديولوجيون، والناطقون أو الناطقات باسم المناصب العليا، والمنتمون إلى آيباك وحلفاؤهم في مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية (CPMJO) بنجاحهم في حث الولايات المتحدة على تدمير الخصم الأساسي لإسرائيل وجيشه، واقتصاده، ومؤسساته الإدارية والتربوية، وبنيته التحتية، تدميراً كاملاً.

ولم يـــدُم طويلاً احتفال إسرائيل بانتصارها على التفكير السليم للولايات المتحدة ومصلحتها الوطنية. فبازدياد قوة المقاومة العراقية، وارتفـــاع عـــدد الإصـــابات في صفوف الجنود الأميركيين، وتزايد تكالـــيف الحـــرب بـــسرعة، تحوّل الشعب الأميركي ضد الحرب، وانخفض التأييد لإدارة بوش بشدة. وفي ظل هذه التبدلات السياسية، فقد العملاء الإسرائيليون ومعاونوهم في الحكومة، وواضعو سيناريو الحـــرب ومهندسوها، حصانتهم في مواجهة التحقيق والاستجواب. شـــعرت الأف بي آي بالتـــبدل الملائم في المناخ السياسي، فوسّعت تحقيقاتها إلى حدٍّ كبير، وتلا ذلك استجوابات طالت فيث وولفويتز وبـــيرل ومحافظين صهاينة آخرين تربطهم علاقات وثيقة بالمخابرات الإسرائيلية.

مخافة تعرّضها لهجمات مؤيّدي إسرائيل في الكونغرس الأميركي والهيـــئة التنفـــيذية (السيناتوران كلينتون وليبرمان، ووزيرة الخارجية

كوندوليــزا رايــس، ونائب الرئيس تشيني)، ركزت الوكالة الحذِرة باستمرار على الإساءات التي ارتكبها عدد من الأشخاص المستهدَفين المــوالين لإسرائيل وسيّئي السمعة: إرفين سكوتر ليبــي في مكتب نائــب الرئيس بسبب الكشف عن هوية عميل سرّي للسي آي ايه؛ لاري فرانكلين، وهو مسؤول ثانٍ في البنتاغون تربطه صلات بفيث وولفويتز، بسبب التجسس لصالح إسرائيل؛ وقائدان للّوبي الرئيسي المــوالي لإســرائيل، آيــباك، وهما روزن وويسمن، بسبب تمريرهما مــستندات سرّيّة لعملاء الموساد في السفارة الإسرائيلية ولصحافيين مطّلعين ينتمون إلى الجسم الصحافي في واشنطن. وبمواصلة الأف بي آي تحقــيقاتها حــول الــصلة الإسرائيلية بأعمال التجسس، طالت مناصــب أعلــى في هــرمية الدولة، إستقال وولفويتز فجأةً، وكان طمــوحه طــوال الحياة بلوغ المركز الأول في وزارة الدفاع، وعُيِّن رئيساً للبنك الدولي؛ واستقال فيث أيضاً، وانضمّ إلى مؤسسة المحاماة الأميركية-الإسرائيلية عندما طال التحقيق إحدى قنواته الرئيسية التي تزوّد المخابرات الإسرائيلية بالمعلومات (فرانكلين).

آيباك قيد الاختبار

في آب/أغسطس 2004، أعلنت الأف بي آي ومكتب مكافحة التجسس في وزارة العدل الأميركية أنهما كانا يجريان تحقيقات حول محلّــل رفيع المقام في البنتاغون مشتبَه فيه بالتجسس لصالح إسرائيل، وذلك من خلال قيامه بتزويد آيباك بمستندات سرّيّة تتناول السياسة الأميركية حيال إيران، والتي تقوم آيباك بدورها بتسليمها للسفارة الإســرائيلية. كانت الأف بي آي تحقق بشكل سرّي في أمر هذا

المحلــل، لاري فــرانكلين، وقائدي آيباك، ستيفن روزن وكيت ويــسمن، طيلة سنوات عديدة قبل اتهامهما بالتجسس. وفي 29 آب/أغـسطس 2005، أنكرت السفارة الإسرائيلية بشدة مزاعم التجسس، وكان بالإمكان التوقع بحدوث هذا الإنكار. وفي اليوم نفسه، أُعلن عن لاري فرانكلين مشتبهاً فيه بأعمال تجسس. وكان فرانكلين قد عمل بشكل وثيق مع مايكل ليدن ودوغلاس فيث في اختلاق قضية لشن الحرب على العراق. وكان أيضاً المحلل الأعلى للــشؤون الإيرانية، وهو على رأس واضعي قائمة أهداف الحرب التي تُعدّها آيباك.

وبمضيّ التحقيق قُدُماً في اتجاه توجيه اتهامات رسمية بالتجسس، إشتركت المؤسسات الاستشارية الموالية لإسرائيل مع الإيديولوجيين المنتمين إلى المحافظين الصهاينة في رد فعل مزدوج. فمن جهة، تساءل الــبعض حــول ما إذا كان تمرير مستندات يُعتبر جُرماً، مُدّعين أنها *تــبادلات روتينــية للأفكار*، وممارسين ضغوطاً في هذا الاتجاه. ومن جهة أخرى، أنكر المسؤولون الإسرائيليون ووسائل الإعلام أي علاقة لإسرائيل بفرانكلين، مقلّلين من أهميته في أوساط صناعة السياسة، في حين أكد آخرون على استقامته.

تعمّقــت تحقــيقات الأف بي آي حــول شبكة التجسس في واشنطن وشملت استجواب عضوين بارزَين في مكتب الخطط الخاصة الــتابع لفيث، وهما وليام لوتي وهارولد رود. وكان المكتب مسؤولاً عــن تمرير معلومات مخابراتية مزيَّفة أدّت إلى الهجوم الأميركي على العراق. صرّح المحقق الأول في الأف بي آي، دايف زادي، بأن تحقيقات الأف بي آي تــناولت معلــومات جُمعت من خلال أجهزة تنصّت،

وأعمـــال مراقبة سرّيّة، وصوراً فوتوغرافية تُظهر قيام فرانكلين بتسليم معلومات سرّيّة لرجال آيباك الذين سلّموها بدورهم للإسرائيليين.

كان التحقيق الذي تناول فرانكلين، وآيباك، والإسرائيليين أكثر مـــن كونه تحقيقاً في قضية تجسس، وقد شمل أيضاً مستقبل العلاقات الأميركـــية - الشرق أوسطية، وبصفة أخصّ ما إذا كان المحافظون الـــصهاينة قـــادرين على حث الولايات المتحدة على مواجهة إيران عـــسكرياً. وبصفته محلّلاً أعلى في البنتاغون للشؤون الإيرانية، كان لفـــرانكلين القـــدرة على ولوج مختلف المداولات التي كان يُجريها الفـــرع التنفيذي حول إيران. وكان الضغط الذي تمارسه آيباك وما تجمعـــه مـــن معلومات موجَّهاً بعدائية في اتجاه الترويج لتبنّي برنامج العمـــل الإسرائيلي القاضي بحدوث مواجهة أميركية - إيرانية والذي يلقـــى معارضة قوية في وزارة الخارجية، والسي آي ايه، والمخابرات العسكرية، والقادة الميدانيين.

تمّ اعـــتقال فرانكلين في 4 أيار/مايو، فيما اعتقل مدير الأبحاث المتعلّقة بالسياسة الخارجية في آيباك، ستيف روزن، في وقت لاحق. كمـــا اعتُقل المتخصص في الشؤون الإيرانية ونائب المدير في شؤون الـــسياسة الخارجـــية، كـــيت ويسمن، في 4 آب/أغسطس 2005. وكانت هذه الاعتقالات ضربة مباشَرة لبرنامج الحرب المُعَدّ للولايات المـــتحدة من قِبَل إسرائيل وآيباك. واستأنفت الأف بي آي تحقيقاتها بحـــذر، مكدّسةً معلومات مخابراتية مفصَّلة جمعتها على مدى سنوات عدة. وفُرضت حالة الحذَر هذه بسبب التأثير السياسي الضخم الذي تمارســـه آيباك وحلفاؤها في مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية علـــى الكونغـــرس، ووسائل الإعلام، وكان بالإمكان توظيف هذا

التأثير لمصلحتهم لدى مثول الجواسيس المتّهَمين أمام القضاء.

وُجّهت الضربة الأولى في 29 آب/أغسطس 2004 عندما كشفت السي بي أس عن التحقيق الذي تُجريه الأف بي آي، وذلك قبل اعتراف فرانكلين بتمرير مستندات بالغة السرّيّة لعضو في الحكومة الإسرائيلية وبدء تعاونه مع عملاء فدراليين، علماً أنه كان مستعدّاً لإرشاد السلطات إلى من هم على صلة به في الحكومة الإسرائيلية. لكن فرانكلين توقّف في وقت لاحق عن التعاون. وطالب والده فوكسمن المنتمي إلى الحلف المناهض لتشويه السمعة (جماعة ضغط يهودية رائدة موالية لإسرائيل) بتعيين مدّعٍ عام خاص للتحقيق في شأن "ما تسرّب" عن تحقيق الأف بي آي لأنهم يلطّخون صورة إسرائيل. وتدخل المدّعي العام آنذاك أشكروفت محاولاً وضع ضوابط للتحقيق، وامتدّ الأمر ليطال مجموعة المحافظين الصهاينة في البنتاغون: فقد استجوبت الأف بي آي فيث، وولفويتز، وبيرل، وروبين. وشن المحافظ الصهيوني مايكل روبين، وهو متخصص سابق في البنتاغون في الشؤون الإيرانية وباحث مقيم في معهد المؤسسة الأميركية، هجوماً عنيفاً على بوش بسبب "تراخيه في الشأن التجسسي" ووصف التحقيق "حملة ضد الخوارج المعادين للساميّة"[1]. وأطلقت آيباك حملة كبيرة ضد التحقيق في

لم يشهد تاريخ الولايات المتحدة قيام عدد مماثل من أعضاء بارزين في الكونغرس منتمين إلى الحزبَين بمنح تأييدهم لمنظمة يُشتبَه بتورّطها في أعمال تجسس، وهو تأييد قائم فقط على معلومات مصدرها المشتبَه به وعلى تجاهل تام للإثباتات التي تقدّم بها المدّعي العام.

(1) فوروورد، 10 أيلول/سبتمبر 2004.

قضية التجسس ودعماً لنشاطاتها وقادتها. وبالنتيجة، ضمنت أعداد قياسـية من أعضاء بارزين في الكونغرس في كلا الحزبَين استقامة آيباك، ومنحوا آيباك ثقتهم وتأييدهم.

لم يـشهد تـاريخ الولايات المتحدة قيام عدد مماثل من أعضاء بـارزين في الكونغرس منتمين إلى الحزبَين بمنح تأييدهم لمنظمة يُشتبَه بـتورّطها في أعمـال تجسس، وهو تأييد قائم فقط على معلومات مـصدرها المشتبَه به وعلى تجاهل تام للإثباتات التي تقدّم بها المدّعي العـام. وبخـلاف قـيام الحزبَين في الكونغرس بدعم آيباك، كشف اسـتطلاع للـرأي تـناول ناخبين محتمَلين عن أن 61 في المئة منهم يعتقدون أنه يُفترَض الطلب من آيباك التسجل كعميل لدولة خارجية وفُقدان وضعها المُعفى من الضرائب، ولم يوافق على هذا الاقتراح 12 في المـئة فقط من المستفتَين. وفي أوساط اليهود الأميركيين، لم يكن 59 في المـئة مـنهم واثقين من الطرح في حين أن 15 في المئة أيّدوه بقوة، ورفضته بقوة نسبة مماثلة(1). من الواضح وجود شكوك جدّيّة لـدى العديـد من الأميركيين حيال ولاء آيباك ونشاطاتها، وذلك بخـلاف آراء ممثّليهم المنتخَبين. واستؤنف التحقيق الفدرالي في قضية التجـسس بالرغم من معارضة الهيئة التنفيذية والكونغرس، علماً أن الغالبية العظمى من المواطنين الأميركيين يؤيّدون إجراء التحقيق.

في كانون الأول/ديسمبر 2004، إستدعت الأف بي آي أربعة مـوظفين إداريين من مراتب عُليا في آيباك للمثول أمام هيئة محلّفين رفيعة المقام، وفتّشت مكتب اللوبي الموالي لإسرائيل في واشنطن سعياً وراء ملفـات إضافية حول روزن وويسمن. واستمرت آيباك بإنكار

(1) زغبي إنترناشونال، 25 أيلول/سبتمبر 2004.

قيامها بأي عمل مُضر، مصرّحةً بالتالي: "لم تنتهك آيباك أو أي فرد من موظفينا أي قانون. إننا واثقون من أن أي محكمة أو هيئة محلّفين رفيعة المقام ستستنتج أن موظفي آيباك عملوا على الدوام وفقاً للقانون وبالشكل المناسب"(1). وبالرغم من ذلك، وبعد أشهر قليلة من بدء التحقيق واعتقال القائدَين الرفيعَين، كان على آيباك إنهاء وضعهما كموظّفَين لديها فتوقفت عن دفع فواتير الدفاع القانوني عنهما. وزالت كذلك إنكارات إسرائيل الصريحة بالتجسس مع ظهور شرائط فيديو وصور لعميل المخابرات لديها وهو يتسلّم مستندات سرّيّة.

ودُعيت هيئة محلّفين رفيعة المقام للانعقاد في أوائل العام 2005. وباتّساع دائرة تحقيق الأف بي آي في قضية التجسس لتشمل العُطل السنوية للكونغرس وآيباك، أعلن رئيسا فرانكلين الذي اعترف بنفسه بالتجسس، وهما بول وولفويتز ودوغلاس فيث، استقالتهما الفجائية من المنصبَين الثاني والثالث في البنتاغون، وقد عكس هذا الأمر على الأرجح صفقةً أُبرمت مع وزارة العدل لإعفائهما من تحقيقات إضافية تتناول صلاتهما بالمخابرات الإسرائيلية وفرانكلين.

في شباط/فبراير 2005، أعلن بوش أن المجرم السابق المُدان، إليوت أبرامز، وهو متحمّس صهيوني منذ مدة طويلة ومدافع عن فرق الموت في أميركا الوسطى، سيتولى مسؤولية سياسة الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي. وخدم أبرامز كقناة للبيت الأبيض تتمّ من خلاله إدارة السياسات الإسرائيلية، وكمصدر يوميّ للقرارات والنقاشات السياسية الأساسية. من الواضح أن أبرامز كان بارعاً بما

(1) آيباك، 1 كانون الأول/ديسمبر 2004.

يكفـــي للــبقاء بعيداً عن عمليات فرانكلين/فيث وآيباك/السفارة، متعاملاً بشكل مباشَر مع أرييل شارون ودوف وينغلاس.

في نيـــسان/إبـــريل 2005، صرفت آيباك روزن وويسمن من الخدمـــة، قائلـــةً إن نـــشاطاهما لا تنسجم ومعايير المنظمة. وفي 4 أيار/مايو، اعتُقل فرانكلين بسبب تُهم بالكشف عن معلومات بالغة الـــسرّيّة، وبـــشكل غـــير قانوني، لموظفَين في جماعة ضغط موالية لإســـرائيل. وفي 13 حزيـــران/يونـــيو 2005، أشارت تُهمة مفصَّلة بوضـــوح إلى آيباك و"بلد أجنبي" (إسرائيل) وعميل موساد تابع لها، هو ناوور غيلون، كان قد فرّ إلى إسرائيل في هذه الأثناء.

بالرغم من ظهور اسم آيباك في التُهمة الرئيسية بالتجسس التي تكـــشف عن تورّط ستيف روزن، رئيس شعبة السياسة الخارجية، وكـــيت ويـــسمن، رئيس مكتب الشؤون الإيرانية في هذه الشعبة، قامـــت وزيـــرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس بإلقاء الخطاب الرئيـــسي في مؤتمر آيباك (22-23 أيار/مايو 2005). وتحدّث أيضاً قادة من الكونغرس والحزبَين الجمهوري والديمقراطي، معلنين دعمهم غـــير المـــشروط لآيباك، وإسرائيل، وأرييل شارون. وشملت لائحة المـــتحدّثين الـــسيناتور هيلاري كلينتون، وزعيم الأغلبية في مجلس الـــشيوخ بـــيل فرســـت (جمهوري)، والزعيم الديمقراطي في مجلس الـــشيوخ هاري ريد. وكان أكثر من نصف أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي وثلث أعضاء الكونغرس حاضرين.

مـــن الواضـــح أن آيـــباك بأعضائها الأثرياء البالغ عددهم 60.000 شخص وميزانيّتها السنوية البالغة 60 مليون دولار كانت تؤثّـــر في السلوك السياسي للهيئة التنفيذية الأميركية، والأحزاب

السياسية، والممثّلين المنتخَبين، أكثر من تُهمة فدرالية تكشف عن تــورّط قادقما بالتجسس لصالح إسرائيل. هل سنشهد يوماً وضع أســس لتوجــيه التُهَم إلى قادتنا السياسيين بصفتهم "شركاء في جــريمة"... التجــسس، إذا تمّت إدانة قادة آيباك؟ أم أن المفهوم الحقيقي لممارسة السيادة بشكل واضح، والذي هو مدار جدل في البلدَين، أمر غير محسوم؟

في 4 آب/أغسطس 2005، وجّه بول ماكناتلي في وزارة العدل اتهامــاً رسمــياً إلى قائــدي آيــباك، ستيفن روزن وكيت ويسمن، باســتلامهما مــستندات بالغــة السرّيّة وتمريرها من خلال السفارة الإســرائيلية إلى دولــة إسرائيل. وعُيّن موعد محاكمتهما بتاريخ 25 نيسان/إبريل 2006، كما عُيِّن موعد بدء محاكمة فرانكلين بتاريخ 2 كانون الثاني/يناير 2006 ولكنه أُرجئ. وتعاون فرانكلين مع الأف بي آي ووزارة العــدل في تحقــيقاتهما حول آيباك و'الداعين إلى رعاية مــصالح إســرائيل أولاً' في البنتاغون في الفترة التي سبقت اجتياح العــراق ووضع خطط إضافية لمهاجمة إيران. وقد وُجّهت التُهَم بعد تحقيق مطوَّل. وكانت آيباك عُرضة للتحقيق منذ العام 2001 في حين أن التُهمة الموجَّهة لروزن وويسمن تشير إلى نشاطات غير قانونية منذ نيسان/إبريل 1999.

بعــد إخضاع روزن وويسمن لتحقيق فدرالي مكثّف كونهما مــتعاونَين بالــتواطؤ في قضية التجسس التي تطال فرانكلين، قرّرت آيــباك وضع حدٍّ لما تتعرّض له من خسائر، فحمت ظهرها برميهما خارجاً: قامت بطردهما في آذار/مارس 2005 بحجة أن "تصرّفهما لم يكــن جزءاً من عملهما، وكان أدنى من المعايير المطلوبة من موظّفي

آيــباك"[1]. في الواقع، كانت آيباك تجعل من روزن وويسمن كبشَي مَحــرقة بهدف التخلص من تحقيق فدرالي معمَّق في نشاطات آيباك. وعــلاوةً علــى ذلــك، توقّفت آيباك عن دفع أجور محامي روزن وويــسمن، ومــن المرجّح أن تبلغ تكاليف الرسوم القانونية للدفاع عــنهما حوالى نصف مليون دولار. ولا تعتزم آيباك تسديد الرسوم قــبل انتهاء المحاكمة - لا لافتقارها إلى الأموال (جمعت حوالى 60 ملــيون دولار عام 2005 مُعفاة من الضرائب) بل لأسباب *سياسية*. فآيــباك تريد مراقبة سير المحاكمة: إذا تمّت تبرئتهما، سيكون من المأمــون دفع أجور محاميهما. ولكن إذا وُجدا مُذنبَين، فإن آيباك ســترفض الدفــع (مستندة إلى النقاط القانونية الواردة في النظام الداخلــي للمــنظمة) بهدف تجنّب تورّطها مع جواسيس مُدانين. يــضع قادة آيباك مصالح منظّمتهم وقدرتهم على الترويج للمصالح الإسرائيلية في الكونغرس ووسائل الإعلام قبل ولائهم لمسؤولَيهما السابقَين.

في مــواجهة حكــم قضائي بتمضية أكثر من 10 سنوات في الــسجن الفدرالي بسبب تُهَم فدرالية مفصَّلة وموثّقة جيداً ومرتكزة على معلومات جُمعت من خلال التنصت، وشرائط فيديو، وشهادة فــرانكلين الــذي هــو على صلة بالبنتاغون والذي اعترف بنفسه بالتجسس وقام زملاؤه وقادته الحاليون في آيباك بطرده والتنديد به، يدافع روزن وويسمن عن نفسيهما بحماسة غير متوقّعة. ومن المتوقّع قيام المحامين بإقناع المحكمة بأن تلقّي معلومات من مسؤولين إداريين كان عملاً *يتقاضى الإثنان أجرهما عنه ويُشجّعان للقيام به، وهو أمر*

(1) فورووورد، 23 كانون الأول/ديسمبر 2005.

تقوم به آيباك بشكل روتيني[1]. بكلمات أخرى، سيقول روزن وويسمن إن انتزاع معلومات سرّيّة من مسؤولين حكوميين أميركيين وتسليمها لمسؤولين إسرائيليين كان ممارسة شائعة بين العاملين لدى آيباك. ولدعم قضيّتهما بالحجة القائلة إنهما "كانا يتّبعان أوامر آيباك ليس إلاّ"، سيقوم محامو الدفاع عن روزن وويسمن باستدعاء مسؤولين من آيباك للإدلاء بشهاداتهم في المحكمة حول ولوجهم السابق لمستندات سرّيّة، واتصالاتهم بمسؤولين ذوي مناصب رفيعة، وتعاونهم مع مسؤولين في السفارة الإسرائيلية. ومن شأن هذه الشهادة على الأرجح الكشف عن دور آيباك، على الصعيدَين الوطني والعالمي، في نقل معلومات من إسرائيل وإليها. وإذا نجح روزن وويسمن في ربط آيباك بنشاطاتهما وأُدينا، سيؤدّي هذا الأمر إلى فتح تحقيق فدرالي على نطاق أوسع يتناول دور آيباك في دعم السلوك الإجرامي لصالح دولة إسرائيل، والتحريض على اتّباعه.

في العامَين اللذَين تليا اكتساب روزن وويسمن شهرة شعبية كونهما مشتبهاً بهما في عملية تجسس، نجحت آيباك في اتّقاء خطر الدعاية المعادية من خلال حشد سياسيين بارزين، وقادة أحزاب، وأعضاء مرموقين في إدارة بوش، للإدلاء بشهادات علنيّة لصالحها. وقد نجحت في الحدّ من مخاطر روزن وويسمن وحثّت على اتخاذ جانب الكونغرس الأميركي في ما يتعلّق ببرنامج عمل إسرائيل المؤيّد للحرب ضد إيران. ومن ثمّ، قام روزن وويسمن، وبشكل غير متوقّع، بالتهديد بكشف النقاب عن "جماعة ضغط مؤثّرة أخرى" تعمل للترويج لمصالح أمنية أميركية وإسرائيلية متبادلة.

(1) فوروورد، 23 كانون الأول/ديسمبر 2005.

من المؤكّد أن دفاع روزن وويسمن عن نفسَيهما سيُظهر واقع أن آيباك لم تُعلم موظّفيها أبداً بما ينصّ عليه القانون في ما يتعلق بالحصول على معلومات بالغة السرّيّة وتسليمها لدولة خارجية. سيجادل ويسمن وروزن قائلَين إنهما لم يكونا على عِلم بأن استلام معلومات سرّيّة من مسؤولين في الإدارة وتسليمها لإسرائيل هو عمل غير قانوني بما أن الجميع كانوا يقومون بذلك. وسيتطرّقان كذلك إلى نشاطهما التجسسي المزعوم مدّعيَين أنه لم يكن عملاً فرديّاً قاما به بمعزل عن عِلم المنظّمة، بل عرف به رؤساؤهما ووافقا عليه، ذاكرَين الإجراءات التي يتّبعها موظّفو آيباك بإبلاغ المسؤولين عنهم. ومن شأن هذا الأمر رفع دور آيباك الثانوي في هذه القضية من مساعدة ومحرّضة على نقل المعلومات، إلى دور رئيسي لعبته في الحثّ والتحريض على التجسس غير القانوني على حكومة الولايات المتحدة.

يتّخذ روزن وويسمن مكانة توراتية. فوفقاً لموظف سابق في آيباك على صلة بالقيادة الحالية للمنظمة، يُعتبَر روزن وويسمن وكأنهما يتصرفان "كشمشون الذي يحاول هدم المنزل على الجميع"[1]، على كل من هو متورّط في استغلال الثروة والسلطة والقوات المسلّحة الأميريكية لخدمة المصالح التوسعية لإسرائيل. وما بدا أنها فضيحة صغيرة ناجمة عن محاكمة بتهمة التجسس، ولا تختلف عن قضايا أخرى تنتظر حكم القضاء، ها هي تغدو *قضية رئيسية مثيرة للاهتمام* إذ تُورّط اللوبي الأكثر نفوذاً وتأثيراً في توجيه السياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط برمّتها.

---

(1) فوروورد، 23 كانون الأول/ديسمبر 2005.

إذا أُديـــن روزن وويـــسمن وأثبتا بما لا يقبل الشك أنهما كانا يتّبعان الأوامر ويزوّدان آيباك بالمعلومات حول نشاطاتهما الإجرامية، فقـــد يجرف هذا الأمر العديد من المانحين اليهود الأثرياء والناشطين، ويُلحق العار ربما بالسياسيين الذين يبالغون في الخضوع ويقتاتون من معلَف آيباك. متى ضعُفت آيباك وحلفاؤها المحافظون الجدد/المحافظون الـــصهاينة في الحكومة التي تُبدي حذَراً من استمرار اتصالاتها المتبادَلة بالمخابـــرات الإســـرائيلية في ما يتعلق بالسياسة الشرق أوسطية، من المحتمَل حدوث نقاش حرّ ومفتوح حول المصالح الأميركية. وبنقاش علـــني غـــير خاضع نسبياً للقيود المفروضة من قِبَل جماعات الضغط والإيديولوجـــيين الـــذين يسعون إلى تأمين مصالح إسرائيل أولاً، قد تغـــدو معارضة الشعب الأميركي للحروب والاحتلالات الجارية في الـــشرق الأوسط حديثاً مهيمناً في الكونغرس إن لم يكن في أوساط الهيـــئة التنفـــيذية. وربما أُعيد توزيع مبلغ الثلاثة مليارات دولار التي تـــضاف سنوياً إلى المعونة الخارجية المقدَّمة لإسرائيل ليسهم في إعادة بـــناء كـــل المدن والبلدات التي أتلفتها المصانع في ميشيغن، وشمالي نيويورك، وأماكن أخرى.

لـــن يحـــدث الانتقال من حالة الاعتماد على القوة العسكرية في الشرق الأوسط إلى حالة الاعتماد على سياسة خارجية ديمقراطية بسبب محاكمة تتناول التجسس، ومهما كان الحكم الصادر صارماً، وأيّاً يكن مـــدى عمـــق تورّط آيباك في الأمر، ما لم يتمّ تنظيم الشعب الأميركي لـــيغدو غالبية ديمقراطية قادرة على مواجهة قادة الأحزاب والكونغرس والقادة التنفيذيين بالخيار التالي: *إما أن تكونوا لأميركا أو لآيباك*.

الفصل السادس

منـــزل الرعب

تعذيب، اغتيالات وإبادة جماعية

عندما يكتب المؤرّخون في المستقبل عن الإمبراطورية الأميركية، سيـــشدّدون علـــى عملية بناء الإمبراطورية، والطرق المتّبَعة لممارسة الحكم، والإيديولوجيين الأساسيين، وكيف أن دولة صغيرة ومستقلة - إســـرائيل - كانت قادرة في وقت من الأوقات على تحديد شكل سياسة الحرب الأميركية بما يتلاءم ومتطلّباتها.

بناء الإمبراطورية

كـــان العنف العسكري المباشَر ومن خلال الوكلاء أمراً حاسماً لتوسّـــع الإمبراطورية وتدعيمها في أميركا الجنوبية والوسطى ومنطقة الكاريبـــــي؛ فـــبين عامَي 1964 و1990، إستولت أنظمة عسكرية وكـــيلة وقـــوى شبه عسكرية على الحكم في الأرجنتين، والبرازيل، والبيرو، والتشيلي، والأوروغواي، وبوليفيا، وجمهورية الدومينيكان؛ وفي وقـــت لاحـــق في غواتـــيمالا، والـــسلفادور، والهـــندوراس، ونيكاراغوا، وباناما بدعم أميركي. وقُتل أكثر من 500.000 شخص بهـــدف فرض نظام التراكم المتمحور حول الإمبريالية (دُعي لاحقاً الليـــبرالية الجديـــدة). وأرست الاستراتيجية الإمبريالية في الاجتياح

والـتدخل أسس الاندماج على المدى البعيد: نظام اقتصادي مفتوح على التغلغل والسيطرة الإمبريالية "اقتصاديات السوق الحرّة" وأجهزة حكومـية (جهاز قضائي، جهاز عسكري، البنك المركزي... إلخ) قادرة على تجذّر وتعزيز الاقتصاد الذي يتّخذ من الإمبريالية محوراً له. وفي مـا بعـد، وافق السياسيون المنتخَبون والمدجَّنون على الأسس الإمـبريالية، وقامت واشنطن بتشجيع التنافس السياسي. وفي حالة المكسيك، ضمنت ممارسة الغش في الاقتراع انتخاب الرئيس ساليناس عـام 1988 الذي باشر بدمج المكسيك بالإمبراطورية الأميركية من خلال نافتا NAFTA.

اتُّبع مسار مماثل في أفريقيا. فمنذ العام 1970 وحتى التسعينيات، أدّى التدخل العسكري الأميركي الكبير ودعم مرتزَقة يعاونهم الحليف الاسـتراتيجي للـولايات المتحدة، المتمثّل بجنوب أفريقيا، إلى مقتل الملايـين في أنغـولا، والموزامبيق، وغينيا بيساو، والكونغو، فدُمّرت الأسـس الاقتصادية والسياسية للتطوير، وقامت أنظمة عميلة. لقد دُمجـت هذه البلدان الغنيّة بالمعادن والنفط بالإمبراطورية. وفي حالة جنوب أفريقيا، أُجبر المؤتمر الوطني الأفريقي على الطاعة، وتمّ اختيار أعـضاء جـدد، وبـات جزءاً لا يتجزّأ من النظام الأورو-أميركي الإمـبريالي، واتُّـبعت مسارات مماثلة في آسيا حيث تلت الحروبَ الإمبريالية انفتاحات اقتصادية شكّلت امتداداً للهيمنة الإمبريالية عبر المـنطقة... بـتكلفة تخطّت 11 مليون قتيل كوري، وهندي صيني، وفيليبيني، وإندونيسي، وتيموري.

بـين التـسعينيات مـن القرن الماضي وحتى اليوم، توسّعت الإمـبراطورية الأميركية إلى داخل البلقان، وأوروبا الشرقية، ودول

البلطــيق، وآســيا الوسطى، والقوقاز، من خلال تدخل إيديولوجي عدائــي وبمساعدة الفساد المتفشّي في الأحزاب الشيوعية المهيمنة في تلك البلدان. لقد كان الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا والبلقان المــناطق التالــية المستهدَفة لأنها أساسية إلى حدٍّ ما لاستثمار الموارد النفطــية، وبــناء خطوط الأنابيب والقواعد العسكرية. وتمّ اجتياح يوغوسلافيا، وأفغانستان، والعراق، وقامت أنظمة تابعة في كوسوفو، ومقدونيا، وصربيا. وفي الوقت الحاضر، يقوم نظام هو دمية في أيدي الــولايات المــتحدة بممارسة الحكم في كابول بالتحالف مع زعماء ميليــشيات مرتــزقة تموّلهم زراعة الأفيون والاتّجار بها. كما تعرض العــراق للإجتياح، واحتُلّ، وحكمه في بادئ الأمر حاكم أميركي. هكــذا، بُنــيت الإمبراطورية الأميركية على الحروب التي خاضتها القوات العسكرية الأميركية، والمرتزقة، والقوات شبه عسكرية.

تدعيم الإمبريالية

للتأكــيد على القوة والنفوذ في وجه المقاومة الشعبية المناهضة للإمــبريالية، قامــت الدولــة الأميركية تكراراً بانتهاك كل المواثيق والقوانين الدولية المتعلّقة بتعذيب السجناء، وعمليات القتل الجماعي للمدنــيين، وتــدمير الــبنى التحتية والمواقع التاريخية، ونهب الموارد الطبيعية، وإقامة دول استعمارية تابعة واقتصاديات محورها الإمبريالية.

إن الغزو الأميركي للعراق هو المثال الأخير لبناء الإمبراطورية، ولكــن وفقــاً لخصوصيات البلد. وتتمثّل الميزة الأكثر بروزاً للغزو الإمبريالي للعراق بالكشف علانيّةً، وعلى نطاق واسع، عن الأساليب الوحــشية للحكم الإمبريالي. وكلّنا قرأنا ورأينا صوراً عن التعذيب

المنهجي الذي تعرّض له آلاف المواطنين العراقيين والمشتبَه بأنهم مقاتلون في سبيل الحرّيّة. وكان التعذيب المصدر الأساسي للمعلومات بهدف دعم سلطة الإحتلال، كما كان تقنيّة للقمع. وقد انعكست الخبرة الإسرائيلية إلى حدٍّ كبير على نموذج الحكم من خلال ممارسة التعذيب الجماعي والعنف الجنسي، وقد سُجن حوالى نصف عدد البالغين الذكور من الشعب الفلسطيني وكانوا عُرضة لتعذيب إسرائيلي *جُعل قانونياً*. وهذا الأمر ليس مصادفة عرَضية؛ فالأكاديميون الصهاينة الأرفع مقاماً وصانعو السياسة في الولايات المتحدة هم من بين الإيديولوجيين الرئيسيين الذين يدافعون عن التعذيب: البروفسور في مادة القانون في جامعة هارفرد ألان درشوفيتز، البروفسور برنارد لويس من جامعة برينستون، وليام كريستول، البروفسور روبرت كاغان من جامعة يال، البروفسور إليوت كوهين من جامعة جون هوبكينز، وغيرهم العديد من الإيديولوجيين التوتاليتاريين الصهاينة الذين يدافعون عن الترهيب الإسرائيلي والقوة الإمبريالية الأميركية.

لقد كان التعذيب المنهجي الجماعي في العراق المظهر الأول، وليس الأكثر أهمية، للحكم الإمبريالي المتمثّل بعدم قيام حكام الإمبراطورية بالاعتراف بأي قيود قانونية سواءً كانت محلية أو دولية. وفي البنتاغون، أصدر القادة الأعلى مرتبة وهم رامسفيلد، ووولفويتز، وفيث، أمراً باستخدام التعذيب في حين أصرّت وزارتا العدل والدفاع على الحق الممنوح للرئيس بتجاوز أي قوانين - الدولية أو الوطنية إضافةً إلى الدستور الأميركي - في معرض دفاعه عن الإمبراطورية. بكلمات أخرى، اعتُبر التعذيب سُلطة رئاسية خاصة

تتخطّــى أي قــيود تــشريعية أو قانونية. وتمّ الدفاع عن السلطات الدكــتاتورية للــرئيس، الشرعيّ منها وتلك القائمة فعلاً، واعتُبرت ضرورية لإنشاء 'الأمن الإمبريالي'.

اغتيالات هادفة

من مظاهر ممارسة التعذيب قيام الإمبراطورية الأميركية بمهامها مــن خــلال شبكة من القتَلة تتمتّع بمستوى عالٍ من التنظيم وتنفّذ أعمال قتل، وخطف، وتعذيب في مختلف أنحاء العالم في حق "مشتبَه بهــم" ومتعاطفين مع حركات المقاومة. ويعمل هذا 'القتل القانوني' تحــت اسم برنامج الوكالة الخاصة 'ساب' (SAP) وهو مؤلّف من قــوات خاصة تتمتّع بمستوى عالٍ من التدريب (الجيش)، وقوة سيلز SEALS (الأســطول البحــري)، وقوة DELTA. وتنتهك ساب ســيادة كل بلد في العالم، وتتّبع سلوكاً إجرامياً يؤدّي إلى ارتكاب جرائم عقوبتها الموت وتشمل قتل *إرهابيين* مشتبَه بهم أو متعاطفين، وكــثيراً ما يحدث الأمر بطريقة اعتباطية دون صدور حكم قضائي. وتعــتمد هــذه الوكالة نموذج الموساد في اغتيال المشتبَه بهم بشكل انتقائي. وبتوسّع الإمبراطورية وازدياد حدة المقاومة المناهضة للإمبريالية في العــالم، تعمــل ســاب كفرقة موت دولية تابعة لشبكة الترهيب الإمــبريالية الأميركية. وتحدث الاغتيالات الإسرائيلية المرخّص بها على امــتداد العالم، وهي مدعومة علناً من الدولة اليهودية: وهي تختلف في هذا الإطار عن برنامج الاغتيال السرّي الأميركي (Phoenix program) الذي اتُّبع في فيتنام، وعن فِرَق الموت الشبه عسكرية التي نشطت في أميركا اللاتينية بدعم من البنتاغون.

وكما كشفت الصحيفة الإسرائيلية *هاآرتس*، رافقت سياسة الاغتيالات التي يتّبعها الإسرائيليون ولادة الدولة الإسرائيلية.

> في 27 كانون الأول/ديسمبر من العام 1947، وبعد حوالى الشهر من قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بقيام دولتَين، إحداهما يهودية والأخرى عربية، وقبل تحوّل الاشتباكات الدموية بين الأمتَين إلى حرب - حرب استقلال إسرائيل - أصدرت الهاغانا (الجيش القائم قبل إنشاء الدولة) أمراً لما دُعي فرقة زَرزير للعمليات (Operation Zarzir) (تقوم بأعمال ترويعية). وهكذا، يمكن للمرء تلمّس المخطط العملاني والشامل الأول لما سيُدعى بعد عدة عقود *اغتيالات هادفة*[1].

الاغتيالات التي قامت بها فرقة زَرزير للعمليات كانت جزءاً من حملة عنف وطنيّة ضد الشعب الفلسطيني؛ عنف شرعت به إسرائيل دون تحريض من أي أعمال فلسطينية. وكما قالت *هاآرتس*:

> بالرغم من وجود الاغتيالات التي تستهدف القتَلة الفلسطينيين منذ بدء النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني، كانت فرقة زَرزير للعمليات استثنائية. وللمرة الأولى، تمّ التخطيط لبرنامج على امتداد الوطن للقيام باغتيالات، ووُضعت له قوانين عملانية. ولذلك، فإن الاغتيالات الهادفة لم تأتِ نتيجة للانتفاضتَين أو للهجمات الانتحارية، كما نميل إلى الاعتقاد...[2]

---

(1) زئيف شيف، "حول أصول الاغتيالات الهادفة"، هاآرتس، 6 حزيران/يونيو 2006.

(2) المرجع نفسه.

لم تأتِ الاغتيالات الهادفة نتيجةً للانتفاضتَين أو للهجمات الانتحارية، كما نميل إلى الاعتقاد.

وكـــان العنف سرّيّاً ومخادعاً إذ كان المعنيّون يسعون إلى تحميل العرب مسؤولية هذا العنف.

> ...أكّدت الأوامر على الحاجة إلى التــصرف بحذَر كي لا يُثار رد فعل عربي شديد. وإضافةً إلــى ذلــك، كانــت هناك توجيهات بعدم تنفيذ الاغتيالات بالقرب من *المستوطنات اليهودية الضعيفة*. ... كانت هناك أيضاً نصيحة صادرة عن مقرّات القيادة بوجوب العمل على أن تــبدو العملية عملاً *عربياً*؛ بكلمات أخرى، وكأن عربياً قام بقتل عربي...

وكان العنف موجَّهاً ضد شريحة واسعة من القيادة الفلسطينية:

> ... تضمّ القائمة الأصلية للمرشّحين للتعرّض للاغتيال 23 قائــداً عربياً وضباط ذوي مراتب عُليا في كل أنحاء البلد. وكانــت المجمــوعة الأكبــر فــي منطقة القدس؛ وكانت المجموعة الثانية من حيث الحجم في يافا. كان العديد منهم، مــثل إمــيل غــوري، قــادة سياسيين. وكان آخرون قادة عسكريين بارزين...[1]

فيما كانت الهاغانا تستهلّ العنف، كانت فرقة زَرزير للعمليات تواصـــله من خلال ما تدعوه *هاآرتس* حرب الاستقلال الإسرائيلية الـــتي انتهت بعد شنّ الحملة على سيناء عام 1956 وحيث استُخدم العـــنف ضـــد رجال المخابرات المصريين الذين يقومون بنشر رجال الكـــوماندوس الفلسطينيين. ولكن هذه الفرقة لم تكن على مقياس

(1) المرجع نفسه.

الـــسياسة الإســـرائيلية الحالية للاغتيالات الهادفة، وفي هذا الموضوع يقول شيف مستغرقاً في التفكير:

> كانـــت وسائل الاغتيال بدائية. ولم يكن رجال الكوماندوس يحلمـــون حتـــى بإطلاق صواريخ أو استخدام حوّامات أو وسائل نقل جويّة تعمل بدون طاقم[1].

مـــن الواضح أن الاغتيالات الهادفة كانت سياسة إسرائيلية منذ استهلالها، ولم تنته مع مرور الوقت، بل وجدت إسرائيل تكنولوجيا أفـــضل لتنفـــيذها. وهكذا، باتت إسرائيل الأداة التي أوجدت ربع اللاجـــئين في العـــالم[2]، ويُحتمَل ارتفاع تلك النسبة المئوية بسبب هجماتها الحالية على المدنيين والبنية التحتية في لبنان.

تدمير البنية التحتية المدنية والعسكرية

وفقـــاً لمعهد القيادة العالمية التابعة للأمم المتحدة، فإن 84% من المؤسسات العراقية للتعليم العالي أُحرقت، ونُهبت أو دُمّرت[3]. فتدمير الوجود التاريخي للعراق كدولة ذات سيادة - نهب متاحفها الآثارية ومـــواقعها التاريخية، والمكتبات والمحفوظات، واقتحام أماكن العبادة

(1) المرجع نفسه.

(2) عمـــاد مكاي، "أزمة العراق تزيد ارتفاع عدد اللاجئين في أنحاء العالم إلى 12 مليـــون: نظرة شاملة"، وكالة فرانس برس، 15 حزيران/يونيو 2006. ووفقاً للّجـــنة الأميركية للمهاجرين واللاجئين (USCRI) "هناك ثلاثة ملايين لاجئ فلسطيني تقريباً حتى العام 2005" في حين أن اللجنة قدّرت عدد اللاجئين في مختلف أنحاء العالم بـــ 12 مليون شخص حتى العام 2005.

(3) ســـاندي إنغليش، "مئات الأكاديميين العراقيين والمهنيين اغتالتهم فِرَق الموت"، موقع World socialist على الوِب، 6 آذار/مارس 2006.

عــن طــريق العنف، وإذلال الشعب من خلال التعذيب والعقاب الجماعــي والعنف الجنسي – هي أعمال مُعَدّة لتدمير الهوية التاريخية للــبلد كونه أمّة عربية. لقد تُمّمت الهجمات التي تعرّضت لها البنية التحتية الماديّة والمؤسساتية في ما بعد بهجمات تستهدف قدرة العراق على إعادة هيكلة ما تمّ تفكيكه:

> قال محمد: "بدأت عمليات اغتيال العلماء العراقيين بعد وقت قــصير من اجتياح العراق بقيادة الولايات المتحدة [المحلل السياسي العراقي هارون المقيم في لندن]، واعتُقد في البداية أن المــستهدَفين علماء يعملون في البرنامج السابق لأسلحة الدمار الشامل في العراق.
>
> لكن الاغتيالات أزهقت أرواح العديد من الخبراء في حقول لا علاقــة لهــا بالأسلحة والعلوم العسكرية، كاللغة العربية والــتاريخ... "وكما هي الحال بالنسبة إلى العلماء، فإنه من الواضح أن العديد من القوى الخارجية مهتمّة بإفراغ العراق من أناسه الأكفّاء".
>
> فقد أعلن وزير التعليم العالي أن 146 أستاذاً جامعياً اغتيلوا في السنتَين الماضيتَين[1].

لقد أشار ديريك يانسن من برترن راسيل تريبيونال في كلمة في ندوة دولية أُقيمت في مدريد بتاريخ 22–23 آذار/مارس 2006 حول موضــوع الأكاديميين العراقيين الذين تمّ اغتيالهم، إلى أن الاغتيالات الهادفــة طالــت غير الأكاديميين: كان هناك "311 مدرّساً قُتلوا في

(1) أحمــد جنَبي، "كل شخص مستهدَف في العراق اليوم"، موقع الجزيرة أونلاين على الإنترنت، 14 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

الأشـــهر الأربعـــة الماضية، وقُتل 182 قبطاناً و416 ضابطاً من ذوي الـــرتب العلـــيا في الأشهر الثلاثة الأولى من العام 2006؛ وخُطف 20.000 شـــخص منذ بداية العام 2006"[1]. وبخلاف الادّعاء القائل إن عمليات الخطف هذه قامت بها عصابات إجرامية، قال يانسن:

> مـــا نشهده هو نتيجة لحملة أميركية مخطّط لها بعناية بهدف تصفية كل عراقي يعارض احتلال بلده، وتُدعى هذه الحالة *خـــيار الـــسلفادور*. في الواقع، قامت الولايات المتحدة منذ العام 1945 بتطوير سياسات مضادة للتمرّد بالارتكاز على نموذج القمع النازي الذي طُبّق على المتمرّدين المناصرين والـــذي يركّـــز علـــى وضع المدنيين تحت مراقبة مشدّدة واعتماد الترهيب لجعل الناس يخافون القيام بدعم المتمرّدين أو التعاون معهم.

ناقش جون بيلغر خيار السلفادور بطريقة مماثلة في عمود ظهر في *ذا نـــيو ستايتـــسمن* بتاريخ 8 أيار/مايو 2006[2]. وكما جاء في موقع World Socialist:

> هو جزء من برنامج للتدمير الثقافي مصدره واشنطن. تـــضاعف ظهـــور فرَق الموت في العراق بعد تعيين جون نيغروبونتـــي ســـفيراً أميركياً في العراق في حزيران/يونيو 2004. كان نيغروبونتي سفيراً أميركياً إلى الهندوراس في

---

(1) انظر إلى http://www.uruknet.info/?=22885. ولمتابعة هذا الموضوع، انظر إلى موقع بروسيلز تريبيونال على الوب http://www.brusselstribunal.org

(2) "جون بيلغر يستبين خيار السلفادور، ذا نيو ستايتسمن، 8 أيار/مايو 2006، http://www.newstatesman.com/200605080016

أوج تطبيق السياسة المضادة للتمرّد في أميركا الوسطى في الثمانينـــيات من القرن الماضي وبرعاية أميركية. إنه يتمتّع بالخبـــرة فـــي مـــيدان التخطـــيط لعمليات قتل خارج إطار القضاء، وإدارتها، وذلك تطبيقاً لما يُدعى خيار السلفادور.

بصورة مماثلة، فإن مناصري *الحروب الأميركية القذرة* في أميركا اللاتينية – جايمس ستيل الذي أشرف على العمليات المـــضادة للتمرّد في السلفادور في أوج عمليات القتل هناك قـــبل 20 عامـــاً، وستيف كستيلز الذي شارك في العمليات المناهـــضة لحـــرب العـــصابات والمخدرات في كولومبيا والبيـــرو وأمـــاكن أخرى – استُقدموا إلى العراق للإشراف على عمليات وزارة الداخلية العراقية.

ومع ذلك، لا يكمن الهدف ببساطة في إسكات منتقدي النظام الدمـــية. فـــسياسة الاغتـــيال هـــي محاولـــة لجعل الشعب ســـهل الانقـــياد... ويجـــب شرح قتل المؤرّخين، وعلماء الجيولوجـــيا، والكتّاب بأنه محاولة لتدمير الازدهار الفكري في العراق.

"ويتسبب فقدان الأكاديميين بانخفاض مستوى التعليم العالي"، وفقاً لموقع *IRINnews.org* التابع للأمم المتحدة. قال عباس محمد، وهو طالب في علم الأدوية في جامعة بغداد "'يغادر أفـــضل المدرّســـين الـــبلد ونحن نخسر أفضل المحترفين، والخاسرون الحقيقيون هم الجيل القادم من الطلاب؛ مستقبل العراق".

كان أهل الفكر في البلد قد استُنـــزفوا في الفترة الممتدة بين عامَـــي 1990 و2003 عـــندما غادر حوالى 30 في المئة منهم البلد لأسباب اقتصادية.

يتمــثّل الهدف الآن، سواءً شجّعته إدارة بوش أو سمحت به وعملــت أدواتهــا فــي العراق على بلوغه، بتدمير الوعي التاريخــي للــشعب العراقي، كونهُ وسيلة لإخضاعهم أكثر فأكثر للإمبريالية الأميركية ومؤيّديها العراقيين[1].

إن قــيام بول بريمر بحل القوات العسكرية العراقية، وهو إجراء اعتُــبر علــى نطاق واسع خطأً لدى حدوثه، أُتبِع بمساعٍ غير فعّالة وفاتــرة لإعادة تشكيله، فمُنحت مرتَّبات زهيدة، وأوقفت المعالجة الطبية، وتوقّفت عملية توفير الملابس الملائمة. وأجرت وكالة حقوق الإنــسان الرئيسية في أميركا مقابلات مع هاربين عراقيين، وأوردت بتاريخ 4 نيسان/إبريل 2003 أن:

> كــل الفارّين الذين أجرت هيومن رايتس واتش مقابلات معهم كانــوا جــنوداً نظاميين من الرجال تتراوح أعمارهم بين 20 و38 عامــاً. كانوا يبدون نحيلي البنية، ويعاني العديد منهم من اعــتلالات جِلديّة بسبب الظروف السائدة في أرض المعركة. تحدثــوا عــن أجور منخفضة (حوالى دولارَين أميركيَّين في الشهر) أو مرور عدة أشهر دون الحصول على أي أجر.
>
> قــال جــندي مــن بغداد في الحادية والعشرين من عمره، وكانــت وحدتــه جزءاً من الفيلق الخامس. "كنا نعاني في بعض الأيام من جوع كبير لدرجة أننا كنا نأكل العشب الذي نمــزجه مــع قلــيل من الماء، لم نغتسل منذ أربعين يوماً، وغالباً ما كنا نفتقر إلى مياه الشرب، فيعطوننا صفائح لنقل البنــزين ويطلــبون منا الذهاب لملئها من أحواض المياه

(1) انظر إلى إنغليش، سوبرا، الهامش 5.

التي تتشكل على الأرض لدى هطول المطر".

وصــف بعــض الجنود العراقيين العقوبات اللاإنسانية التي تــشمل التعــرّض للضرب أو الزحف على الصخور على رُكبهم أو ظهورهم العارية. وكشف أحدهم عن الندبات التي خلّفها العقاب على ظهره. وكثيراً ما كان ضباطهم يُنذرونهم بالتعــرّض للإعــدام إن هم حاولوا الفرار. وقال العديد من الفــارّين إن ضباطهم أجبروهم على ملازمة مواقعهم أثناء الغارات الجويّة، طالبين منهم "الموت كالرجال"[1].

تــتعدّد الروايات التي تتناول فضيحة الفساد وإعادة بناء العراق غــير الفعّالــة. فقد أُنفقت مليارات الدولارات، وفازت مؤسسات أميركــية، ولا سيّما هاليبرتن، بعقود ضخمة دون استدراج العروض وطــرحها على المناقصة، ولكنها انتهت إلى القيام بالعمل بشكل غير كــاف، هذا إذا قامت به. في حين تُحوَّل الأنظار في معظم الأحيان عن إخفاقات مماثلة بسبب المصاعب الناجمة عن تصاعد حدة التمرّد أو إهمال معالجة أمر استمرار حالة عدم الكفاءة هذه دون إجراء أي تحقــيق أو توجيه أي تأنيب، تُستَكمل عملية بناء السفارة الأميركية الضخمة في المنطقة الخضراء دون أي عقبات[2].

في أوائل العام 2006، أعربت الإدارة عن عزمها إيقاف المعونة المخصَّــصة لإعــادة بناء العراق، علماً أن نصف المبلغ تقريباً الذي خصّصته لجهود إعادة الإعمار والبالغ 18.4 مليار دولار "أُنفق على

(1) "العــــراق: جـــنود يـــصفون ســـوء معاملـــة قـــادهم" .http://hrw.org/english/docs/2003/04/04/iraq5486.htm

(2) انظـــر إلى مايكـــل شـــوارتز "كيفـــية قـــيام إدارة بوش بعدم بناء العراق" .TomDispatch.com

حالة التمرّد، وبناء نظام قضائي جنائي في العراق، والتحقيق في قضية صدام حسين ومحاكمته"[1].

في هذه الأثناء، أوردت *لوس أنجلوس تايمز* أن المخصّصات المالية الأخيرة الطارئة لحرب العراق تضمّنت 348 مليون دولار لتحسين وتوسيع القواعد العسكرية الأربع في العراق، وهي أساسية للأهداف الأميركية الاستراتيجية - بلد وتاجي في شمالي بغداد؛ طليل بالقرب من الناصرية في الجنوب؛ والأسد في الصحراء الغربية.

من الواضح أن مستوى الدمار يتطلّب بحثاً شاملاً يتناول الأهداف المقصودة من هذا الدمار. فالغاية هي زرع الشقاق للإمساك بزمام الحكم، وإنشاء دول صغيرة قائمة على ركائز قبليّة ودينية واثنية تعزل الموارد النفطية عن أي قاعدة شعبية أساسية. واقتُرحت في الأساس فكرة تقسيم العراق إلى دوَيلات من قِبَل لسلي غيلب الوفي للصهيونية، وهو محرر سابق *للنيويورك تايمز*، ومدير مجلس العلاقات الخارجية في الوقت الحاضر. وتقوم هذه الفكرة على السابقة البريطانية في إنشاء دول الخليج وعلى الاستراتيجية الأوروبية-الأميركية لتدمير يوغوسلافيا في أوائل التسعينيات.

يحاكي النموذج المتّبع للتعاطي مع السكان المحليين السياسة الإسرائيلية حيال الفلسطينيين. فممارسة إسرائيل الإذلال الجنسي في حق الفلسطينيين كانت أمراً روتينياً (عمليات اغتصاب، تعرية السجناء، وتغطية رؤوسهم). ويتمّ التغاضي قانونياً عن العقاب الجماعي واتخاذ أفراد العائلات رهائن، وهذه أمور تمارَس في إسرائيل

(1) إيلين نيكمير، "الولايات المتحدة توقف إعادة بناء العراق في المدى المنظور"، واشنطن بوست، 2 كانون الثاني/يناير 2006.

علـــى نطـــاق واســـع بالرغم من تحريم القانون الدولي لها. ويظهر الإجتـــياحان الأخـــيران لمخيّم رفح/جنين للاّجئين أقصى درجات الوحشية الاستعمارية واللاإنسانية التي يتعرّض لها السكان العاجزون الذين أوقعوا في الشرَك.

يُنكر الإسرائيليون على الفلسطينيين ماضيهم كأمّة، وأرضهم كمكـــان للعـــيش فيه، وحقهم بحكم أنفسهم. وهذا ما يقوم به الحكام الأميركيون الإمبرياليون في العراق. فهم يعملون باستمرار علـــى إضـــفاء الطابع الإثني على الصراع، ويُنكرون وجود الأمّة والشعب العراقي وتاريخه: فعلى غرار إسرائيل، إستولت الولايات المتحدة على الأرض والموارد، وبنت حصوناً وجدران فصل. هذا، وشاركت مجموعة من البحّاثة الصهاينة المتطرّفين في التنكّر بشكل توتاليـــتاري للـــثقافة العربية بقيادة برنارد لويس الخبيث[1]. وبرّر مـــارتن وولف من *الفاينتشل تايمز* مؤخّراً الحروب الإمبريالية عبر العـــالم، رافضاً السيادة الوطنية ومدافعاً عن الاستيلاء الأوروبي-الأميركي والإسرائيلي على "الدول الفاشلة"[2].

خاتمة

يـــبدو أننا نحن المقيمون في الولايات المتحدة قد قبلنا العيش في منـــزل الرعب؛ حيث بناء الإمبراطورية من خلال عمليات التعذيب والاغتيال هي سياسة تنفيذية، وحيث تكشف وسائل الإعلام النقاب

(1) انظـــر إلى برنارد لويس، من بابل إلى المترجمين: تفسير الشرق الأوسط، مطبعة جامعة أكسفورد، 2004.

(2) فاينتشل تايمز، 9 حزيران/يونيو 2004، الصفحة 5.

عـــن التعذيب الذي يوافق عليه البيت الأبيض، ويستمر، مع ذلك، بكـــونه ممارسة تقوم بها الدولة. ويعتمد المروّجون لمنـــزل الرعب في وســـائل الإعـــلام على ذاكرتنا الضعيفة: هم يمتدحون رونالد ريغن الذي امتازت ولايته الرئاسية السيّئة السمعة بالإبادة الجماعية في حق الهـــنود المايان في غواتيمالا (300.000 قتيل)، ونيكاراغوا (50.000 قتـــيل)، والسلفادور (75.000 قتيل)، والهندوراس (عدة آلاف من القتلـــى). فـــريغن هـــو من دافع عن الجنرال ريوس مونت، جزّار غواتيمالا، من الانتقادات التي وُجِّهت إليه بسبب إساءاته إلى حقوق الإنسان ("هو يحظى بمعاملة قاسية") وامتدح جزّاري المجتمع العلماني في أفغانـــستان واصـــفاً إيـــاهم بأنهم "مساوون لآبائنا المؤسسين في الأخلاق". ولكل من البيت الأبيض، والبنتاغون، ووزارة الخارجية، والـــسي آي ايـــه طريقته الخاصة في الترهيب: أكاذيب كولن باول الـــوقحة في الأمـــم المـــتحدة حول أسلحة الدمار الشامل، وترويج البنـــتاغون لممارسة التعذيب، وتنفيذ السي آي ايه عمليات اغتيال، وقـــيامها في الـــوقت الحاضر وبالتواطئ مع الاتحاد الأوروبي وبعلم الجميع، بتطبيق سياسة تمزيق على الصعيد العالمي.

لا يعود سبب استمرار التعذيب والقتل الجماعي منذ نظام ريغن الـــسابق وحتى نظام بوش الحالي لعودة العديد من المجرمين السياسيين إلى مناصـــب في الحكـــم فحـــسب (وولفويتـــز، أبرامـــز، تشيني، ورامـــسفيلد) بل لسياسات الإخضاع الإمبريالية، والتدمير، والإبادة. ومن جهة ثانية، لا يُعيد منـــزل الرعب عرض السيناريوهات السابقة المعَـــدّة للمـــصالح الإيديولوجـــية والسياسية نفسها. ويضمّ العرض الترهيبـــي الحالي العديد من الشخصيات، ولكن المنتجين والمخرجين

مخـــتلفون. ففـــي أميركـــا الوسطى وجنوبي أفريقيا، كان المعادون للـــشيوعية المتعصّبون في موقع القيادة يدافعون في معظم الأحيان عن مـــصالح الشركات الأميركية، وكانت أعمالهم في معظمها سرّيّة أو تجـــري وفقاً لعقود مُبرَمة. وفي الوقت الحاضر، فإن من يقوم بإدارة عرض الترهيب الأميركي في العراق هم الصهاينة المتعصّبون المُشبَعون بالـــروح الحربية. وبخلاف مقاتلي ريغن، هناك اليوم أساتذة محصَّنون بالقانـــون وبكلّيات أخرى في أرقى جامعات أميركا يقومون بتوفير تبريـــرات لإرهاب الدولة غير المقيَّد. وأكثر من أي وقت مضى في الـــتاريخ الأميركي، هناك قائمة طويلة من الأساتذة المتميّزين الذين يصطفّون للدفاع عن منـــزل الرعب، وســـجون الـــتعذيب، وندوات تجريد العرب من صفاهم الإنسانية. ولم يشعر هـــؤلاء الأساتذة بأي تأنيب للضمير حـــول وصـــف ملايـــين الـــضحايا بالإرهابيين؛ يُبرّر هذا الأمر تصرّفهم الوحشي. وكل هؤلاء مؤيّدون لإسرائيل بلا قَيد أو شرط، ولسياساها التي تنمّ عن جنون الارتياب، وممارستها الروتينية للتعذيب، وهديداها النووية للإنسانية، وهجماها الوحشية على الفلسطينيين.

هناك اليوم أساتذة محصَّنون بالقانون وبكلّيات أخرى في أرقى جامعات أميركا يقومون بتوفير تبريرات لإرهاب الدولة غير المقيَّد.

مـــا يزال المحافظون الصهاينة يظهرون باستمرار في كافة وسائل الإعلام لبثّ سمومهم الإيديولوجية: بيرل، أبرامز، وولفويتز، ستيرن، درشـــوفيتز، كـــوهين، كاغـــان، كريستول، روبين، أدلمن، لويس، بولـــوك، وكـــثيرون آخـــرون. ويدينون بالولاء في الدرجة الأولى للإمـــبريالية الأميركـــية والاستعمار الإسرائيلي، فينضمّون إليهما في

منـــــزل رعب مدهش تحت خيمة "مبادرة الإصلاح الديمقراطي في الشرق الأوسط" الكبيرة.

الـــتأثير الـــصهيوني في سياسات واشنطن الإجرامية في الشرق الأوســـط التي هي لصالح إسرائيل أمر واضح. ومع ذلك، يُفترَض بنا التذكـــر أنه في حين تتواصل سياسات الدولة العدائية في ظل منـــزل الـــرعب الحالي، بالغةً بالولايات المتحدة إلى مستوى غير مسبوق من الفضح والإدانة على الصعيد العالمي ومعرّضةً على الأرجح مصالحها الخاصـــة ورفاهتها للخطر بطريقة غير مسبوقة، فإن تاريخ سعيها إلى بـــناء إمـــبراطورية يـــسبق الهيمنة الصهيونية، وسيستمرّ هذا السعي بالتأكيد بعد تراجع قوة تأثير هذه الهيمنة.

وفـــيما يُفترَض بنا السعي بقوة إلى الكشف عن التأثير العميق للمحـــافظين الصهاينة في تحديد سياسة الحرب الأميركية في الشرق الأوسط، يبقى بناء الإمبراطورية- الإمبريالية بحدّ ذاتها- المشكلة على المـــدى البعـــيد وعلى نطاق واسع، وهي تثير مقاومة شعبية تتعاطى الإمـــبراطورية معهـــا من خلال ممارسة التعذيب وارتكاب الإبادات الجماعية. ولإنهاء التعذيب والتغلّب على القوى الاستعمارية ما وراء الـــبحار، علينـــا مـــواجهة مؤيّديهم وإيديولوجييهم في الوطن بعزم وتصميم أيّاً تكن انتماءاتهم الإثنية أو الدينية. وعلينا ألا ندع تعصّبهم الإيديولوجـــي وعدائـــيّهم يمنعانـــنا من مشاركة غالبية متنامية من الأميركـــيين في معارضـــتهم للحروب الأميركية في الشرق الأوسط وللإرهاب الصهيوني.

الفصل السابع

الحل النهائي كما تراه إسرائيل

الهجوم على غزة

"من واجب القادة الإسرائيليين شرح بعض الحقائق للرأي العام، بوضوح وشجاعة، والتي نُسيت مع الوقت. وأولى هذه الحقائق هي عدم وجود صهيونية أو استعمار أو دولة يهودية دون إجلاء العرب ومصادرة أراضيهم".

أرييل شارون، رئيس وزراء سابق من حزب الليكود
وكالة فرانس بريس، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1998.

"علينا طرد العرب وأخذ مكانهم".

ديفيد بن غوريون، رئيس وزراء سابق من حزب العمل، 1937.

"لا وجود للشعب الفلسطيني. لماذا يقولون إننا قدِمنا ورميناهم خارجاً واستولينا على بلدهم. فهم لم يكونوا موجودين".

غولدا مئير، رئيسة وزراء سابقة من حزب العمل.

"ستوجِد إسرائيل ظروفاً في السنوات العشر أو العشرين التالية من شأنها دفع اللاجئين لهجرة طبيعية وطوعية من قطاع غزة والضفة الغربية في اتجاه الأردن".

إسحق رابين، رئيس وزراء سابق من حزب العمل.

"لا يمكنكم وضع الناس ببساطة في الشاحنات واقتيادهم بعيداً. أفضّل تأييد سياسة إيجابية تقضي في الواقع بإيجاد ظرف يحثّ الناس على المغادرة بطريقة إيجابية".

أرييل شارون، 24 آب/أغسطس 1988.

"تقسيم فلسطين غير قانوني. لن يتمّ الاعتراف به أبداً. ستُعاد إسرائيل إرتز، كلها، إلى شعب إسرائيل، وإلى الأب".

مناحيم بيغن، رئيس وزراء سابق من حزب الليكود.

"آمنتُ ومازلت حتى هذا اليوم بحق شعبنا الأبدي والتاريخي بكامل الأرض".

إيهود أولمرت، رئيس وزراء إسرائيل، أمام الكنيست، حزيران/يونيو 2006.

"ولكن طريقة التفكير هذه ليست معيبة فحسب؛ فاعتقال أشخاص للمقايضة بهم هو من أعمال العصابات لا الدول".

إفتتاحية *هاآرتس*، 30 حزيران/يونيو 2006.

"لا أريد أن ينام أحد في غزة أثناء الليل".

إيهود أولمرت، 2 تموز/يوليو 2006.

مقدمة

بــــدءاً بليلة 28 حزيران/يونيو 2006، شنّت إسرائيل هجوماً برّياً وجوّياً كبيراً على قطاع غزة. وقام عدد قياسي من الطوافات الحربية والمقاتلات بإطلاق صواريخ وقذائف صاروخية على مراكز مأهــولة، مدمّــرةً البنية التحتية الأساسية لأكثر من 1.4 مليون فلــسطيني، وتدفّق أكثر من 5.000 جندي إلى المنطقة وراء مئات الــدبابات ونـــاقلات الجُند المصفّحة. وكان عُذر الدولة اليهودية لشن حرب شاملة تحرير جندي إسرائيلي واحد تمّ أسره، ويُحتفظ بــه كــسجين حرب (وُصف على نحو خاطئ بأنه مختطَف) لدى مجموعة فلسطينية مقاوِمة.

حـــتى أن *الفايننـــشل تايمز* الموالية لإسرائيل أيّدت عُذر رئيس الـــوزراء أولمـــرت الواهـــي، معلّقةً أن "... التفاوت بين الوسائل والغايـــات يوحي بأن هذا الأمر (إطلاق سراح السجين الإسرائيلي)

قــد يكــون عُــذراً"[1]. وتابعت الصحيفة قائلة إن هدف الهجوم الإســرائيلي هــو تــدمير الحكومة المنتخَبة ديمقراطياً، والمطالبة بألا يتفاوض معها أحد، ومن ثمّ... "*وضع حدود جديدة لدولة إسرائيل موسَّــعة، وبشكل أحادي، من خلال ضمّ أجزاء من الأرض المحتلّة كان الفلسطينيون قد أملوا في بناء دولتهم المستقلة عليها*" [2].

في 6 تمــوز/يولــيو، إجتاحت القوات الإسرائيلية التي كانت تــتقدّمها ناقلات جُند شمالي غزة وأعلنت أنها كانت تسعى إلى ضمّ قطعــة أرض لــتكون "*مــنطقة عازلة*"[3]، مؤكّدةً توقعات كتّاب الافتتاحيات في *الفايننشل تايمز*، ومتحرّكةً خطوة إضافية في اتجاه الحل النهائــي. وقُبَيل انتهاء اليوم، كانت القوات الإسرائيلية المسلّحة قد أعــادت السيطرة على مساحة هامّة من غزة بعد الإطباق عليها على صــورة فكّي كمّاشة، فقتلت 22 مدنياً ومقاوماً فلسطينياً وجرحت عــدداً كبيراً من الأشخاص. وفي حين حثّ السياسيون الأوروبيون والأميركيون على "وضع القيود" أمام تمدّد العملية العسكرية إلى عمق غزة، تجاهلت الحكومة الإسرائيلية كل الدقائق والتفاصيل الدبلوماسية واتفاقــيات جنيف، واثقةً من أن اللوبي سيضمن عدم فرض أي قيود أميركية (وبالتالي أوروبية). وفيما وقّع 300 يهودي بريطاني يساري وتقدّمــي علــى إعلان في *تايمز لندن*، لم يصدر أي إعلان مماثل عن نظــرائهم الأميركيين؛ ربما كانوا ينتظرون إلى أن تصبح عملية إعادة الاستيلاء الإسرائيلية أمراً واقعاً...؟

---

(1) فايننشل تايمز، 1 تموز/يوليو 2006.

(2) المرجع نفسه، الصفحة 8.

(3) أخبار بي بي سي، 6 تموز/يوليو 2006.

إن الهدف الاستراتيجي لإسرائيل كما أعلن عنه كل من رؤساء وزرائها بصراحة، سواءً كانوا من حزب العمل أو الليكود أو كاديما، هو سيطرة الدولة اليهودية الكاملة على فلسطين.

إن الهدف الاستراتيجي لإسرائيل كما أعلن عنه كل من رؤساء وزرائها بصراحة، سواءً كانوا من حزب العمل أو الليكود أو كاديما، هو سيطرة الدولة اليهودية الكاملة على فلسطين، والاستيلاء بالقوة على الأرض الفلسطينية وطرد ملايين الفلسطينيين من "أرض إسرائيل الكبرى". وتطوّرت النظرة التوتاليتارية لحلّ نهائي عبر السنين، وبشكل منتظم، وسُرِّعت العام الماضي من خلال التدمير المنهجي للظروف الأساسية لاستمرار الفلسطينيين.

من الحاضر إلى الماضي

كان الهجوم الذي شُنّ في الثامن والعشرين من حزيران/يونيو يستهدف تدمير القيادة الفلسطينية، كما أشارت البي بي سي(1). فقد اعتُقل أكثر من ستين قائداً فلسطينياً، ومن جملة المعتقلين ثمانية وزراء واثنَي عشر عضواً آخر في البرلمان وقد تمّ اقتياد بعض الوزراء من وزاراتهم. وتبريراً لاعتقال وزراء حكومة حماس ونوّابها المنتخَبين ديمقراطياً، تبجّح وزير الدفاع الإسرائيلي وزعيم حزب العمل عمير بيريتز قائلاً، *"إنتهت الحفلة التنكريّة... لن تصلح البذلات وربطات العُنق كغطاء للقيام بأعمال خطف وعنف، ودعمها"*(2). كان بيريتز، وهو المنفّذ السياسي للاجتياح، الشخص المحبَّب للولايات المتحدة

(1) أخبار بي بي سي، 1 تموز/يوليو 2006.

(2) أخبار بي بي سي، 1 تموز/يوليو 2006.

و'اليسار الوسط' الأوروبي، والمفضّل لدى المفكّرين والحاخامات اليهود الذين ينتحلون صفة التقدمية.

تلى التدمير الإسرائيلي لمحطة توليد الطاقة وخزان المياه في غزة، وقصف الجسور التي تربط شمال غزة بجنوبه، مساعٍ منهجية لتجويع الفلسطينيين المقيمين في غزة والبالغ عددهم 1.4 مليون نسمة. وفي ظل الحظر التام الذي تفرضه الدولة اليهودية للتضييق على الاقتصاد الفلسطيني بهدف *"إيجاد الظروف لرحيل طوعي"*، كما قال رئيس الوزراء السابق رابين في معرض حديثه عن التطهير العِرقي... *"أقفل (أو تمّ إقفال) أكثر من 48 مصنعاً من أصل 60 مصنعاً في ميدان صناعي، ويحكى عن نقل بعض المصانع أعمالها إلى مصر أو بلدان عربية أخرى"* [1].

كان إقفال نقاط العبور، والقتل المنهجي للمدنيين بمن فيهم أفراد عائلات بأكملها والذي سبق الغزو، نموذجاً واضحاً عن الاستفزاز لتبرير الاجتياح. في الأسابيع التي سبقت تاريخ 6/28، حشدت إسرائيل قواها المسلّحة عند الحدود مع غزة استعداداً لهجوم كبير، ممّا يدحض ادّعاءات الدولة اليهودية بأنها كانت 'تقوم بردّ فعل' بسبب أسر الجندي الإسرائيلي. وطوال العام 2006، شنّت إسرائيل حرباً نفسية وعسكرية على امتداد قطاع غزة. وبين كانون الثاني/يناير و30 أيار/مايو 2006، ووفقاً للمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان (PCHR)، نفّذت القوات العسكرية الإسرائيلية 18 عملية اغتيال، وقد اعتُبرت بأسلوب تلطيفي 'أحكاماً بالإعدام خارج إطار القضاء' أو 'اغتيالات هادفة للمقاتلين'؛ وبين 29 آذار/مارس و30

---

(1) نيويورك تايمز، 3 تموز/يوليو 2006.

أيـــار/مايو، شنَّت إسرائيل 77 غارة جوية على غزة وأُطلقت 4.000 قذيفـــة مدفعية على مراكز سكنية، ومكاتب حكومية، وعلى البنية التحتية والمنشآت الإنتاجية.

وبينما كانت القوات المسلحة الإسرائيلية تُعدّ العُدّة لحملة 6/28، صـــعّدت الدولـــة اليهودية استفزازاتها من خلال زيادة عمليات قتل المدنـــيين الفلـــسطينيين. وبين 26 أيار/مايو و21 حزيران/يونيو، بلغ مجمـــوع القتلـــى الفلسطينيين 44 شخصاً، ثلاثون منهم مدنيون بمن فيهم أحد عشر طفلاً وامرأتَين حاملتَين[1].

كان التكتيك الإسرائيلي هو ارتكاب هذه الجرائم الغريبة ضد مدنـــيين عُـــزَّل بهـــدف حمل حكومة حماس المنتخَبة ديمقراطياً على التـــراجع عن وقف إطلاق النار الطوعي الذي امتد على مدى ثمانية عـــشر شـــهراً والقيام بأعمال انتقامية دفاعاً عن شعبها. لكن حماس رفـــضت ذلـــك، وابتكـــرت إسرائيل التي لا يمكن التنكّر لسياستها القائمة على اغتصاب الأرض ذريعة تحرير الجندي الإسرائيلي الرهينة الـــذي وُصف على نطاق واسع بأنه جندي "مراهق في التاسعة عشر مـــن عمره" وذلك لرفع مستوى التعاطف مع المستوطن الفرنسي-الإسرائيلي.

تـــزامناً مع حملة الترهيب، وقبل الحملة الدموية التي شنّتها إسرائيل في حزيران/يونيو، أوقفت الدولة اليهودية وجماعات الضغط السياسية في الولايات المتحدة، وبشكل فعّال، كل تمويل للحكومة المنتخَبة ديمقراطياً، بمـــا في ذلـــك امتناع إسرائيل عن تسليم مئات ملايين الدولارات التي

---

(1) بي ســـي إتـــش آر، تقرير في ويكلي ريبورت لشهر تموز/يوليو 2006 حول الانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية.

جمعـــتها من عملية تحصيل الضرائب التي تفرضها الدولة اليهودية على الـــواردات الفلسطينية لصالح السلطة الفلسطينية. وارتفعت مستويات الفقر أربعة أضعاف، وتضاعف سوء تغذية الأطفال الصغار والكبار. وتمّ التوقف عن دفع مرتّبات 165.000 موظّف حكومي، بمن فيهم عاملون في المجـــال الطبّـــي، ومدرّسون، وأفراد شرطة، يُعيلون أكثر من مليون فلسطيني بشكل مباشَر، ممّا أدّى إلى رفع مستويات الفقر المُدقع إلى نسبة تخطّت الثمانين بالمئة من سكان غزة و64 بالمئة من مُجمَل الفلسطينيين. ومعـــدل دخل الفلسطينين البالغ 2.10 دولار في اليوم غير كافٍ أصلاً لتلبـــية ضـــروريات الحـــياة. وبما أن تكتيكات فرض الحصار لتجويع الفلـــسطينيين بـــين شهرَي كانون الثاني/يناير وأيار/مايو لم تكن كافية لإضـــعاف المقاومة الفلسطينية والإطاحة بحكومة حماس وتسهيل عملية اغتـــصاب الأرض، صـــعّدت إســـرائيل حملة الترهيب على المدنيين في حزيران/يونيو التي تُوِّجت بالاجتياح والدمار المادّي لما تبقّى من الاقتصاد ومظاهـــر ممارســـة الحكـــم. لقد كانت الوسائل التوتاليتارية للترهيب، والـــتجويع، والحصار تضيّق الخناق على القضية الفسطينية بهدف تطبيق الحل النهائي الصهيوني، أو ما دعاه إسحق رابين ذات مرة – والمناوئون الإسرائيليون لعملية سلام أوسلو – "إيجاد الظروف التي تحث على الهجرة الطبيعية والطوعية للاّجئين من قطاع غزة والضفة الغربية".

القضاء النهائي على الأساطير الست للدولة اليهودية واللوبي

إن التكتـــيكات العنـــيفة التي تتّبعها إسرائيل– وظهرت آثارها المدمِّـــرة في اجتـــياح 6/28 ونظرتها التوتاليتارية للتطهير العرقي على

نطاق واسع - خلّفت شكوكاً قليلة حيال أهدافها النهائية ووسائلها السياسية. وكما أشار جون دوغارد، المقرّر الخاص للجنة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية والتابعة للأمم المتحدة:

> تنتهك إسرائيل في غزة المبادئ الأساسية للقانون الإنساني وقانون حقوق الإنسان، فقد أمطرت غزة بأكثر من 1.500 جولة من القصف المدفعي... وروعت اختراقات جدار الصوت الناس. كما أن وسائل النقل تعطلت إلى حدّ كبير بسبب الدمار الذي لحق بالطرقات والجسور. وتدابير تعزيز الصحة العامة ومنع تفشّي الأمراض مهدّدة بفقدان فعّاليتها[1].

ردّاً على ذلك، وبكل ما اشتهر به الساسة الإسرائيليون من رياء ونفاق وتكبّر، إدّعى ممثّل إسرائيل الدائم لدى الأمم المتحدة في جنيف، إسحق ليفانون، أن اللقاء الطارئ كان "هجوماً متعمَّداً ومخطَّطاً له مُسبَقاً على إسرائيل... نجد أنفسنا في موقف مُناف للعقل حيث يقوم مجلس حقوق الإنسان، الذي دُعي للانعقاد في جلسة طارئة، بتجاهل حقوق إحدى الدول ويعقد لقاء خاصاً للدفاع عن حقوق الجانب الآخر"[2].

من الواضح أن الدبلوماسي المتميّز كان يشير إلى تجاهل المجلس لحقوق المقاتل الإسرائيلي - *طياري الطوافات* - في قصف المدنيين الفلسطينيين لدفعهم إلى الفرار ذُعراً عبر الحدود المصرية.

---

(1) جون دوغارد، مبعوث الأمم المتحدة لحضور لقاء طارئ دعا إليه مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، 4 تموز/يوليو 2006.

(2) أخبار بي بي سي، 5 تموز/يوليو 2006.

1- *إسرائيل والديمقراطية*

في كانون الأول/ديسمبر 2005، وفي الانتخابات الأكثر ديمقراطية في الشرق العربي، صوت معظم الفلسطينيين لحركة حماس لتسلّم زمام الحكم. حتى أن الرئيس بوش سلّم بالطابع الديمقراطي للانتخابات الفلسطينية، وذلك قبل قيام اللوبي اليهودي بمعاقبته. رفضت الحكومة الإسرائيلية نتائج الإنتخابات، ونظّمت حملة دولية ضخمة ذات تمويل جيد من خلال جماعات الضغط اليهودية في الولايات المتحدة وأوروبا بهدف عزل الحكومة المنتخَبة حديثاً وتقويضها. وبدلاً من الاعتراف بالتفويض الديمقراطي الذي مُنح لها، أضفت إسرائيل الطابع الإرهابي على الحكومة الفلسطينية الجديدة، وتجاهلت وقف إطلاق النار الأحادي الجانب الذي أعلنته حماس، وصعّدت هجماتها العسكرية القاتلة. وقد نجحت في فرض حصار اقتصادي، ممارِسةً هيمنتها على الولايات المتحدة، ومن خلال هذه الأخيرة على الاتحاد الأوروبي. إن العداء الإسرائيلي للديمقراطية الفلسطينية ودور مواطنيها في انتخاب ممثّليهم بحرّية يشير بوضوح إلى أن إسرائيل ترفض قيام مجتمع عربي تعدّدي منفتح. وينطبق الأمر نفسه على المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة – آيباك، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، التي ردّدت كالببغّاء موقف إسرائيل من الديمقراطية الفلسطينية كما كانت حالها على الدوام حيال السياسات الإسرائيلية الأخرى ومهما كانت درجة لاأخلاقيتها، كقتل الأطفال والعائلات الفلسطينية. لقد نُقل العداء الإسرائيلي للديمقراطية العربية إلى الوسط السياسي الأميركي، وعلى نطاق واسع، من قِبَل أتباع إسرائيل الصهاينة في جماعات الضغط، والحكومة، ووسائل الإعلام، وميادين العمل.

2- *إسرائيل والسلام*

في الأسبوع الذي سبق الغزو الإسرائيلي، اتفقت حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية على التفاوض مع إسرائيل، معترفتَين ضمناً بدولة إسرائيل. لقد نشرت معظم وسائل الإعلام تقارير عن الاتفاق، ورحّب الاتحاد الأوروبي به، قائلاً إنه بداية عمليّة. وأوردت *الفاينشل تايمز* التقرير التالي:

في الأسبوع الذي سبق الغزو الإسرائيلي، اتفقت حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية على التفاوض مع إسرائيل، معترفتَين ضمناً بدولة إسرائيل.

> ألقت الأزمة (الغزو الإسرائيلي لغزة) بظلّها على *الاتفاق الحيوي* بين حماس ومحمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية، الذي أُبرم يوم الثلاثاء وشمل *قبولاً واضحاً لحماس بحل قائم على دولتَين* للنزاع في الشرق الأوسط. وتشير نسخة وزّعتها حماس إلى الهدف الفلسطيني بإنشاء دولة على كل الأرض التي احتُلّت عام 1967... (مع التشديد على هذه النقطة)[1].

كان ردّ إسرائيل برفض المفاوضات وشنّ الحرب الجديدة لتدمير الدولة الفلسطينية. في الواقع، لم تعترف الدولة الإسرائيلية في أي وقت من الأوقات بحكومة حماس المنتخَبة كخصم مفاوض، فكيف لها أن تعترف بها كشريك.

كما قال نعوم تشومسكي مدعوماً بالوثائق[2]، كلما قامت

(1) فايننشل تايمز، 29 حزيران/يونيو 2006، الصفحة 8.

(2) نعوم تشومسكي، مثلّث مشؤوم: الولايات المتحدة، إسرائيل وفلسطين، بلوتو، لندن 1999.

منذ الثمانينيات، كانت الدولة اليهودية تعمد إلى استهلال عمل يطيح بلا توانٍ باحتمالية بلوغ سلام في المنطقة، وسواءً التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بوقف لإطلاق النار، أو اقترحت حل قائم على دولتَين، والاعتراف بشكل واضح بدولة إسرائيل.

منظمة التحرير الفلسطينية منذ الثمانينيات بالالتزام بوقف لإطلاق النار، واقتراح حل قائم على دولتَين، والاعتراف بشكل واضح بدولة إسرائيل، كانت الدولة اليهودية تعمد إلى استهلال عمل يطيح بلا توانٍ باحتمالية بلوغ سلام في المنطقة: لقدْ اجتاحت لبنان، واغتالت قادة بارزين، وشنّت هجمات عسكرية، قاتلةً ناشطين ومدنيين، وذلك بهدف إجبار الفلسطينيين على سحب عرضهم.

يرفض النظام الإسرائيلي كلّيّاً قبول التفاوض لإطلاق أسير عن طريق المبادلة كما اقترحت حماس والسلطة الفلسطينية، والرئيس المصري حسني مبارك، ومعظم دول الاتحاد الأوروبي. تعتقل إسرائيل 9.000 سجين سياسي فلسطيني على الأقل، بمن فيهم 335 طفلاً وعدة مئات من النساء، دون أن يتمّ توجيه التهم لمعظمهم وبعد تعريض معظمهم للتعذيب. إن الغالبية العظمى مدنيون اعتُقلوا في منازلهم أو في الشارع. باختصار، فإن معظم السجناء الفلسطينيين هم ضحايا اختطاف مدنيّون من قِبَل القوات الإسرائيلية، وليسوا مقاتلين أُسروا كما هي حال الجندي الإسرائيلي الوحيد. ودعا الفلسطينيون تكراراً إسرائيل للمبادرة على الأقل إلى تحرير الخمسمئة طفل وامرأة فلسطينية المختطَفين كرهائن، وذلك عن طريق مبادلتهم بالجندي الأسير. وأجابت إسرائيل بتكثيف هجماتها العسكرية وتوسيع نطاق الاعتقالات لتشمل كل الفلسطينيين. وفي إجتماع للحكومة في

2 تمـــوز/يولـــيو، صرّح أولمرت قائلاً، "لقد أصدرتُ أوامر لتكثيف عملـــيات الجيش والأجهزة الأمنية بهدف مطاردة أولئك الإرهابيين، وأولـــئك الذين أرسلوهم... وأولئك الذين يقدّمون لهم المأوى"[1]. بكلمات أخرى، فإن المنظمات المقاوِمة (المدعوة 'إرهابية' بالرغم من أنهـــا لم تـــتخطَّ حقوقها القانونية الدولية وفقاً لاتفاقيات جنيف التي تـــسمح لهـــا بمقاومـــة الاجتياحات التي تشنّها القوات الإسرائيلية المسلّحة) تشمل كل المنظمات الفلسطينية الرئيسية - أولئك "*الذين أرســلوهم*" هـــم كـــل السلطات السياسية المنتخَبة؛ وأولئك الذين "*يقدّمـــون لهـــم المـــأوى*" هم مئات آلاف العائلات، والأصدقاء، والجـــيران، والمجمـــوعات المدنية ومختلف شرائح المجتمع، والأطباء، والممرّضـــات وباختصار كل المجتمع المدني الفلسطيني. ووفقاً للشعور الـــسائد في إســـرائيل الـــذي تعكسه نتائج استفتاء نشرته الصحيفة (الإسرائيلية) اليومية *معاريف*، يرغب معظم الإسرائيليين باغتيال قادة حمـــاس[2]. إذاً، هـــو نظام توتاليتاري يجرّم ويستهدف كل المجتمع السياسي والمدني تقريباً في فلسطين.

3- إسرائيل وإمكانية حلّ قائم على دولتَين

تُـــرفَق عملية إعادة احتلال إسرائيل لغزة وفرض القانون العرفي بتجـــريم الطـــبقة السياسية الانتخابية بأكملها: وزراء في الحكومة، ناشطون برلمانيون وحزبيون. لقد قال نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي شـــيمون بيريـــز للـــسي أن أن: "ســـيُقدَّمون (مسؤولو الحكومة

(1) الجزيرة، 2 تموز/يوليو 2006.

(2) لا جورنادا، 8 تموز/يوليو 2006.

الفلسطينية) للمحاكمة، وستُوجَّه إليهم تهمة المشاركة في أعمال إرهابية ضد الحكومة المدنية، ودعمها [*حرفياً*]"[1]. ماذا يُفهَم من هذا التصريح؟ من هي الحكومة المدنية - تلك التي أعضاؤها المنتخَبون بالطريقة الصحيحة هم حالياً قَيد الاعتقال الإسرائيلي؟ أم أنها زلّة لسان، سواءً كانت مقصودة أم غير مقصودة، توحي ببدء إسرائيل الإشارة إلى أن غزة تقع ضمن إسرائيل؟

لإضفاء أهمية على الأمر، وباتّباع أفضل التقاليد التي كان يعتمدها الدكتاتور التشيلي أوغوستينو بينوشيه، قصف الإسرائيليون المكاتب التنفيذية لرئيس الوزراء الفلسطيني، مُضرمين النار في المبنى. وبهدف تدمير ذكرى أو فكرة وجود حكومة فلسطينية، تقوم القوات العسكرية الإسرائيلية الماحقة بتدمير أسس البنية التحتية الفلسطينية التي تقوم عليها الحياة السياسية: المباني، القادة، الأحزاب، والانتخابات.

لقد شرعت الدولة اليهودية بفعّالية منهجية وبيروقراطية بتدمير يومي لكل بنية ممكنة وضرورية لحياة متمدّنة. ففي 3 تموز/يوليو 2006، قصفت الجامعة في مدينة غزة. وفي اليوم التالي، قصفت وزارة الداخلية. وفي 5 تموز/يوليو، إجتاح الإسرائيليون شمالي غزة، وتستمر الرواية الإجرامية. لأولئك الذين ظنّوا أن هذا الاجتياح كان مجرّد غزوة بحثاً عن أسير حرب، أعلن يوفال ديسكن، رئيس الشين بيت الإسرائيلي، قائلاً إن "... عملية غزة قد تستمر أشهراً"[2]. وبرياء ونفاق كبيرَين، أعلن اللواء أموس يادلين، رئيس مخابرات الجيش

---

(1) سي أن أن، 2 تموز/يوليو 2006.

(2) الجزيرة، 2 تموز/يوليو 2006.

الإســـرائيلي الذي اعتقل معظم أفراد القيادة الفلسطينية أو وضعهم تحت الأرض، أن"... مساعي الوساطة أُحبطت لأن لا أحد يعلم من علينا التحدث معه في شأن شاليت (الجندي الإسرائيلي الأسير)". ولا داعـــي للقول إنه لم يتمّ التقدم بأي طلب للتفاوض مخافة ظهور أحد المفاوضين...

4- إسرائيل والإرهاب

بيـــنما كانت إسرائيل تحاول تدمير أسس الوجود الفلسطيني الجماعي المنظَّم كشعب، كانت تشنّ أيضاً هجمات بالمدفعية على مـــدى 24 ساعة، وكانت طائراها تخرق جدار الصوت باستمرار فـــيما تحلـــق علـــى علـــو منخفض، فارضةً تعرّض كل السكان للـــتجفاف في ظـــل حرارة مُحرقة من خلال تدمير خزانات مياه الشرب، ومُجبرةً إيّاهم على العيش في الظُلمة محرومين من الطعام وملازمـــين مـــنازلهم أو الملاجـــئ. شعب بأكمله مختبئ في أرض يتقلّص حجمها باستمرار دون جيش خاص به! هو إرهاب الدولة بحلّـــته الأكثـــر تعبيراً وإيذاءً: إن العقاب الجماعي الذي تقوم به إســـرائيل لا يُراد منه إطلاق سراح الجندي الإسرائيلي الأسير، بل يـــستهدف جعل حياة الشعب الفلسطيني لا تُحتمَل؛ بحيث يفتقر إلى الظـــروف الأساســـية للحياة، فيُضطرّ إذ ذاك للفرار أو اتخاذ موقـــف بطـــولي أخير تلجأ إسرائيل من خلاله إلى استخدام كل قـــدراها العسكرية القاتلة. هكذا، وصف الأكاديميون البارزون، والصحافيون، والإيديولوجيون، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيـــسية، الأمـــر في ما بعد بأنه: "*رد فعل إسرائيلي قوي على الإرهاب الفلسطيني*".

5- *اللوبي اليهودي: القضية الرئيسية*

بارتفاع حدة الهجوم الإسرائيلي على غزة، ترتفع كذلك حدة النشاط والدعاية التي تقوم بها كل المنظمات اليهودية/الصهيونية الرئيسية في الولايات المتحدة وأوروبا لصالح هذا الهجوم. وفي استعراض لما جاء في *الدايلي أليرت* (الصحيفة اليومية التي تُنشَر لصالح مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة) منذ بدء اجتياح غزة، يجد المرء دعماً تلقائياً غير انتقادي لكل هجوم إسرائيلي على غزة: منشآت إنتاج الطاقة الكهربائية لأن لها "استخداماً مزدوجاً"؛ مخزون المياه ومنشآت معالجة الصرف الصحي هي "أهداف عسكرية" لأنها تُستخدَم من قِبَل الآسرين؛ ترويع الأطفال والمدنيين "لحملهم على الشعور بما تعاني منه سيدروت (مستعمرة إسرائيلية عند الحدود نشأ فيها وزير الدفاع)"؛ رفع حدة القمع الإسرائيلي للشعب الفلسطيني، وإطالة أمده، لأن "حماس وفتح منظمّتان إرهابيّتَان ويجب التعاطي معهما كمنظمات إرهابية وسحقهما بكافة الوسائل الضرورية"[1].

هناك توزيع صهيوني عالمي للمهام الموكَلة: القتلة العسكريون يعملون في إسرائيل، القتلة الفعليون يعملون خارج الشقق الفخمة للمكاتب الرئيسية التابعة لمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية.

ولا شيء يؤثّر في نفوذ اللوبي اليهودي أكثر من ردّ الفعل الأوروبي - الأميركي على الهجوم الإسرائيلي على غزة على نطاق واسع. فبوش يدعم التحرك الإسرائيلي حتى عندما ينتهك بشكل

(1) دايلي أليرت، 3 تموز/يوليو 2006.

فاضح القواعد الخاصة بواشنطن التي تتناول نوعية الهجوم الذي تشنّه القوات الإسرائيلية: دمّر منشأة لتوليد الطاقة قامت الولايات المتحدة بتمويلها، وقصف الجسور والطرقات وخطوط نقل المياه، وذلك بخلاف تحذير بوش "تجنّب إلحاق الضرر بالبنية التحتية وإيذاء المدنيين". وبإمكان إسرائيل غرز أصابعها في عينَي بوش والحصول على دعمه لأنها تعرف أن اللوبي اليهودي سيحشد تأييداً شبه إجماعي في الكونغرس، وتركيزاً إعلامياً ملائماً على الأسير الإسرائيلي، وتعمية فعلية على المعاناة الكبيرة للفلسطينيين. وبفضل اللوبي اليهودي، فإن الإرهاب التوتاليتاري الذي توجّهه إسرائيل في اتجاه 'حلّ نهائي' لا يثير سوى اقتراحات مُضحكة من قِبَل الأمم المتحدة تقضي بالتفاوض حول حلّ سلمي بينما يقبع المفاوضون الوحيدون المنتخَبون بصورة شرعية في السجون أو يختبئون بسبب تعرّضهم للتهديد بالاغتيال.

في 5 تموز/يوليو، إنتقد الاتحاد الأوروبي بقسوة "*التدابير غير المتكافئة*" التي تتّخذها إسرائيل لا الاجتياح الإسرائيلي وانتهاك شُرعة الأمم المتحدة في ما يتعلّق بحقوق الدول بتقرير المصير. لقد تفاقمت هذه الخيانة الخنوعة والمُخزية لمبادئ الاتحاد الأوروبي لدى المساواة بين الاجتياح الإسرائيلي وبين قيام الفلسطينيين بأسر مقاتل عسكري ناشط[1]. إن الفرق بين الدعم الذي قدّمته الولايات المتحدة للاجتياح الإسرائيلي والتي يسيطر عليها اللوبي وبين الدعم الأوروبي يوجز *القَدْر الملائم للقوة* الذي يُفترَض بإسرائيل ممارسته لدى اجتياح غزة.

(1) لا جورنادا، (المكسيك العاصمة)، 6 تموز/يوليو 2006.

كيف يفسَّر الدعم الأميركي لسياسة التطهير العِرقي التي تمارسها إسرائيل بالرغم من تنكّرها الوقح والمفضوح للتوجيهات الأميركية المعتدلة في ما يتعلّق بتدمير الديمقراطية الفلسطينية؟ لا يمكن لأي من أصحاب العقول السليمة الادّعاء بأن الهجوم الإسرائيلي على غزة يحسّن السياسات والمصالح الأميركية أو النفوذ الإمبريالي للولايات المتحدة. وقد أُعِدّت في إسرائيل كل تفاصيل حملة تدمير حكومة حماس المنتخَبة ديمقراطياً، وذلك منذ البداية وحتى النهاية، ونُفِّذت بالمشاركة الطوعية للمسؤولين التنفيذيين في مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في أميركا؛ بمن فيها آيباك دون أن يكون الأمر مقتصراً عليها فقط. لقد تمت الهجمات والاغتيالات اليومية في غزة والضفة الغربية تحت إدارة وإشراف الجنرالات الإسرائيليين والشين بِت والموساد، وموافقة وزير الدفاع الإسرائيلي ورئيس الوزراء دون استشارهما أو حتى التظاهر علانيةً بالامتثال لنصيحة واشنطن. وكانت الحملة السياسية المُعَدّة لعزل حماس وتدميرها منظّمة من قِبَل اللوبي اليهودي إلى حدٍّ كبير؛ فقد نجح في ضمان تأييد شبه إجماعي في الكونغرس الأميركي ودعم واشنطن الكامل. ونجح كذلك في حمل إدارة بوش على ممارسة الضغوط على الاتحاد الأوروبي لمقاطعة حكومة حماس.

لا وجود لما يشير إلى تورّط بيغ أويل في الحملة الإسرائيلية لتطهير فلسطين من العرب. ولا دليل على أن إسرائيل كانت تعمل لصالح الاستراتيجيين الأميركيين. لكن، هناك عدد وافر من التقارير والوثائق والتصاريح والأعمال التي حصل عليها النظام الإسرائيلي ووسطاؤه الأميركيون وتشير إلى أن هؤلاء الاستراتيجيين فرضوا على

لا دليل على أن إسرائيل كانت تعمل لصالح الاستراتيجيين الأميركيين. لكن، هناك عدد وافر من التقارير والوثائق والتصاريح والأعمال التي حصل عليها النظام الإسرائيلي ووسطاؤه الأميركيون وتشير إلى أن هؤلاء الاستراتيجيين فرضوا على الولايات المتحدة المشاركة في التطهير.

الولايات المتحدة المشاركة في التطهير، وأعدّوا كل العملية وفقاً لوسائلهم التوتاليتارية وذلك خدمةً لاستراتيجيتهم الخاصة التي تضمن بلوغ 'الحل النهائي': حكم يهودي على الأراضي الفلسطينية بأكملها.

تبع اللوبي اليهودي بامتثال كل انعطاف وتحوّل في الدعاية الإسرائيلية على طريقها المتلوّية في اتجاه بلد كان يُدعى فلسطين في السابق ويقطنه اليهود دون غيرهم. فعلى سبيل المثال، ادّعت إسرائيل أنها غير قادرة على التفاوض مع الفلسطينيين لأنهم يرفضون الاعتراف بإسرائيل بالرغم من واقع أن عرفات نفسه أعلن في الثمانينيات أنه يفضّل حلاً قائماً على دولتَين. لقد تجاهل اللوبي تعهّد عرفات، ومن ثمّ وصف اقتراحه بغير الموثوق، وصادق بعد ذلك على دوره كمحاور شرعي في مفاوضات أوسلو بعد إقرار إسرائيل بأنه رجل دولة لا إرهابي. ... وبابتعاد شارون في النهاية عن الاتفاق الذي فقد لمعانه، انتقل اللوبي إلى وصف عرفات ثانيةً بالإرهابي ولام منظمة التحرير الفلسطينية بسبب عدم موافقتها على إنشاء بانتوستانات فلسطينية منفصلة.

لقد ادّعت الدولة اليهودية أنها غير قادرة على التعاطي مع نظام غير ديمقراطي وغير شرعي. وردّد اللوبي هذه المقولة كالببغّاء، واصفاً إسرائيل بأنها "الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" حتى وإن كانت دولة محتلّة وتمارس حكماً استعمارياً على أكثر من 3.5

مليون فلسطيني. وبعد الانتخابات الحرة التي فازت فيها حماس، رفضت الدولة الإسرائيلية النتيجة الديمقراطية؛ ونسي اللوبي خطابه الذي يغمز من قناة الديمقراطية وردّد أقاويل أسياده الإسرائيليين؛ السلطات المنتخَبة ديمقراطياً دون الحصول على موافقة تل أبيب هي غير مقبولة.

عندما أطلقت إسرائيل سلسلة من الإجراءات لتدمير الاقتصاد الفلسطيني وإعاقة الحياة التجارية والمالية، وافق اللوبي عليها على الفور وشجّع الولايات المتحدة على المشاركة فيها، وأيّد فرض عقاب جماعي على الشعب الفلسطيني بسبب عدم تمتّعه بالمسؤولية عندما دعم حكومة وطنية تميل إلى التخلص من الفساد.

عندما قامت إسرائيل ببناء جدار الفصل وأدانته المحكمة الدولية، دافع اللوبي عنه، مردّداً مقولة الدولة الإسرائيلية: إنه سياج أمني. ولا يمكن دحض الدليل على الدور الذي يلعبه اللوبي لصالح السياسة الإسرائيلية في كافة الظروف. ففي مواجهة كل الاعتبارات المنطقية، يمنح اللوبي تلقائياً دعماً لا نقاش فيه لانتهاكات إسرائيل على صعيد السلام، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وأحكام المحكمة الدولية، وقرارات الأمم المتحدة. وهذا الأمر صحيح بصفة خاصة عندما تتجاهل الدولة الإسرائيلية بشكل مفضوح السياسة الأميركية. ولا مجال للجدل في أن الولاءات السياسية الأساسية للّوبي هي لدولة إسرائيل.

إن دعم اللوبي اليهودي المخلص لهجوم إسرائيل على غزة يوضح ثانيةً أن إسرائيل تلقى دعم الأساتذة المحترَمين لكل جريمة ترتكبها، مهما كانت مروِّعة وشرّيرة، إضافةً إلى العاملين في الميدان

المصرفي الاستثماري، والصحافيين، والأطباء الجرّاحين، والمستشارين السياسيين، وأقطاب العقارات، والمحامين، والمدرّسين في المدارس، وأشخاص عاديّين آخرين يشكلون القاعدة الناشطة للمنظمات الرئيسية.

6- *إسرائيل وتبادل الأسرى: سجل الأحداث*

رفضت الحكومة الإسرائيلية والناطقون الأساسيون باسمها تكراراً المفاوضات الهادفة إلى تبادل الأسرى، داعيةً الطلب بأنه خيالي، *ابتزاز* ويشجع *الإرهاب* على الأرجح. وردّد مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية مقولة الدولة اليهودية وضخّمها بطريقة كان بالإمكان توقعها، وذلك طوال الاجتياح الإسرائيلي وعلى صفحات *الدايلي ألسيرت* التي كانوا يشنّون من خلالها حملتهم الدعائية. كانت صفحات الافتتاحيات في *الواشنطن بوست والنيويورك تايمز واللوس أنجلوس تايمز* مليئة بمقالات رأي لأعضاء أو داعمين للّوبي اليهودي (الموالي لإسرائيل) مؤيّدة للخط الإسرائيلي المعارض لتبادل الأسرى.

يوفّر السجل التاريخي للأحداث رواية مختلفة تماماً عن سياسة إسرائيل في ما يتعلّق بتبادل الأسرى والابتزاز. فقد عمدت إسرائيل في مناسبات عدة إلى التفاوض مع من دُعيوا إرهابيين فلسطينيين لتبادل الأسرى، وأتمّت الاتفاقات. وكما أعلنت إستير واشمن على نحو تأكيدي، وهي والدة جندي إسرائيلي توفّي أثناء عملية لإطلاق سراحه، (وكما يعلم كل شخص في إسرائيل)، "كل هذا الحديث عن عدم التحدث إلى الإرهابيين هو بلا معنى، ففي النهاية قاموا بإطلاق سراح سجناء فلسطينيين وأيديهم ملوّثة

بدماء ثلاثة جنود قتلى، وأطلقوا سراح الشيخ أحمد ياسين مقابل عميلَين للموساد"[1].

بصورة مماثلة، فإن سخط المسؤولين الإسرائيليين ومسؤولي اللوبي اليهودي على *الابتزاز* هو أمر مضحك، هذا إن لم يكن مأساوياً. تقوم إسرائيل باحتجاز أفراد عائلات الناشطين الفلسطينيين الرهائن المشتبَه بهم، وأقاربهم، والجيران بأكملهم، وذلك بشكل منهجي؛ حتى أن بعضهم يُسجنون ويعذّبون بهدف انتزاع معلومات منهم أو إجبار المشتبَه بهم على الاستسلام.

فإتهام ضحايا الجرائم التي يرتكبها الجلّادون أنفسهم هو سمة الأنظمة التوتاليتارية، كما قال ألبير كامو ذات مرة.

ويُطرح تساؤل مساوٍ في الأهمية حول ما يكمن وراء الدولة اليهودية ورياء اللوبي وأكاذيبه المرافقة لرفض التفاوض حول تبادل الأسرى: لِمَ رفض النظام الإسرائيلي التفاوض، وذلك بخلاف ممارساته السابقة؟ ويكمن تفسير تصلب إسرائيل في عدم رغبتها بإطلاق سراح جنديّها، أقلّه ليس قبل تدمير غزة وإعادة احتلالها. إن رفض التفاوض هذه المرة هو خطوة ساخرة ومحسوبة بشكل مدروس لإطالة أمد الاجتياح وإحكام الخناق على اقتصاد غزة بهدف تسريع الرحيل الطوعي للفلسطينيين والأعمال الفلسطينية. وتمّت

إن رفض التفاوض هذه المرة هو خطوة ساخرة ومحسوبة بشكل مدروس لإطالة أمد الاجتياح وإحكام الخناق على اقتصاد غزة بهدف تسريع الرحيل الطوعي للفلسطينيين والأعمال الفلسطينية.

---

(1) أخبار بي بي سي، 1 تموز/يوليو 2006.

التضحية بالعريف للصالح الأكبر الذي يسهم بإنشاء إسرائيل الكبرى؛ ففـي مـواجهة الصور العاطفية للشاب التي نشرتها وسائل الإعلام المتأثّـرة باللوبي، لم يكن هناك أي قلق حيال رفض الدولة اليهودية التفاوض لإطلاق سراحه.

لا يتمثّل الخطر بقيام التشدد الإسرائيلي بتوريط وسائل الإعلام والدولـة الأميركية فحسب، بل أيضاً بتلقين المجتمع المدني الأميركي الـذي يعاني من أنظمة الدولة البوليسية التي يضعها الحكام في البيت الأبـيض. وراء المـأزق الكـبير والمعاملات الظالمة التي يعاني منها الفلـسطينيون في غزة، ومشاركة الولايات المتحدة في ذلك، يكمن الـسؤال الأكـبر حول حرب جوّيّة جديدة ضد إيران. وإذا كانت إسرائيل قادرة على التسبّب باجتياح أميركي للعراق من خلال اللوبي الـيهودي وداعمـيه في الحكـومة، وإذا كانت قادرة على ضمان مـشاركة أميركـية وأوروبية في تدمير حكومة منتخَبة ديمقراطياً في فلسطين، وذلك في سياق تطهير عِرقي، واجتياح لبنان وتدميره، هل يمكـن للنفوذ بصيغته الحالية أن يؤدّي إلى هجوم واسع النطاق على إيران؟ السوابق موجودة، والآلية السياسية جاهزة. فهل الأمر متعلّق بالتوقـيت أو الذريعـة؟ هل يمكن لحدث أو قوة سياسية غير مرتقَبة الـتدخل لإحـباط القوة الصهيونية الماحقة؟ وتتمثّل الخطوة الأولى بشرح المسألة: تسمية الكتلة الفاعلة الموالية لإسرائيل، والكشف عن مسألة الولاء المزدوج، ومواجهة الحملات القاسية والمشوِّهة للسمعة والـصادرة عن عملاء الدولة الإسرائيلية، وبدء حملة تربوية وسياسية على نطاق واسع لوضع حدٍّ للجرائم الإسرائيلية ضد الإنسانية ودفاع اللوبي المُخزي عن الحل النهائي.

حملة دعائية إعلامية في خدمة التطهير العِرقي

كما يمكن التوقع انطلاقاً من ردود الفعل السابقة حيال معاملة إسرائيل الضارية للمراكز الفلسطينية الاجتماعية والمدنيين، كان رد فعل وسائل الإعلام حيال الهجوم الإسرائيلي الضاري منسجماً بالكامل تقريباً مع وجهات نظر اللوبي اليهودي. وقد اخترتُ تحليل أحد المصادر ذات السمعة الحسنة - المؤسسة البريطانية للإرسال بي بي سي بدلاً من وسائل الإعلام الناطقة باسم اللوبي بصراحة أكبر مثل *الواشنطن بوست*، و*اللوس أنجلوس*، و*التايمز*، و*النيويورك تايمز*، أو محطات الإذاعة والتلفزيون الأكثر صخَباً - لإيضاح المسألة. ففي 1 تموز/يوليو 2006، قدّم آلن جونستون، وهو مراسل أخبار بي بي سي في غزة، 'نظرة عامة' عن حالة الحرب[1]، وكانت خلفية الاجتياح الإسرائيلي قائمة على الفكرة الرئيسية لرواية الموالين لإسرائيل: "أفضل ما تملكه الحكومات سيتواجه هنا. وقد أقبلت حماس على المهمة ضامنةً أن إسرائيل ستكون مُثقَلة بالمشاكل".

كان موقف حماس - ما تمّ التعبير عنه من خلال سلوكها على الأقل - كالتالي: 1) دعم وقف لإطلاق النار مع إسرائيل لمدة سنة واحدة، بالرغم من الاغتيالات الإسرائيلية المستمرة؛ 2) المشاركة في أول عملية انتخابية حرة ومفتوحة؛ 3) عرض التفاوض حول التعايش مع النظام الإسرائيلي على أسس المساواة والاحترام المتبادَل، وهو أمر رفضته إسرائيل؛ و4) السعي وراء وسائل السلام، والاحتكام إلى الأمم المتحدة في مواجهة المقاطعة الإسرائيلية القاسية. بكلمات

(1) بي بي سي، 1 تموز/يوليو 2006.

أخــرى، قلــبت البي بي سي خلفية الاجتياح رأساً على عقب: هو موقف (وسلوك) إسرائيل العدائي والمحارب الذي "ضَمن أنها [حماس] ستكون مُثقَلة بالمشاكل".

جــاء في العــرض الثاني لخلفية الاجتياح الإسرائيلي في معرض دفــاع البي بي سي عن الاجتياح الإسرائيلي: "في الماضي، إستهدف المفجّرون الانتحاريون التابعون لحماس مدناً إسرائيلية، مُزهقين مئات الأرواح. لقد دعت حماس التفجيرات في المقاهي والحافلات مقاوَمة للاحتلال. لكن الغرب دعاه إرهاباً، وأقحم الحكومة الجديدة في عزلة اقتصادية ودبلوماسية، وهي ستبقى منبوذة على الصعيد العالمي إلى أن تقوم حماس بالتخلّي عن العنف والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود".

استعرضــت البي بي سي نشاطات حماس في الماضي، متجاهلةً أمــثلة أكثــر سوءاً عن الإرهاب الإسرائيلي، بما في ذلك الاجتياح الفتّاك للبنان الذي قتل 25.000 شخص، 1.400 منهم في مخيّم صبرا وشــاتيلا للاّجئين؛ وقيام إسرائيل بقتل أربعة أضعاف عدد المدنيين الفلــسطينيين الــذين ســقطوا خلال الانتفاضتَين؛ والقتل المنهجي للمُعــادين والمدعــوّ: *اغتــيال هادف*؛ أدانت الأمم المتحدة ومعظم الحكومات الغربية (باستثناء الولايات المتحدة) كل من هذه الأعمال. إذا كــان الــسلوك الــسابق للإرهاب معياراً لتقييم الأنظمة، فإن إســرائيل، إلى جانــب الولايات المتحدة، هما الدولتان المذكورتان بشكل متكرّر في غالبية استطلاعات الرأي الغربية على أنهما التهديد الأكــبر للــسلام. كان تأسيس إسرائيل بالذات قائماً على الترهيب والــتدمير العنــيف للفــنادق، والمقاهي، والمستشفيات، والمدارس، وممتلكات عربية واستعمارية أخرى. إن انشغال البي بي سي بالمقاهي

والحـــافلات الإســـرائيلية يتغاضى عن التدمير الإسرائيلي للمدارس والمستشفيات والمنازل الفلسطينية. وأيّاً يكن السلوك المرافق للاقتراع في الأمم المتحدة، تبقى إسرائيل الدولة المنبوذة دولياً بهامش 10 إلى 1 علــى الأقــل. وأقــرّت كــل الأنظمة الغربية مشاركة حماس في الانــتخابات، بمــا فيها واشنطن التي رحّبت في بادئ الأمر بالنتيجة الديمقراطية. ولم يكن حصار فلسطين الذي قادته إسرائيل، واللوبي، والــولايات المتحدة نتيجة لسلوك حماس في السابق، بل بسبب نتائج الانتخابات الحالية وانتقام إسرائيل من جمهور الناخبين الفلسطينيين، كما أكد مسؤولون إسرائيليون علانيّةً. علاوةً على ذلك، وكما أُشير إلــيه في وقت سابق، كانت حماس قد وافقت ضمناً على حل قائم على دولتَين، وذلك قبل أسبوع من الاجتياح الإسرائيلي ولدى توقيع حمــاس على اتفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية. والإطار المُجحف للبي بي سي مصمَّم لإلقاء اللوم على حماس، وهي ضحية الجرائم التي ترتكبها إسرائيل واللوبي والولايات المتحدة في حقها.

وفقــاً للــبي بي ســي، فالحظــر المفــروض من قِبَل اللوبي الإسرائيلي/الولايات المتحدة ليس موجَّهاً إذ ذاك ضد حكومة منتخَبة ديمقراطياً بل ضد إرهابيين. وتبرِّر الهجمات الإسرائيلية على فلسطين في فتــرة التمهــيد للاجتياح بأعمال حماس السابقة، متجاهلةً القتل الاســتفزازي لعــشرين مدنياً فلسطينياً خلال حزيران/يونيو 2006 الدمــوي. والإطــار الــذي اعتمدته البي بي سي لتحليل الاجتياح الإسرائيلي هو مكيدة جليّة لأمّة أُعيد استعمارها.

ويــتمّ تجاهــل إعــادة الاستعمار الإسرائيلية لغزة، والقصف، والحشود العسكرية قبل أسر الجندي الإسرائيلي، في النظرة العامة التي

أعـــدّتها البي بي سي. وبدلاً من ذلك، تقدِّم لنا أحداثاً مثيرة لمسرحية مسلـــسَلة من الدرجة الثالثة وُضعت في خدمة هجوم وحشيّ ضارٍ ضد 1.4 مليون أسير فلسطيني.

> كـــان مقاتلـــو حمـــاس بين أولئك الذين أغاروا على موقع عسكري على الحدود مع غزة يوم الأحد. ففي ضوء الفجر، خـــرجوا مـــن نفـــق، وفاجـــأوا طاقم دبّابة وهم نيام. قتل المهاجمون جنديَّين واقتادوا جلعاد شاليت البالغ من العمر 19 عامـــاً. وعـــندما تـــرون صور وجهه الشاحب على شاشة التلفـــزة، يـــسهل عليكم تصديق كل ما وُصف به: 'خجول، ذكي، وموهوب في الرياضيات'. هو 'ابن كل إسرائيلي في المنـــزل المجاور'. وها هم الآن يشاهدونه يعيش كوابيسهم. هـــو فـــي مكان ما في أعماق غزة بين أيدي عدوّهم الأكثر ترهيباً"[1].

وتسلّط البي بي سي الضوء على صورة قتلة عرب لطفل يخرجون مـــن تحـــت الأرض - شياطين حقيقيون - ويذبحون أطفالاً يشعرون بالـــنعاس وعلى وجوههم نَمَش (خدعة لربط الجنود الإسرائيليين ذهنياً بالأوروبـــيين، لا بالشعوب الساميّة- *العربية*). ولكن لم يَرِد أن هؤلاء القـــتلة كانوا قد أطلقوا آلاف القذائف على غزة عندما كانوا يمسحون الأفـــق بحـــثاً عن أي هدف متحرك. وهناك 9.000 سجين فلسطيني، العديد منهم مدنيون، وبعضهم شاحبو الوجه أو أسوأ من ذلك بسبب التعذيب الذي جُعِل قانونياً، كما أن عدداً كبيراً منهم أصغر سنّاً بكثير مـــن جلعاد ويضع بعضهم نظّارات، والعديد منهم خجولون وأذكياء

(1) بي بي سي، 1 تموز/يوليو 2006.

وموهوبـــون في الرياضـــيات. عاشـــت عائلاتهم الكابوس الإسرائيلي بالاحتجاز في أي مكان لمدة تتراوح بين عام وعشرين عاماً... لا أياماً قليلة كالعريف المنتمي إلى طاقم الدبّابة. وهناك ثلاثمئة طفل فلسطيني من الجـــوار لم يبلغوا الثمانية عشرة من عمرهم وهم يتعفّنون في السجون الإســـرائيلية؛ وهناك آلاف آخرون فقدوا بصرهم وأصيبوا بالشلل بعد إطـــلاق الإســـرائيليين الطلقـــات الحيّة عليهم بسبب احتجاجهم على الاحتلال. وبالنسبة إلى الإسرائيليين، يتمثّل الكابوس الإسرائيلي بتأمين دخـــل للفرد الواحد يبلغ 20.000 دولار، إضافةً إلى تجهيزات كهربائية لإضاءة المنـــزل، وأحواض للسباحة يتسكّعون حولها، وشواطئ لإلهاء أنفـــسهم عن الكابوس الذي يسبّبه لهم جندي إسرائيلي واحد قالت لنا الـــبي بي ســـي "إنه في خطر داهم" من قِبَل "المقاتلين الفلسطينيين" قتلة الأطفال. دون أي شعور بالعار، تُغفل البي بي سي ذكر الكابوس الحي الـــذي يعيشه سكان غزة البالغ عددهم 1.4 مليون شخص دون ماء، وصَرف صحي، وكهرباء، وهم عُرضة لوابل يومي من قذائف المدفعية والصواريخ...

ليس من الصعب إدراك أن البي بي سي ضمّنت روايتها الفكرة الصهيونية العِرقية القاضية بأن حياة إسرائيلي واحد تساوي أكثر من حـــياة 1.4 مليون فلسطيني، أو أن الكرب النفسي لمشاهدي التلفزة الإســـرائيليين هـــو أكثر أهمية من مئات آلاف العائلات الفلسطينية المهدَّدة بالإبادة الجسدية.

دعونا نقول إن دفاع البي بي سي عن الترهيب الإسرائيلي ليس أسوأ من الدعاية التي تتداولها الأخبار في بقية منشورات الاتجاه السائد الشهيرة في الولايات المتحدة.

ما هو ملفت للنظر في ما يتعلّق بالتحقيق الصحافي الذي أوردته وسائل الإعلام حول العدوان الإسرائيلي هو مدى قيام هذا التحقيق بتبرير وشرعنة الجرائم الأكثر شناعة بتصويراته الأكثر فظاظة ولغته المنافقة. و لم يُطلق البابا أو كوفي أنان أو أي مسؤول حكومي بارز آخر - باستثناء وزير الخارجية السويسرية - صرخة سُخط في مواجهة هذه الجريمة ضد الإنسانية. وهكذا، يظهر نفوذ جماعات الضغط اليهودية هنا وفي الخارج. فعندما اجتاح موسوليني أثيوبيا، رفعت عصبة الأمم أيديها و لم تفعل شيئاً. وعندما اجتاح هتلر تشيكوسلوفاكيا، دعا بعض الغربيين إلى التهدئة دون أن يفعلوا شيئاً. وعندما اغتصبت إسرائيل غزة، حثّتها واشنطن والاتحاد الأوروبي على المتابعة.

بما أن إسرائيل هي المعتدي، واللوبي اليهودي متورّط بعمق، ووسائل الإعلام تسلّط الضوء على وجه الأسير العسكري الإسرائيلي، فإن حركة السلام الأميركية لا تستجيب عملياً للكابوس الذي يراود الفلسطينيين. هذا، وبالرغم من واقع أن الفلسطينيين ناشطون، يدرك معظمهم قابلية وسائل الإعلام الرئيسية على ارتكاب أخطاء، وهم يتّكلون بانتظام على الإنترنت للاطّلاع على تحقيقات صحافية أقرب إلى الواقع.

حتى أن المُتنصّلين السيّئي السمعة من نفوذ اللوبي اليهودي (تشومسكي، بالاست، كلير، ألبرت، وعدد وافر من المفكرين التقدميين والصحافيين) سيتضايقون بشدة عندما يكتشفون أن مصلحة بيغ أويل مطمورة تحت رمال ودَبش المنازل المهدّمة في غزة. ولا يمكن كذلك ربط دعم الحكومة الأميركية للعدوان الإسرائيلي

علــى غزة بأي مصالح 'جيو-سياسية في الشرق الأوسط' كما قال البروفسور ستيفن زونس. ولكن تكلّم اللوبي وأصغت واشنطن: يجب دعــم إســرائيل، فأكاذيــبهم حقائق، واجتياحهم دفاعي، وكربهم واقعي، وحياتهم كابوس؛ والآخرون هم الإرهابيون.

يُديــر القطــاع الصغير المكتظّ بالسكان ظهره للبحر. ولكن الــشعب الفلــسطيني امتلك هذا القطاع طيلة أجيال لا تُحصى ولا تُعَدّ، وسيتطلّب الأمر قيام الجنود الإسرائيليين بإبادتهم جسدياً لإزالة وجودهم من هذه المنطقة.

خاتمة

بينما تشقّ آلة الحرب الإسرائيلية طريقها في اتجاه الحل النهائي، ســاحقةً كــل ما يعترض سبيلها تحت شمس الصيف الحارّة، تغدو حقــول القــتل في غــزة مُشبَّعة بالدم الفلسطيني. وفيما يزداد عدد الإصابات في صفوف الفلسطينيين كل يوم بالغاً العشرات وقد تجاوز عــدد القتلى المئات والجرحى الثلاثمئة في منتصف تموز/يوليو، يظهر دليل جديد على استخدام إسرائيل الإجرامي لأسلحة الدمار الشامل الكيميائــية والاختــبارية الرهيبة وغير القانونية. ففي 9 تموز/يوليو، نشرت وزارة الصحة الفلسطينية تقريراً صادراً عن الأطباء الجرّاحين في غــزة أظهــر أن "الإصابات الــ 249 كلها التي تسبّبت بها آلة الحرب الإسرائيلية خلال العملية في غزة... ناجمة عن شظايا قذائف ومتفجرات مطوَّرة حديثاً تسبّبت ببتر الأوصال وإصابة كل الأجزاء المتضرّرة بحروق". وفي مستشفى الشفاء، صرّح الدكتور السقّا (الذي يرأس خدمة الطوارئ في المستشفى) قائلاً، "*حتى أن أجساد المصابين*

أحرقت بأكملها تقريباً. لقد شُوِّهت بطريقة بشعة لم نرَ مثيلاً لها من قبل. وعندما حاولنا تصوير جثث القتلى بأشعة إكس، لم نجد أي أثر للشظايا التي أصابت الشخص المقتول. نحن واثقون من أن إسرائيل تستخدم سلاحاً كيميائياً أو مُشعّاً جديداً (الهجوم على غزة). وأكثر من 25 بالمئة من المصابين أطفال تحت سنّ السادسة عشرة"[1]. وفي اليوم التالي لانتهاء كأس العالم بكرة القدم، قتل الجنود الإسرائيليون أربعة مراهقين يمارسون لعبة كرة القدم في أحد الحقول.

ونظراً للحصانة التي تمنحها إياها الأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة، كثّفت إسرائيل هجماتها في غزة لدرجة تفجير مبانٍ سكنية مؤلّفة من ثلاثة طوابق ومليئة بالسكان، فقتلت امرأتين وطفلَين في 10 تموز/يوليو[2]. وكرّرت الحكومة الإسرائيلية دعاية الحرب المعتادة، مدّعيةً *أنهم يستهدفون الإرهابيين*". وكالعادة، ردّدت المنظمات الأميركية-اليهودية الرئيسية المقولة الإسرائيلية بأن "*لا وجود لأزمة إنسانية في غزة*"[3]. وحتى عندما أنكرت إسرائيل وجود أي أزمة، كانت تعمل على التضييق على المدنيين الأجانب (معظمهم أميركيون) من أصل فلسطيني لمنعهم من دخول الأراضي المحتلة، وذلك للمرة الأولى منذ العام 1967، ومن بينهم أطباء، ومهندسون، وصحافيون، وأكاديميون من سلالات فلسطينية يحملون الجنسية الأميركية أو الأوروبية، مفرّقةً إيّاهم عن أفراد عائلاتهم ومرضاهم وزملائهم العالقين في غزة. من الواضح أن

(1) الجزيرة، 11 تموز/يوليو 2006.
(2) الجزيرة، 10 تموز/يوليو 2006.
(3) دايلي أليرت، 12 تموز/يوليو 2006.

إسرائيل تقوم بكل ما هو ممكن لمنع كشف النقاب عن المستوى الذي بلغـــته حملتها الإرهابية في عزل الفلسطينيين عن بقية العالم، وتفريق العـــائلات بهدف إيجاد *الظروف*، كما سبق لشارون ورابين أن عبّرا عـــن ذلـــك بأســـلوب شـــاعري، عانيَين بذلك *المغادرة الطوعية* للفلـــسطينيين وبأعداد كبيرة. وبما لا يتناقض مع وحشيّتها السابقة، أســـقطت إسرائيل في 11 تموز/يوليو قنبلة زنتها طن واحد على مبنى سكني في منطقة مجاورة لغزة مكتظة بالسكان، فقتلت 23 فلسطينياً، أربعة عشر منهم مدنيون بمن فيهم تسعة من عائلة واحدة – الوالدة، الوالد وسبعة أطفال لم يتخطّوا عامهم السابع عشر.

بطريقة يمكن توقعها، يستمر منكِرو الحل النهائي أو 'الهولوكوست الفلسطينية' في وسائل الإعلام الأميركية، ولا سيّما في الصحافة اليهودية الموالية لإسرائيل، بالدفاع عن الاجتياح والقتل والدمار دون الشعور بحدٍّ أدنى مـــن الخجـــل بل بعنف المشاغبين الذين لا يمكن تحدّيهم والذين يدّعـــون الفضيلة والصلاح. وباستمرار الحملة الإسرائيلية القاتلة داخل غزة في إطار من الحصانة، إستخدمت إسرائيل نفوذها ضد اتحاد أوروبي ضـــعيف. ففـــي 7 تموز/يوليو، سجنت إسرائيل حسن كريشي، نائب رئـــيس اللجنة السياسية للأمن وحقوق الإنسان التابعة لتجمّع برلمانات الأورو–متوسطية (EMPA) وإسرائيل دولة عضو في ذلك التجمع. من الواضـــح أن عجز الاتحاد الأوروبي المكتشَف حديثاً، والذي يمنعه من انـــتقاد المذبحة الإسرائيلية في غزة بشكل صريح، شجّع حكام إسرائيل علـــى لقـــيام بعـــدوان أكثر دموية؛ لا يتوقف عند حدود غزة. ففي 12 تموز/يوليو، إجتاحت إسرائيل لبنان بعد حادث حدودي شارك فيه حزب الله، وأدّى هذا الحادث إلى أسر جنديَّين إسرائيليَّين ومقتل سبعة

جنود إسرائيليين ومدنيِّين لبنانيِّين. وبتزايد مقاومة الناس العادين في العالم العربي، تحركت آلة الحرب الإسرائيلية إلى ما وراء الحدود وإلى لبنان هذه المرة، وإلى سوريا وبلدان مجاورة أخرى على الأرجح حيث يبدو أن مقاومة الحل النهائي في ازدياد.

بالرغم من أن مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة وكتّاب صفحة الرأي في الصحف والمجلات الأميركية الكبرى والصغرى يدعمون بلا قيد أو شرط موقف الحكومة الإسرائيلية المعارض للتفاوض مع قيادة حماس المنتخَبة، إضافةً إلى قصفها الوحشي للمدنيين الفلسطينيين العالقين دون طعام أو ماء أو كهرباء في غزة، فإن 45 في المئة من اليهود الإسرائيليين يعتقدون أن الحكومة استخدمت قوة مُفرطة، ولا سيّما لدى توقيف مسؤولي حماس المنتخَبين، وأيّد 50 في المئة منهم إجراء مفاوضات مع حماس حول إطلاق سراح أسير الحرب الإسرائيلي، فيما عارض 42 في المئة المفاوضات(1). ووفقاً لرأي *الجيروزاليم بوست* حول نتائج استفتائها، فإن "*الناس في الإجمال أكثر انفتاحاً من القيادة على إمكانية الحوار مع حماس، وهي نتيجة أشارت إليها باطّراد استفتاءات مؤشّر السلام في الأشهر الأخيرة*"(2). ووفقاً للمعيار السياسي الذي تعتمده المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة، يجب أن تكون إسرائيل مليئة بمعادي السامية وكارهي أنفسهم أو بشعارات ازدرائية مماثلة أخرى تُطبَّق عادةً على المؤيّدين الأميركيين للاعتراف بحقوق الفلسطينيين وللتفاوض مع حماس.

---

(1) هاآرتس، 10 تموز/يوليو 2006.

(2) جيروزاليم بوست، 11 تموز/يوليو 2006.

الفصل الثامن

"الكلب المسعور" يخرّب لبنان

"يجب على إسرائيل أن تكون ككلب مسعور يشكل خطراً كبيراً لدى إزعاجه".

الجنرال موشيه دايان، وزير دفاع إسرائيلي سابق.

"أصدر قائد الجيش دان حالوتس الأمر للقوات الجوية بتدمير 10 مبانٍ متعددة الطبقات في منطقة الضاحية (في بيروت) رداً على كل صاروخ يُطلَق على حيفا".

إذاعة الجيش الإسرائيلي، 24 تموز/يوليو 2006.

"أظن أنه من المهم عدم الوقوع في شرك التكافؤ الأخلاقي هنا. ما قام به حزب الله هو خطف جنديّين إسرائيليّين وإمطار المدنيين الإسرائيليين بالقذائف الصاروخية وقذائف الهاون. فما قامت به إسرائيل رداً على ذلك هو دفاع عن النفس".

السفير الأميركي إلى الأمم المتحدة جون بولتون.

"يمكن اتهام القادة الإسرائيليين بارتكاب جرائم حرب".

لويز أربور، المفوضية العليا لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة، تموز/يوليو 2006.

"الحرب العالمية الثالثة... بدأت بالفعل. ما نشهده اليوم في الشرق الأوسط هو فصل منه".

دانيال غيليرمن، السفير الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة، تموز/يوليو 2006.

"إسرائيل هي التهديد الأكبر في نظر معظم الأوروبيين".

استفتاء أجراه الاتحاد الأوروبي في أوائل العام 2006.

كــان كريــستلناخت - وهو الهجوم النازي الذي استهدف المنازل والمتاجر اليهودية واليهود عام 1939 انتقاماً لقيام أحد اليهود بقــتل ضابط في السفارة الألمانية - بمثابة حفلة في حديقة مقارنةً مع

التدمير المستمر الذي تمارسه الدولة اليهودية في لبنان. وأدّى الانتقام النازي إلى قتل العديد من اليهود وإلحاق أضرار بالممتلكات بلغت عدة ملايين من الدولارات. وإن حصيلة ما قامت به إسرائيل من قتل ودمار في أول آب/أغسطس من العام 2006 شملت 282 قتيلاً مدنياً، و3200 جريح، و750.000 لاجئ (البعض يقول 900.000)، ومئات المباني السكنية المدمَّرة، وتدمير آلاف المنازل، والمدارس، والمعامل، وقنوات جر المياه، ومنشآت المياه والصرف الصحي، والكنائس، والمساجد، ومحطات إذاعة وتلفزيون، ومعظم الجسور والطرق العامة الرئيسية، والمطارات والمرافئ؛ في الواقع كل ما ومن يقف، أو يختبئ، أو يفرّ طلباً للسلامة.

تسبّب الحصار التام المتعمَّد الذي فرضته إسرائيل بالإضافة إلى التمشيط من خلال القصف الجوّي بكارثة إنسانية لنحو2.5 مليون لبناني، بمن فيهم اللاجئون الـ 750.000. ووفقاً *للفايننشل تايمز*، "كان الوضع الإنساني يزداد سوءاً بسبب حصار إسرائيلي بحري وجوّي، واستهداف الطرقات والجسور لإعاقة توزيع المعونات للاّجئين والناس الذين لم يفرّوا من ساحات القتال"[1]. ويخبر اللاجئون عن أيام من القصف الإسرائيلي، ونقص في المياه والطعام، وفترات انقطاع للتيار الكهربائي، وانقطاع خطوط الهاتف. وأكثر المظاهر شراً ما سرده العديد من اللاجئين حول كيفية قيام إسرائيل بإعلامهم في بادئ الأمر بوجوب المغادرة، ومن ثمّ قصفهم وهم في طريقهم إلى برّ الأمان"[2]؛ حتى أن المعونات والمساعدات الإنسانية

(1) فايننشل تايمز، 25 تموز/يوليو 2006، الصفحة 3.
(2) المرجع نفسه.

كانت مستهدَفة. وكما جاء في *الغارديان* البريطانية في 25 تموز/يوليو 2006:

> كانت المصابيح الأمامية لسيارات الإسعاف مضاءة، وكان الضوء الأزرق في الأعلى يومض وضوء آخر يضيء علم الصليب الأحمر عندما سقط الصاروخ الإسرائيلي الأول وقطع الساق اليمنى للرجل الموضوع على حمّالة. وبينما كان يصرخ تحت النار والدخان، كان المصابون والمسعفون يتدافعون طلباً لملجأ آمن، زاحفين على العشب في الظلام. ومن ثمّ، أصاب صاروخ آخر سيارة الإسعاف الثانية.

لكن لم يكن للأمر أهمية. فكل المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة وأوروبا وكندا تعهّدت بالولاء للدولة الإسرائيلية وأيّدت جرائمها ضد الإنسانية على غرار كل وسائل الإعلام؛ فهي تؤثّر أو تتحكم في الكونغرس، والفرع التنفيذي، واتحادات نقابات العمال في الولايات المتحدة. وكُرّرت في معظم الأحيان 'الكذبة الكبيرة' في وسائل الإعلام والأوساط السياسية التي اعتبرتها واقعاً مقبولاً، وتمثّلت بقيام إسرائيل بعمليات انتقامية. وإذا عدنا إلى التاريخ نكتشف أن حزب الله هاجم في 12 تموز/يوليو 2006 آليتين للجيش الإسرائيلي على الحدود مع لبنان؛ هدف عسكري لا يحمل أي معنى مدني. وبعد هذا الحادث العسكري المحدَّد مباشَرةً، أصدر رئيس الوزراء أولمرت أمراً بشن حملة قصف كبيرة على أهداف مدنية على امتداد لبنان. وبعد قيام إسرائيل بعملية تمشيط من خلال قصف جوي استهدف المدنيين والبنيات التحتية المدنية في كل لبنان، ردّ حزب الله في 14 تموز/يوليو 2006 بقصف مدن

إسرائيلية. وفي هذا التاريخ، شرعت دعاية اللوبي اليهودي وماكينة نفـــوذه بانتقاد بوش بسبب قلقه على الحكومة اللبنانية التي سعى البيت الأبيض بجهد لتثبيتها[1].

لقـــد هـــاجم أبـــراهام فوكسمن، وهو المدير الوطني للتجمع المـــناهض لتشويه السمعة، بوش بحدّة بسبب طلبه من تل أبيب عدم إضـــعاف رئـــيس الـــوزراء اللبناني السنيورة. وحرّك مؤتمر رؤساء المـــنظمات الـــيهودية الرئيسية مجموعاته الـــ 52، وغيّر بوش موقفه بـــسرعة ونـــسي اللبنانـــيين. وحثّت إسرائيل والمجموعات الـــ 52 الـــولايات المـــتحدة على تزويد قاذفات القنابل الإسرائيلية بالقنابل الخارقـــة للتحصينات بهدف إسقاطها على بلد أعزل ولا يتمتّع بقوة جوية فاعلة. وضغط الإيديولوجيون البارزون في اللوبي اليهودي لقيام الـــولايات المتحدة بقصف إيران وسوريا اللذَين يوجّهان حزب الله؛ آملـــين في أن تـــبدأ الحـــرب العالمـــية الثالثة التي أشار إليها السفير الإسرائيلي غيلرمن.

امـــتدّ إجماع المنظمات اليهودية الرئيسية على دعم أعمال القتل الإثني اليهودية ليشمل منظمات السلام الإسرائيلية في 'زمن السلام' والتقدمـــيين، مـــثل آموس أوز، الذين طلبوا من منظمات السلام في إســـرائيل رصّ الصفوف دعماً لجزّاري بيروت، وذلك باسم الدفاع عن إسرائيل.

بإســـراع واشـــنطن بمدّ إسرائيل بتجهيزات جديدة من القنابل والـــصواريخ الدقيقة زنة 5 أطنان، فإن ما قام به القادة الإسرائيليون من تدمير للمنازل المدنية والشقق السكنية والبنية التحتية لا يترك مجالاً

(1) فوروورد، 14 تموز/يوليو 2006.

للـــشك في أن الأهداف محتسَبة بدقة[1]. وبما أن الصواريخ الموجَّهة بدقـــة متناهية تلعب دوراً أساسياً في استراتيجية إسرائيل العسكرية، يتّـــضح لـــنا أن القصف الشهير للمستشفيات، والمساجد، وقوافل اللاجئين، وسيارات الإسعاف، والطرقات العامة، والشطرين المسلم والمـــسيحي مـــن بـــيروت، ومـــدن أخرى، هو جزء متمّم لتلك الاستراتيجية.

قبل عام من الحرب على لبنان، كشف ضباط كبار في الجيش الإسرائيلي للمؤسسات الاستشارية والدبلوماسيين والصحافيين في واشنطن عن معلومات حول الاجتياح القادم.

يجـــادل البروفـــسور خوان كول بشكل مُقنع قائلاً إن الحرب على لبنان خُطّط لها طيلة عام على الأقل، ذاكراً مـــا كشف عنه ضباط كبار في الجيش الإســـرائيلي للمؤسسات الاستشارية والدبلوماسيين والصحافيين في واشنطن من معلومات حول الاجتياح القادم[2].

الذريعـــة الإسرائيلية المتمثلة بتحرير جنديَّين مأسورين هي أمر مُضحك نظراً للهجوم الكبير والفوري، وللدمار المستمر الذي يطال كـــل لبـــنان، بما في ذلك مناطق واسعة من لبنان الأوسط والشمالي حيث تواجد حزب الله محدود جداً، هذا إذا كان هناك وجود له في تلك المناطق.

يتعيّن علينا بصعوبة تجاهل السياق التاريخي للقصف الإسرائيلي والقتل غير المبرَّر للّبنانيين. فطيلة سنوات عدة، حثّ اللوبي اليهودي البـــيت الأبيض والكونغرس على نـــزع سلاح حزب الله وتدميره.

---

(1) أخبار بي بي سي، 23 تموز/يوليو 2006.

(2) انظر إلى http://www.juancole.com، 23 تموز/يوليو 2006.

ولبلوغ ذلك الهدف، كان من الضروري تغيير واقع القوى على الأرض في لبنان من خلال إجبار السوريين على الخروج؛ أُنجز هذا الأمر بنجاح عبر اغتيال سياسي لبناني بارز (الحريري) ومن ثمّ إلصاق التهمة بأجهزة المخابرات السورية. وبالرغم من أن عملية الاغتيال هذه لا تخدم المصالح السورية كما ثبت، فلم يُقدَّم أبداً أي دليل يُثبت ضلوع السوريين فيها، وكانت شهادة كاذبة تمّ التراجع عنها في وقت لاحق الدليل الوحيد. وبعد مغادرة سوريا، أُلقي القبض على قاتل لبناني مأجور يعمل لصالح جهاز المخابرات الإسرائيلية، الموساد، من قِبَل الشرطة اللبنانية المعادية لسوريا، وأقرّ بارتكاب عمليات اغتيال عديدة في حق مواطنين لبنانيين يستهدفهم الإسرائيليون.

بخروج سوريا من لبنان، ضمنت واشنطن صدور قرار متحيّز عن الأمم المتحدة يدعو إلى نزع سلاح حزب الله، وذلك دون أي تنازل إسرائيلي عسكري أو حدودي (كإعادة مزارع شبعا اللبنانية التي تحتلها إسرائيل) أو إعادة الأسرى اللبنانيين الذين كانوا يقاسون في السجون الإسرائيلية منذ فترة طويلة. ومنح ذلك القرار الدولي بعد ذلك، وهو القرار الوحيد الذي لم تعترض عليه إسرائيل لأسباب جليّة، غطاء للاجتياح الإسرائيلي الذي حوّل لبنان إلى دولة مثيرة للشفقة كأفغانستان بعد أن كانت قبل أيام الجمهورية المتوسطية النابضة بالحياة. وكانت استراتيجية إسرائيل واضحة: فقد سعت إلى عزل حزب الله في العالم، ضامنةً تأييد الأمم المتحدة عبر واشنطن التي ضمنها اللوبي بعد ممارسة ضغط على إدارة بوش، واضعةً نصب عينَيها الترويج لنزاع داخلي في لبنان بين حزب الله والحكومة اللبنانية يمكن للولايات المتحدة/الأمم المتحدة التدخل من خلاله لصالح جماعتها في بيروت.

بفشل حساباتها، قررت إسرائيل، وبالتشاور مع واشنطن، شن هجوم فتّاك ومباشَر على لبنان بحجة إطلاق سراح الجنديَّين الأسيرَين وحاجتها إلى إزالة حزب الله. ونجم عن الهجوم العسكري الإسرائيلي إمكانيات مستقبلية مؤاتية تُضاف إلى تدمير حزب الله المعادي للإمبريالية، وإحدى هذه الإمكانيات هي عزل سوريا وإيجاد الذريعة لمهاجمتها مع إيران إذا قدّمتا المساعدة للّبنانيين. وتتمثل الإمكانية الثانية باعتبار واشنطن الاجتياح الإسرائيلي وسيلة لتحويل انتباه الرأي العام العالمي المذعور عن الاحتلال الأميركي الإبادي للعراق. كذلك سعت إدارة بوش إلى ضمان استمرار تأثير وسائل الإعلام القوية التابعة للّوبي اليهودي دعماً للاحتلال الأميركي للعراق عندما كانت غالبية المواطنين الأميركيين تناهض هذا الاحتلال باطّراد. أخيراً، وبالموافقة على تزويد إسرائيل بأسلحة كالقنابل التي تبلغ زنتها 5 أطنان، سعى الجمهوريون والديمقراطيون إلى ضمان حملة جمع الأموال من مؤيّديهم السياسيين اليهود الذين يملكون ملايين ومليارات الدولارات. وفي سياق السباق الذي لا يمكننا إغفاله للاستئثار بقلوب وعقول مؤيّدي إسرائيل، قام هوارد دين، وهو زعيم الحزب الديمقراطي - كان ذات مرة مستفيداً من حملة على الإنترنت قام بها التقدميون الداعمون لبلوغه سدة الرئاسة، وذلك بالاستناد إلى إدانته للحرب على العراق - باستقطاب انتباه وسائل الإعلام لدى انتقاد رئيس الوزراء العراقي بشدة، متّهماً إيّاه بأنه معادٍ للساميّة بسبب رفضه التنديد بحزب الله.

بالنسبة إلى إسرائيل، كان الهجوم العسكري موجَّهاً لتدمير *كل لبنان*، فحوّلته إلى قَفر اقتصادي بينما كانت تمارس سياسة التطهير

العرقي من خلال طرد المدنيين اللبنانيين من جنوب لبنان، مسهّلةً إعلان الجنوب اللبناني منطقة عمليات عسكرية؛ يقوم الإسرائيليون بقصفها متى شاؤوا، قاتلين أشخاصاً وتاركين إيّاهم مُلقَين على الأرض بعد اعتبارهم متعاطفين مع حزب الله، إضافةً إلى ناشطين وعاملين في الميدان الاجتماعي، وأطباء، ومقاتلين. كانت الاستراتيجية تقضي بتفريغ البركة (جنوب لبنان والضاحية الجنوبية لبيروت؛ اللذان يحتويان ربما على 40 في المئة من سكان البلد) لالتقاط السمكة (حزب الله). (حزب الله هو حركة شعبية سياسية واجتماعية ينضوي تحت لوائها عدد كبير من اللبنانيين، وهو يوفر، من ضمن أشياء أخرى، خدمات اجتماعية للسكان المحليين التي تُعتبر من أفضل الخدمات المقدمة من قِبَل الحركات الاجتماعية-السياسية التقدمية). وفي إطار العملية، سعت إسرائيل إلى إيجاد نظام تابع لها في لبنان وإيقاف التأييد المعنوي والمادي الذي يمنحه حزب الله لحكومة حماس المنتخَبة بصورة ديمقراطية في فلسطين.

في سياق الأحداث، سقطت الافتراضات الإسرائيلية والأميركية. فقد أضعف القصف الإسرائيلي الكثيف الحكومة اللبنانية القريبة من الولايات المتحدة وجعل الغالبية العظمى من اللبنانيين يتخذون جانب حزب الله. وكان بالإمكان استباق هذه النتيجة بالتأكيد، وذلك بسبب فشل العقوبات الجماعية التي فُرضت على سكان العراق بهدف تأليبهم ضد صدام حسين. وبغياب الحكومة اللبنانية بالكامل، تولّى حزب الله مهمة نقل الضحايا إلى المستشفيات، وتأمين الطعام ومواكب إخلاء النازحين، وتوفير القليل من الارتياح لكافة اللبنانيين؛ بصرف النظر عن انتماءاتهم. وتجاهلت

الدولة اليهودية منذ البدء تحذيرات واشنطن بوجوب احترام المدنيين (اللبنانيين) والبنية التحتية المدنية، وكانت إسرائيل مُدركة تماماً لسعي اللـــوبي اليهودي إلى ضمان إشراك واشنطن في عملية القتل الجماعي وتقويض النظام التابع لها.

لدى الاصطدام بواقع الاختيار بين الدفاع عن نظام لبناني محافظ أو دعـــم حرب إسرائيلية شاملة، لم يكن هناك أدنى شك بأن البيت الأبيض سيدعم اللوبي وتل أبيب دون تردد.

إذا أخطـــأت الولايات المتحدة التقدير في ما يتعلق بالتدخل الدقـــيق لإسرائيل، فإن الدولة اليهودية من جهتها بالغت في تقدير قـــدرتها على إخضاع حزب الله من خلال القصف. وباشر النظام الإســـرائيلي بعد ذلك بشن حرب بريّة كانت مُكلفة جداً له في المـــناطق الوعـــرة من جنوب لبنان. وللمرة الأولى، كانت هناك إصـــابات عسكرية إسرائيلية متعاظمة على نطاق واسع؛ ولم تكن العـــائلات اللبنانـــية البريئة وغير المسلّحة التي تستهدفها الطائرات والطوافات الإسرائيلية تلقى حتفها فقط بل الجنود الإسرائيليون أيضاً.

وبمهاجمـــة جنود إسرائيليين وأسر اثنَين منهم، كان حزب الله يـــسعى إلى مـــدّ يد العون الإنساني لفلسطينيّي غزة المحاصَرين الذين كانـــوا يعانون من ضربات مطرقة الاجتياح الإسرائيلي والاغتيالات اليومية. ولم يكن لأي من سوريا أو إيران أي تأثير في قرار حزب الله بـــرفع الضغط الإسرائيلي عن الفلسطينيين. ووفقاً للعديد من الخبراء في إيـــران، "اتّبعت إيران أسلوباً براغماتياً في سياستها الخارجية ولم ترغب في الدخول بمواجهة مع إسرائيل"[(1)]. وجادل خبير آخر قائلاً

(1) فايننشل تايمز، 18 تموز/يوليو 2006، الصفحة 3.

إن: "إيــران لم تكــن تــبحث عــن افتعال أزمة في لبنان بينما تمرّ دبلوماسيتها النووية بمرحلة حاسمة"[1]. وأشار خبير في شؤون حزب الله إلى أنــه "لم يكن بالإمكان تخيّل قيام إيران بإصدار أمر لحزب الله لأسر جنود إسرائيليين، فقادة حزب الله ليسوا ممّن يتلقّون الأوامر من مكان آخر"[2]. ولا يستثني هذا الأمر بالطبع الدوافع المنطقية المتمثلة بضمان تبادل سجين ببعض السجناء السياسيين اللبنانيين الذين كانت إسرائيل قد اعتقلتهم، ويعود تاريخ اعتقال بعضهم إلى أكثر من عقد مــن الــزمن، إضافةً إلى تحرير الأراضي اللبنانية التي ما زالت تحت الاحتلال الإسرائيلي.

بمهاجمة لبنان والتركيز على حزب الله، سعت إسرائيل إلى عزل الحكومة الفلسطينية أكثر فأكثر وإكمال سياستها القائمة على قصف الــشعب الفلــسطيني بهدف التسبب بهجرة جماعية طوعية. وخلال الأســبوعين الأوّلَين من القصف على لبنان، إستمرت إسرائيل بحملة الاغتيال والقصف في غزة والضفة الغربية، قاتلةً ومشوّهةً عدداً كبيراً مــن المدنيين والأطفال ومقاتلي المقاومة. وبرفع الخسائر في صفوف المدنــيين (إلى حــوالى 500)، والدمار (إلى حوالى ملياري دولار)، وتهجير 750.000 مدني على الأقل في لبنان حتى 27 تموز/يوليو 2006 ، تمكّــنت إسرائيل من صرف انتباه وسائل الإعلام الموالية لإسرائيل عــن أعمــال القتل اليومية وإصابة عشرات الفلسطينيين. وكانت التغطية الإعلامية للإبادة الجماعية في لبنان في أسوأ حالاتها؛ ولم تكرّر وســائل الإعلام التلفزيونية – سي بي أس، أن بي سي، أي بي سي،

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

ســـي أن أن، والإذاعة العامة الوطنية، والصحافة المحترَمة – الدعاية الإســـرائيلية فحسب في ما يتعلق "بالصواريخ الموجَّهة بدقة عالية... مدمّرةً غرف حزب الله المحصَّنة تحت الأرض"، بل ركّزت أيضاً على العـــدد الكـــبير مـــن القتلـــى والإصابات في صفوف الإسرائيليين؛ وإعـــتمدت في بعض الأحيان على مواد إخبارية تعود لأيام خلت، محاولةً تسليط الضوء على المعاناة الإسرائيلية لتتلاءم مع الواقع اليومي في لبنان حيث يسقط قتلى مدنيون، ويصاب الآلاف، ويغدو الملايين مـــشرَّدين دون كهرباء أو ماء ويستمرّون مع ذلك بالتعرّض لأطنان القـــنابل التي يُسقطها قادة الطائرات الإسرائيلية دون رحمة، باحثين كمـــا زُعِـــم عـــن 'الغرف المحصَّنة تحت الأرض'، ولكنهم كانوا يستهدفون في الواقع مجمّعات سكنية متعددة الطوابق. "ثلث إصابات اللبنانـــيين على الأقل هم أطفال"، هذا ما قالته جان إيغلند من الأمم المتحدة بعد معاينة ميدانية؛ وأقل من عشر الإصابات هم من مقاتلي حـــزب الله. وفي مـــواجهة عمليات القصف الكبيرة التي استهدفت المدنـــيين، وصفت وزيرة الخارجية الأميركية الدمار الحاصل بمخاض ولادة الـــشرق الأوســـط الجديد، تماماً كما برّر أسلافها في الرايخ الثالث قصف لندن إبّان الحرب العالمية الثانية.

في 24 تمـــوز/يوليو 2006، نشرت *الدايلي أليرت*، وهي النشرة الإخبارية لمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الرئيسية، مقالات لمـــدافعين عـــن الاجتياح الإسرائيلي الدموي. ولم يصدر أي انتقاد لتشريد 750.000 لاجئ على الأقل من منازلهم، ولم يُشَر بكلمة إلى تـــدمير الشقق السكنية، ولم يرد، وإن بشكل عابر، ذكر مقتل أكثر مـــن 100 طفل؛ بل فقط اقتباسات للرئيس بوش يعارض فيها وقف

إطـــلاق النار، وللسفير بولتون اليميني المتطرف ’الذي يضع مصالح إســـرائيل قبل مصالح الولايات المتحدة‘ (سفير الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة) مدافعاً عن القصف الترهيبـــي الذي تمارسه إسرائيل، وبحـــادلاً أن عـــدد الصواريخ القليلة نسبياً التي سقطت في إسرائيل شكّلت قلقاً أكبر من تدمير بنية لبنان التحتية بأكملها، وتلويث خطه الـــساحلي بالكامل، وقتل وتشويه آلاف المدنيين وثلثهم أطفال... ودعمـــت الافتتاحيات في *الواشنطن بوست*، و*اللوس أنجلوس تايمز*، و*وول ســـتريت جـــورنال*، و*النيو ريبابليك* حمّام الدم الإسرائيلي. واتّـــبعت افتتاحيات في *الواشنطن بوست*، و*وول ستريت جورنال*، و*ميامي هيرالد* الخط الذي يتّبعه اللوبي.

لقد وجهت آلة الدعاية الضخمة اليهودية والموالية لإسرائيل إلى وســـائل الإعـــلام الأميركية رسائل تطلب فيها تأييداً غير مشروط لأعمـــال القتل الإسرائيلية، وتنكّراً للمعاناة اللبنانية، وتبريراً للدمار الذي لا مبرّر له، وقد وصفت ’كلاب إسرائيل المسعورة‘ (إشارة إلى موشـــيه دايـــان) هذه الممارسات بأنها عمل دفاعي بطولي. ولم يُبالِ أحـــد باعتراضـــات الأميركيين الذين روّعتهم الأعمال الإسرائيلية الوحـــشية أو شـــعروا بتعاطف مع الضحايا، وقد تعرّضوا للمهاجمة والـــسخرية. (سخر طوني سنو، الناطق الصحفي للبيت الأبيض، من هـــيلين توماس المتمرّسة، وهي من أصل لبناني وفي العقد التاسع من العمـــر، ناعـــتاً إيّاهـــا بأنها ’صوت حزب الله‘). أما حركة السلام الأميركـــية التي منعها التقدميون اليهود من إهانة إسرائيل فتحتضر. ومـــرة أخرى، أفلتت إسرائيل من المحاسبة على ما ترتكبه من جرائم لأن داعميها السياسيين ما وراء البحار يهيمنون على وسائل الإعلام.

ويركع الكونغرس الأميركي مُذعناً لإملاءات اللوبي، ويتصرف طاقم البيت الأبيض بأكمله كأنهم سُعاة لدى وزارة الخارجية الإسرائيلية، في حين تشيّع إسرائيل بدورها أنها مُنحت الإذن من الولايات المتحدة للتصرف بهذه الطريقة؛ ضاربةً كل التفاصيل بعرض الحائط دون الشعور بأي قلق حيال ما سيتسبّب به ذلك من إحراج علني (وخاص) للذين أحسنوا إليها.

إن الإذعان الأميركي ومشاركته في أعمال القتل الإثني في غزة وفي تدمير لبنان، وذلك دون أي نقاش داخلي في الكونغرس ووسائل الإعلام أو حتى في ما يُدعى 'حركات السلام'، يشير بصراحة ووضوح إلى الكبت الذي يتسبّب به النفوذ الإسرائيلي في الولايات المتحدة وإلى الضرر الهائل والمستمر بحرياتنا الديمقراطية الأساسية. ويُفترَض بالوقوف في وجه الإرهاب التوتاليتاري والتواطؤ الأميركي أن يكون عملاً انعكاسياً عادياً معبّراً عن اللياقة والأصول، وهو اليوم تعبير عن الشجاعة في ظل لوبي منتشر، علماً أن تأثيراته قد تطال آلافاً قليلة من متتبّعي وسائل الإعلام.

إن المفهوم الإسرائيلي المتعلق بوقف إطلاق النار الذي كرّره اللوبي الإسرائيلي كالببغاء وتقيّأته وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس للقادة اللبنانيين كان أول من سمح لإسرائيل بإكمال عملية تمشيط لبنان بالقصف الجوي بواسطة القنابل الأميركية ذات الأطنان الخمسة التي كانت قد شُحنت حديثاً، ضارباً بعرض الحائط التماسات رئيس الوزراء اللبناني بتحقيق وقف فوري لإطلاق النار[1].

(1) فاينشل تايمز، 25 تموز/يوليو 2006.

وما إن دمّرت إسرائيل البلد بالكامل، حتى اقترحت واشنطن تشكيل 'قــوة دولــية' تتشارك مع الجيش اللبناني الانتشار في جنوب لبنان (الذي كان ما يزال تحت الاحتلال الإسرائيلي). ومن ثمّ افتُرض مباشرة 'القــوة الدولــية' بنــزع سلاح حزب الله بالكامل وإبعاد مقاتلي حزب الله ومؤيّديه البالغ عددهم نصف مليون شخص عن الجنوب، وبالقوة. عندها، يمكن لإسرائيل التفكير مليّاً بوقف لإطلاق النار.

من الواضح أن داء الكَلَب الذي كانت إسرائيل مصابة به مُعد وقــد أثّر على ما تبقّى من الخلايا الرمادية في البيت الأبيض. ووفقاً *للنــيويورك تايمز*، لم تكن هناك أي التزامات بإنشاء 'القوة الدولية' المقتــرَحة: "أعلــنت الولايات المتحدة أن مشاركة جنودها أمر غير وارد، وأشــار الــناتو إلى أنه غير قادر على تأمين قوات، وشعرت بــريطانيا بأن جنودها ملتزمون في أماكن أخرى من العالم، وأعلنت ألمانــيا أنها راغبة في المشاركة إذا وافق حزب الله على ذلك"[(1)]. من جهــة ثانــية وبنتيجة اتّباع إسرائيل سياسة الأرض المحروقة ومقاومة حــزب الله العنــيدة، لم يكن أي جندي لبناني راغباً في العمل على تحقيق شروط إسرائيل، كما رفض القادة اللبنانيون المحافظون احتلالاً أجنبــياً. أضف إلى ذلك أمراً آخر وهو الأكثر أهمية، وهو استعداد حــزب الله لخــوض حرب عصابات طويلة ومقاومة - وكان قادراً على ذلك - لم تواجه إسرائيل مثيلاً لها على الإطلاق لجهة التنظيم، والمعــنويات، والقدرة العسكرية. ووفقاً لنيكولاس بلاندفورد، المحلل في *جاينــز ديفانس ويكلي*: "هم (حزب الله) مسلّحون بشكل جيد، ومتمرّســون في القتال منذ التسعينيات مع ما يملكون من حوافز. إنها

(1) نيويورك تايمز، 24 تموز/يوليو 2006.

استراتيجية ماو تسي تانغ في حرب العصابات القاضية بالتراجع لدى تقدم العدو والتقدم لدى تراجع العدو"[1].

ووفقـــاً لخبير آخر في شؤون حزب الله، "إنهم يعملون في خلايا صغيرة منفصلة، ولا تعرف خلية ما تقوم به الأخرى... هذه البنية غير المركزية هي جزء من الفعّالية العسكرية للحزب"[2]. لقد قامت القوة العـــسكرية لحـــزب الله البالغة حوالى 7.500 مقاتل بحفر أنفاق تحت الأرض، على غرار الفييتناميين في ما مضى، على امتداد جنوب لبنان، وبنوا مستودعات أسلحة متطوّرة. وبخلاف الجيوش العربية السابقة التي كانـــت تشهد عمليات تسلل غزيرة إلى صفوفها والتي كانت تخوض 'حروباً مستمرة' تحت إمرة قيادات مركزية إلى حدٍّ بعيد، عمل حزب الله في مجمـــوعات صغيرة لامركزية تتحرك بسرعة، وتتخذ إجراءات فعّالـــة ضد المخبرين الإسرائيليين. لقد كان حزب الله ينتظر حدوث اجتياح على نطاق واسع لخوض حرب عصابات في الجبال وفي أرض يعـــرفها جـــيداً. ووفقاً لأمين عام حزب الله حسن نصرالله، "عندما يدخل الإسرائيليون، سيكون عليهم دفع ثمن باهظ بدبّاباتهم وضباطهم وجنودهم"[3]. وكان من الواضح أن إسرائيل لن تفوز 'بحرب في سبعة أيـــام'. وحـــتى في الأيام العشرة الأولى، كتب ألون بن-ديفيد، وهو مراســـل *جاينـــــز ديفانس ويكلي*، لقد تكبدت القوات العسكرية الإسرائيلية خسائر فادحة لدى اندفاعها شمالاً داخل لبنان.

(1) مذكـــور في مقالـــة كريـــستيان هندرســـن، "حزب الله يُثبت قدرته على الاحتمال"، الجزيرة، 25 تموز/يوليو 2006.

(2) سعد غريّب مذكور في الجزيرة، 25 تموز/يوليو 2006.

(3) الجزيرة، 25 تموز/يوليو 2006.

خاتمة

بفضل نفوذ اللوبي الأميركي-اليهودي وقدرة المنتسبين إليه في العالم، ضمنت الحكومة الأميركية موافقة القوى العالمية في إجتماعها الذي انعقد في روما بتاريخ 26 تموز/يوليو 2006 على إطلاق العنان للكلاب المسعورة في إسرائيل لإكمال سياسات الإبادة الجماعية في لبنان وغزة، وهو ما رحّب به الناطق بلسان مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية[1]. ونظراً للجهود التي بذلها *القادة الأعلى مرتبة* في اللوبي لإحباط أي معارضة للإبادة الجماعية، يُفترَض منح أهمية خاصة لواقع أن إجتماع روما حدث بعد أقل من 24 ساعة من قيام إسرائيل بقتل 4 جنود من قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة (قُطعت رؤوسهم)، وبشكل متعمَّد، بعد استهداف مخيَّمهم مباشَرةً؛ حتى بعد تلقّيها (أي إسرائيل) أكثر من عشرة اتصالات هاتفية مضطربة من عناصر قوة حفظ السلام الدولية المحاصَرين، وذلك أثناء الهجوم الإسرائيلي بالصواريخ وقذائف الدبابات[2]، أشاروا فيها إلى تعرّضهم للقصف والتمسوا وقف عملية استهدافهم. حتى أن أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان لم يكن قادراً على تحمّل الادّعاءات الإسرائيلية بارتكاب خطأ. وقد أدّى تصريحه الذي قال فيه إن الإسرائيليين هاجموا بشكل متعمَّد مراقبي الأمم المتحدة غير المسلَّحين في مركزهم الموسوم بعلامة واضحة إلى نوبات من السخط في إسرائيل وفي أوساط المروّجين لمصالح إسرائيل في الولايات المتحدة.

---

(1) دايلي أليرت، 27 تموز/يوليو 2006.

(2) أخبار بي بي سي، 25 تموز/يوليو 2006.

ولا داعٍ للقول إن اللوبي اليهودي الأميركي دعم تلقائياً المذبحة التي ارتُكبت في حق عناصر قوة السلام الدولية ونشر طلب دان أفالون، السفير الإسرائيلي إلى الولايات المتحدة، بوجوب 'اعتذار' الأمين العام أنان عن اهاماته 'التي لا أساس لها'[1]. وفي تلك الأثناء، استمرت الصحافة المحترَمة بقيادة *الواشنطن بوست* الصهيونية بتأمين فسحات لافتتاحيات حصرية وأخبار خاصة بالمدافعين عن الإبادة الجماعية التي ترتكبها إسرائيل في لبنان. وجادل ديفيد ريفكين الإبن ولي أي. كاسي قائلَين (وبالمنطق نفسه المعتمَد حيال غزة) إن القصف الرهيب الذي يتعرض له لبنان على نطاق واسع "لا يتخطى إطار حق إسرائيل"، وقدّما حججاً قانونية زائفة ومتداخلة كانت لتجعل غوبلز يحمرّ خجلاً[2]. ولا حاجة للقول إنه قد بلغنا أن الكاتبَين عملا في وزارة العدل إبّان حكم ريغن وقد بذلا قُصارى جهدهما لإثبات منافع حقول القتل في أميركا الوسطى.

بعد إشاعة تأكيد إسرائيل على أنها مُنحت الإذن للقيام بعملياتها، همّشت الصحافة التغطية الإعلامية لرافضي هذه المقولة في الاتحاد الأوروبي ووزارة الخارجية الأميركية اللذَين وصفا تلك الجرائم بالشنيعة.

لقد فسّرت إسرائيل والصحافة المُذعنة على الفور إجتماع روما بأنه منح إسرائيل الإذن لارتكاب كافة أنواع الجرائم الشنيعة التي تحظّرها شُرعة الأمم المتحدة في فقرة "جرائم ضد الإنسانية". ومن جهة ثانية، فإن التغطية الناجحة لرافضي مقولة منح

(1) دايلي أليرت، 26 تموز/يوليو 2006.

(2) واشنطن بوست، 25 تموز/يوليو 2006.

الإذن هــذه - ليس فقط وزير الخارجية الفنلندية الذي كانت بلاده تــرأس الاتحــاد الأوروبي، بــل أيضاً متحدث أعلى بلسان وزارة الخارجــية الأميركــية، وقد وصف الجرائم بالشنيعة - هُمِّشت إلى أقصى حدّ.

وبــتحوّل انتباه العالم إلى الإبادة الجماعية في لبنان، كانت الآلة العسكرية الإسرائيلية مستمرة بقتل أطفال ومدنيين فلسطينيين. وجاء في تقرير لرويترز أن 19 فلسطينياً قُتلوا، بمن فيهم 3 أطفال تحت سن الــرابعة، وجُرح 60 شخصاً[1]. وارتفعت حصيلة القتلى والجرحى الفلــسطينيين أثناء الهجوم الذي شنّته الدولة اليهودية طيلة شهر إلى أكثــر من ألف؛ وبالكاد ذُكر الأمر في الصحافة، وكأن الفلسطينيين الذين تمّت التضحية بهم منذ زمن طويل لقوا مصيرهم المحتوم، في حين أن اللبنانــيين الذين يتمّ استهدافهم منذ مدة وجيزة ما زالوا يجهلون مصيرهم، ويستحقون لذلك تغطية إعلامية أكبر...

وانضمّ مناصرو السلام الإسرائيليون إلى حفلة الحرب كما كان حــال معظم أتباعهم، علماً أن يوري أفنيري الماكر والمخلص لم يحذُ حــذوهم. وأظهر استفتاء نشرته صحيفة معاريف اليومية الإسرائيلية أن 82 في المــئة دعموا العدوان المستمر، وقال 95 في المئة إن تحرك إسرائيل مبرَّر[2]. وبما أن إسرائيل تُعتبر بصورة عامة ديمقراطية مقتصرة علــى مواطنيها اليهود، يمكننا الإشارة بأمان إلى أن الغالبية الساحقة مــن الــيهود الإسرائيليين *شركاء مطّلعون* على الجرائم التي ترتكبها إســرائيل ضد الإنسانية *وراغبون في حدوثها*. (هل تمكّن غولدهاغن

---

(1) رويترز، 26 تموز/يوليو 2006.

(2) أخبار بي بي سي، 27 تموز/يوليو 2006.

من الحصول على إجماع 95 في المئة من الألمان لصالح التطهير العِرقي النازي؟) بشكل مماثل، عُبّئت الغالبية العظمى من المنظمات الصهيونية وناشطيها في الولايات المتحدة وأوروبا بهدف ضمان الدعم الأميركي للإبادة الإسرائيلية الجماعية. وكبتت الهيمنة المستبدة للّوبي اليهودي الذي يحتكر وسائل الإعلام الذعر المكتوم وأصوات العديد من المواطنين الأميركيين المناهضين لهذه الهيمنة. وكأن اجتياح العراق الذي روّج له اللوبي كان مقدمة صريحة للدعم الأميركي للاجتياحات الإسرائيلية في الشرق الأوسط، ويهدف إلى إثارة حروب كبرى مع إيران وسوريا.

ملحق

بعد يومين من موافقة إسرائيل على وقف لإطلاق النار بمسعى من الأمم المتحدة وبتأييد الولايات المتحدة وفرنسا، شنت إسرائيل هجوماً بواسطة رجال الكوماندوس في عمق شمالي لبنان، محاولةً اغتيال أحد قادة حزب الله.

ومرةً أخرى، رُدّ الإسرائيليون على أعقابهم بعد سقوط قتيل وجريحَين في صفوفهم، ومقتل ثلاثة مقاتلين من المقاومة.

كان بالإمكان توقع رد فعل اللوبي اليهودي الذي أيّد هذا الانتهاك الفاضح لاتفاق وقف إطلاق النار، وبدا الاتفاق على شفير الانهيار نظراً إلى التهديدات الصريحة التي أطلقتها إسرائيل بالمضيّ بمهاجمة مجموعات المقاومة في مختلف أنحاء لبنان.



القسم الثاني

إسرائيل والحرب في الشرق الأوسط

الفصل التاسع

حرب إسرائيل مع إيران

الحريق المدمّر المقبل على الشرق الأوسط

مقدمة

أعلنت القيادة السياسية والعسكرية في إسرائيل تكراراً وبصراحة استعدادها لمهاجمة إيران في المستقبل القريب. وقد جعل مؤيّدوها المؤثّرون في الولايات المتحدة من سياسة الحرب الإسرائيلية أولى أولوياتهم في المساعي التي يبذلونها لضمان تأييد الرئاسة والكونغرس. إن الحجج المتعلّقة بالتهديد النووي الإيراني التي تذرّعت بها الحكومة الإسرائيلية وردّدها الأتباع في الولايات المتحدة غير مبنيّة على وقائع ماديّة، وقد أثارت معارضة وشكوكاً في مختلف أنحاء العالم، وذلك في أوساط الحكومات الأوروبية، والوكالات الدولية، ومعظم القادة العسكريين والشعب في الولايات المتحدة، وصناعة النفط العالمية، وفي دوائر إدارة بوش أيضاً.

سيكون لشن غارة إسرائيلية جوية على إيران عواقب عسكرية كارثية على القوات الأميركية إذ قد تتسبّب بخسائر فادحة بالأرواح في العراق، وتُشعل على الأرجح عنفاً سياسياً وعسكرياً ضد الأنظمة العربية-المسلمة الموالية للولايات المتحدة ممّا يؤدّي ربما إلى الإطاحة بها. ومما لا شك فيه أن استعدادات

إســرائيل للحــرب هــي الــتهديد المباشَر الأكبر للسلام العالمي والاستقرار السياسي.

استعدادات إسرائيل للحرب

لم يُعلَن قبل الآن عن حرب وشيكة، وبهذا الصخَب، كما هو حــال الحــرب التي تنوي إسرائيل القيام بها ضد إيران. فعندما سُئل رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، دان حالوتس، عن المدى الذي بلغه اســتعداد إســرائيل للــذهاب إلى إيران ووضع حدٍّ لبرنامج الطاقة الــنووية، قــال "ألفــا كيلومتر"؛ وهي مسافة التحليق الجوّي[1]. وكــشفت مصادر الجيش الإسرائيلي بصفة خاصة عن قيام شارون بإصدار الأوامر للقوات المسلحة في إسرائيل للاستعداد لغارات جويّة علــى مواقع تخصيب اليورانيوم في إيران[2]. ووفقاً *للندن تايمز*، مرّر وزير الدفاع الإسرائيلي أمر الاستعداد للمهاجمة إلى رئيس الأركان. وخلال الأسبوع الأول من شهر كانون الأول/ديسمبر، "... أكدت مصادر في قيادة القوات الخاصة رفع درجة الجهوزية إلى مستوى G- وهو الأعلى - استعداداً للعملية"[3].

في 9 كانون الأول/ديسمبر 2005، أكد وزير الدفاع الإسرائيلي شــاؤول موفاز أنه نظراً لخطط إيران النووية، يُفترَض بتل أبيب "ألاّ تعــتمد على المفاوضات الدبلوماسية بل الاستعداد لحلول أخرى"[4].

(1) فاينننشل تايمز، 12 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(2) تايمز، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(3) تايمز، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(4) لا جورنادا، 10 كانون الأول/ديسمبر 2005.

وفي أوائـــل الـــشهر عيـــنه، أخبر أرون زئيف فركش، وهو رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية، البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) بأنه "يمكنـــنا القـــول إن الجهود الدولية اتخذت مداها الطبيعي إذا كان المجـــتمع الدولي غير قادر على إحالة المسألة الإيرانية إلى مجلس الأمن الدولي قبل آخر شهر آذار/مارس"(1).

بـــصريح العـــبارة، إذا فشلت المفاوضات الدبلوماسية الدولية في الاستجابة لجدول مواعيد إسرائيل (الذي مُدِّد)، ستقوم إسرائيل بمهاجمة إيـــران بـــشكل أحادي. وصرّح بنيامين نتنياهو، زعيم حزب الليكود والمرشح لمنصب رئاسة الوزراء آنذاك، قائلاً: "عندها سنقوم بما قمنا به في الماضـــي ضـــد مفاعل صدّام عندما أُشكل الحكومة الإسرائيلية الجديدة (بعد انتخابات آذار/مارس 2006) إن لم يتخذ شارون إجراء ما ضد إيران"(2). كانت إسرائيل قد قصفت مفاعل تموز النووي في العـــراق في حزيـــران/يونيو 1981. حتى أن صحيفة *هاآرتس* الموالية لحـــزب العمل، وافقت على تصريح نتنياهو وإن لم توافق على توقيت البـــيان ومكان صدوره. لقد انتقدت *هاآرتس* "أولئك الذين ينصحون علانـــيةً بخيار عسكري إسرائيلي..." لأن ذلك "يُظهر إسرائيل وكأنها تحث الولايات المتحدة (من خلال المنظمات القوية الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة) على شن حرب كبيرة". ولكن *هاآرتس* أضافت... "يـــتوجب علـــى إسرائيل الشروع في استعداداتها بهدوء وإحكام، دون

إذا فشلت المفاوضات الدبلوماسية الدولية في الاستجابة لجدول مواعيد إسرائيل، ستقوم إسرائيل بمهاجمة إيران بشكل أحادي.

(1) تايمز، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(2) تايمز، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

استخدام الأمر كمادةً انتخابية لاستقطاب الأصوات"[1]. لقد كان موقف *هاآرتس* مماثلاً لموقف حزب العمل في وجوب عدم قيام إسرائيل بتأييد شن حرب ضد إيران قبل انتهاء المفاوضات المتعددة الجوانب واتخاذ الوكالة الدولية للطاقة الذريّة قراراً في هذا الشأن.

بكلمات أُخرى، فإن جدال النخبة في إسرائيل لم يكن حول الذهاب إلى الحرب أم لا بل حول *مكان* مناقشة خطط الحرب ووقت شنّ الحرب. لقد اعترفت *هاآرتس* ضمناً بالدور الذي لعبته المنظمات الموالية لإسرائيل في "دفع الولايات المتحدة إلى الحرب مع العراق"، وقد وجدت أنه من الصوابية بمكان إضافة كلمة احتراس من المعارضة الأميركية المتزايدة لنشاطات المروّجين لمصالح إسرائيل أولاً في الكونغرس (انظر إلى الفقرات التالية).

من الواضح أن الرأي العام الإسرائيلي لم يشاطر النخبة السياسية خططها المتعلقة بتوجيه ضربة عسكرية إلى البرنامج النووي الإيراني. أظهر تقرير *لرويترز* (16 كانون الأول/ديسمبر 2005) حول استفتاء نشرته صحيفة *يديعوت أحرونوت* الإسرائيلية أن 58 في المئة من الإسرائيليين المستفتَين يعتقدون أنه يُفترَض معالجة الجدال حول البرنامج النووي الإيراني دبلوماسياً، في حين أن 36 في المئة قالوا إنه يجب تدمير المفاعلات بواسطة ضربة عسكرية.

الموعد الأخير لحرب إسرائيل

أعلن كل المسؤولين الإسرائيليين ذوي المناصب المرموقة نهاية آذار/مارس 2006 موعداً أخيراً لشن هجوم عسكري على إيران.

---

(1) هاآرتس، 6 كانون الأول/ديسمبر 2005.

كانــت الفكرة من تحديد هذا التاريخ زيادة الضغط على الولايات المــتحدة لفرض مسألة العقوبات على مجلس الأمن. كان هذا الموعد بمــثابة تكتيك لابتزاز واشنطن من خلال التهديد بــ "الحرب وإلاّ" بهــدف الضغط على أوروبا (أي بريطانيا العظمى، وفرنسا، وألمانيا، وروسيا) للموافقة على العقوبات ضد إيران.

تعــرف إســرائيل أن أعمالها الحربية ستعرّض آلاف الجنود الأميركيين في العراق للخطر، وهي تعلم أن واشنطن (وأوروبا) لا يمكــنهما تحمّــل حــرب ثالــثة في هذا الوقت. وتزامنت نهاية آذار/مــارس أيــضاً مع التقرير الذي تقدّمت به الوكالة الدولية للطاقة الذريّة إلى الأمم المتحدة حول برنامج إيران للطاقة النووية. لقــد اعتقد صانعو السياسة الإسرائيليون أن تهديداتهم قد تنعكس علــى التقريــر، أو تــؤدّي علــى الأقل إلى ظهور تعابير ملتبسة فــيه يمكــن لمــؤيّديها مــا وراء البحار استغلالها بهدف الترويج لعقــوبات يقــوم مجلس الأمن بفرضها أو تبرير العمل العسكري الإسرائيلي.

إن تحديد شهر آذار/مارس موعداً أخيراً زاد من حدّة النشاطات الــسياسية للمنظمات الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة. وتمكّنت جماعــات الــضغط الرئيــسية الموالــية لإسرائيل من جمع غالبية في الكونغرس للضغط في اتجاه قيام مجلس الأمن بفرض عقوبات اقتصادية علــى إيران، أو تأييد عمل إسرائيلي دفاعي إذا فشلوا في ذلك. لقد جُــنِّدت لهذه الغاية آلاف الجماعات الوطنية والمحلية الموالية لإسرائيل بهدف الترويج لبرنامج العمل الإسرائيلي عبر وسائل الإعلام وزيارات إلى ممثّلي الشعب في الكونغرس الأميركي.

يـــستغلّ بـــرنامج عمل الحرب أيضاً الجدالات التكتيكية بين المدنـــيين المُشبعين بالروح الحربية داخل البيت الأبيض، وبين تشيني وبولـــتون وأبرامـــز من جهة، ورايس ورامسفيلد من جهة أخرى. ولطالما أيّد الخط الذي اتّبعه تشيني هجوماً عسكرياً إسرائيلياً، في حين تـــروّج رايس لتكتيك *الفشل القسري* الذي يتّبعه المسار الدبلوماسي الأوروبي قـــبل اتخـــاذ قرار في شأن عمل حاسم. ويخشى رامسفيلد الـــذي يخضع عملياً لضغط هائل من كافة المسؤولين المحترفين ذوي المـــراتب العلـــيا من أن تؤدّي حرب إسرائيلية إلى رفع وتيرة ازدياد الخـــسائر العـــسكرية الأميركية. ويرغب اللوبي الموالي لإسرائيل في اســـتبدال رامسفيلد بالسيناتور جوزف ليبرمان، وهو من المتحمّسين لتقديم مصالح إسرائيل على سواها بلا قيد أو شرط، وكلاهما مشبَعان بالـــروح الحـــربية. ولم تقـــع الحرب بعد بالطبع ولكن التهديد رفع مـــستوى الـــضغط الذي تمارسه واشنطن على مجلس الأمن لفرض عقوبات اقتصادية مؤلمة على إيران.

تباينات أميركية-إسرائيلية حول حرب ضد إيران

فيما كثّفت إسرائيل وجماعات الضغط اليهودية جهودهما لإثارة مـــواجهة اقتـــصادية وعسكرية أميركية مع إيران، ظهرت إلى العلَن الجـــدالات بـــين أصحاب النفوذ في واشنطن. وامتدّت النـــزاعات والهجمـــات المتـــبادَلة لتطال مؤسسات الدولة وحديث الناس. يمثّل مـــؤيّدو ومعارضو سياسة الحرب التي تتّبعها إسرائيل شرائح مقتدرة من مؤسسات الدولة والمجتمع المدني. ويقف إلى جانب سياسة الحرب الإســـرائيلية عملـــياً كل المنظمات اليهودية الرئيسية الأكثر تأثيراً،

وجماعات الضغط الموالية لإسرائيل، ولجان العمل السياسي التابعة لها، وجـزء من البيت الأبيض، وغالبية الممثّلين في الكونغرس إضافةً إلى قـادة الـولايات والأحـزاب والقـادة المحليين الذين يموّلهم اللوبي الـصهيوني. ويقف في الجانب الآخر قطاعات من البنتاغون، ووزارة الخارجـية، وأقليّة من أعضاء الكونغرس، وغالبية الرأي العام، وأقليّة مـن الـيهود الأميركيين (اتحاد اليهود الإصلاحيين)، وغالبية القادة العسكريين الناشطين والمتقاعدين الذين خدِموا وما زالوا يخدمون في العراق.

لقد هيمنت المنظمات الموالية لإسرائيل التي تنقل مواقف الدولة الإسـرائيلية على معظم النقاش والجدل الجاري في الولايات المتحدة حول برنامج عمل إسرائيل الحربي. وجاء في تقرير للصحيفة اليهودية الأسبوعية *فوروورد* حدوث عدد من الهجمات الإسرائيلية على إدارة بـوش بـسبب عـدم التصرف بصورة أكثر عدائية لصالح سياسة إسـرائيل. ووفقاً *لفوروورد*، "القدس قلقة أكثر فأكثر من عدم بذل إدارة بوش جهوداً كافية لمنع طهران من امتلاك أسلحة نووية..."[1]. وظهرت فوارق كبيرة أثناء الحوار الاستراتيجي النصف السنوي بين مـسؤولين إسـرائيليين ومسؤولين أمنيين أميركيين، عارض خلالها الإسـرائيليون سعياً أميركياً لتغيير النظام في سوريا مخافة نشوء نظام إسـلامي أكثـر راديكالـية. وانتقد المسؤولون الإسرائيليون أيضاً الولايات المتحدة لأنها تُجبر إسرائيل على الموافقة على فتح معبر رفح، ممّا يفسد عملية إحكام الخناق على الاقتصاد في غزة.

(1) فوروورد، 9 كانون الأول/ديسمبر 2005.

كان بالإمكان توقع قيام المنظمة اليهودية الأكبر في الولايات المتحدة، وهو مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة، بترداد مقولة الدولة الإسرائيلية على الفور كما كان حالها على الدوام منذ تأسيسها. ووبّخ مالكولم هونلن، رئيس المؤتمر، واشنطن بسبب "تخلّيها عن قيادة مسألة إيران وتلزيمها لأوروبا"[1]. وبلغ حدّ مهاجمة إدارة بوش بسبب عدم تقيّدها بمطالب إسرائيل، وذلك بإرجاء تحويل المسألة الإيرانية إلى مجلس الأمن الدولي لفرض عقوبات عليها. ومن ثمّ ارتدّ رئيس المؤتمر على المفاوضين الفرنسيين والألمان والبريطانيين متّهماً إيّاهم "بالضعف واسترضاء إيران" وبافتقارهم إلى "خطة عمل حاسمة"؛ على الأرجح بسبب عدم تقيّدهم بإجراء إسرائيل الحاسم والقاضي 'بفرض عقوبات على الإيرانيين أو قصفهم'.

لقد كان دور آيباك، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة، ومنظمات أخرى موالية لإسرائيل، في الترويج لمخططات حرب إسرائيل المولَعة بالقتال جليّاً لدى قيامها في 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2005 بإدانة منح إدارة بوش روسيا فرصة التفاوض مع إيران حول خطة يُسمَح لها بموجبها بتخصيب اليورانيوم تحت إشراف دولي لضمان عدم استخدام اليورانيوم المخصَّب لغايات عسكرية. لقد كان رفض آيباك المفاوضات وطلبها حدوث مواجهة فورية مرتكزاً على الذريعة الخادعة بأن من شأن هذا الأمر "تسهيل سعي إيران وراء أسلحة نووية"؛ وهي حجة تحدّت كل البيانات المخابراتية المعروفة (بما في

(1) فوروورد، 9 كانون الأول/ديسمبر 2005.

ذلـــك البيانات المخابراتية الإسرائيلية) التي تقول إن أمام إيران ما بـين 3 و10 ســنوات على الأقل قبل أن تتمكن من صنع أسلحة نـووية. غالــباً مـــا يعبِّر عن نقل آيباك للطلبات الإسرائيلية غير المــشروطة وانــتقاداتها بلغة المصالح الأميركية أو الأمن الأميركي بهــدف تحويــر سياسة الولايات المتحدة بمهارة. وبناءً على ذلك، عاقــبت آيباك نظام بوش بسبب تعريضه الأمن الأميركي للخطر. وانطلاقـاً مـــن المفاوضات، إتهمت آيباك إدارة بوش "بمنح إيران فرصـــة إضـــافية أخـــرى لتعديل [حرفيًا] موقف المجتمع الدولي" و"تشكيل خطر داهم على الولايات المتحدة"[1].

عـــارض ناطقون أميركيون بلسان إسرائيل توجيه الرئيس بوش تعليمات إلى سفيره في العراق، زلماي خليل زاد، لفتح حوار مع سفير إيـــران لدى العراق. وبالإضافة إلى ذلك، فإن رد الفعل الإسرائيلي الرسمـــي 'المــتحفّظ' مـــن قيام روسيا ببيع صواريخ دفاعية مضادة للطائـــرات لطهـــران بقيمة مليار دولار تحمي إيران من غارة جويّة إسرائيلية، كان بالإمكان التوقع بقيام المنظمات اليهودية الرئيسية في الـــولايات المتحدة بترداده. وممّا لا شك فيه أن أحد الأسباب الهامة لقـــيام إســـرائيل بتحديد موعد أخير مُبكر لهجومها العسكري على إيـــران هـــو اســـتباق نـــشر إيران نظام جديد للمراقبة عبر الأقمار الاصطناعية وإعداد نظامها الصاروخي الدفاعي الجديد ليكون صالحاً للاستخدام.

إن دفع الولايات المتحدة إلى مواجهة مع إيران من خلال فرض عقـــوبات اقتـــصادية وشن هجوم عسكري كان من أولى أولويات

(1) فوروورد، 9 كانون الأول/ديسمبر 2005.

إسرائيل ومؤيّديها في الولايات المتحدة لأكثر من عقد من الزمن[1]. تعتقد آيباك أن الجمهورية الإسلامية تشكل تهديداً كبيراً لتفوّق إسرائيل في الشرق الأوسط. وانسجاماً مع سياستها القائمة على الحث على مواجهة أميركية مع إيران، نجحت آيباك، ولجان العمل السياسي الإسرائيلية، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة، في تأمين غالبية في الكونغرس لتحدّي ما وصفته باسترضاء إيران. ووفقاً *للجويش تايمز*، "إذا بلغنا حدّ شنّ معركة سياسية، فإن الدلائل توحي بأن آيباك ستلقى دعماً كبيراً في الكونغرس بهدف الضغط على البيت الأبيض للمطالبة بفرض عقوبات على إيران"[2].

إن النائب ليانا روس-لتينن (عن الحزب الجمهوري في ولاية فلوريدا) التي كان هناك التباس حيال تعاونها مع الجماعات الكوبية الإرهابية في المنفى ودعمها اللامشروط لسياسة الحرب التي تعتمدها إسرائيل، هي رئيسة اللجنة الفرعية المؤثّرة والمنبثقة عن مجلس النواب الأميركي. ومن ذلك المنبر، ردّدت موقف مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة المتعلق بالاسترضاء الأوروبي لإيران وتسليح النظام الإرهابي فيها"[3]. وروس-لتينن هي "الراعي الوحيد لمشروعَي قرار أساسيَّين لآيباك في الأشهر الأخيرة: قانون دعم الحرية في إيران الذي أقرّه مجلس النواب الشهر الماضي [نيسان/إبريل 2006]، وقانون مناهضة الإرهاب الفلسطيني الذي من

(1) جويش تايمز/جويش تلغراف إيجنسي، 6 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(2) جويش تايمز، 6 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(3) جويش تايمز، 6 كانون الأول/ديسمبر 2005.

المـــتوقّع إقراره في المستقبل القريب"[1]. ويقترح قانون دعم الحرية في إيـــران، إتش آر 282، "محاسبة النظام الحالي في إيران على سلوكه المهدِّد، ودعم التحوّل إلى الديمقراطية في إيران".

لقـــد تقدّم السيناتور ريك سانتوروم بمشروع قانون مماثل إلى مجلـــس الـــشيوخ في شباط/فبراير 2005 "يشرّع العقوبات وأعمال المـــراقبة والقوانين ذات الصلة ضد إيران؛ ويوسّع قائمة الأمور التي يمكـــن فرض حظر عليها وفقاً لقانون العقوبات الخاص بإيران وليبيا؛ ويُجيـــز منح 10 ملايين دولار لمساعدة الجماعات الموالية للديمقراطية والمعارضـــة للنظام الإيراني الحالي"[2]. ومن المثير للاهتمام ما أوردته *فيلادلفـــيا دايلي نيوز* بتاريخ 22 أيار/مايو 2006 بأن السيناتور ريك سانتوروم هو على رأس قائمة المواطنين البارزين التي تضم أعضاء في الكونغرس تلقّوا أموالاً من جماعات الضغط خلال الدورة الانتخابية الممـــتدة بين عامَي 1998 و2004. "ربما يُفترَض بناخبين ومراسلين صحافيين البدء بطرح مزيد من الأسئلة حول ما قد يكون سانتوروم قام به في مقابل كل تلك الأموال" إختتمت *فيلادلفيا دايلي نيوز*[3].

يـــتخذ نفوذ اللوبي الموالي لإسرائيل والمؤلّف من آيباك، ومؤتمر رؤســـاء المنظمات اليهودية الرئيسية، ولجان العمل السياسي، ومئات

(1) تـــيد سيفر، "عضوة في الكونغرس موالية لإسرائيل تخاطب آيباك"، ذا جويش أدفوكيت، 12 أيار/مايو 2006.

(2) رون ســـتروم، "الـــتقدّم بمـــشروع قانـــون يـــدعم الحـــرية في إيـــران"، WorldNetDaily.com. مـــن المثير للاهتمام أن السناتور ريك سانتوروم هو على رأس القائمة.

(3) ويـــل بـــانش، "أموال ممارسي الضغوط: هو الرقم 1!"، فيلادلفيا دايلي نيوز، 22 أيار/مايو 2006.

المنظمات المحلية الرسميّ منها وغير الرسمي، حجماً أكبر من خلال ما تمارسه من تأثير وسيطرة على الكونغرس، ووسائل الإعلام، والمؤسسات المالية، وصناديق معاشات التقاعد، والمنظمات المسيحية المتشددة. وضمن الفرع التنفيذي، يتخذ نفوذ اللوبي حجماً أكبر لدى التأثير في هذه المؤسسات متخطياً عددها وسيطرتها المباشَرة وحجم تمثيلها في المؤسسات الاستراتيجية العامة والخاصة (هو أمر هائل بحدّ ذاته). ويُدرِج "تقرير آيباك حول التقدم والسياسة في العام 2005" - منشور على موقع الوِب الخاص بها- 3 مليارات دولار على صورة معونة مباشَرة، وأكثر من 10 مليارات دولار على صورة ضمانات قروض، ونقل التكنولوجيا العسكرية الأكثر تطوّراً إلى شركات تصدير الأسلحة لإسرائيل بقيمة تبلغ عدة مليارات من الدولارات، وحشد 410 أصوات في مقابل صوت واحد في مجلس النواب ممّا يُلزم الولايات المتحدة بضمان أمن إسرائيل؛ *كما حدّدتها إسرائيل*؛ هذا، بالإضافة إلى ما أنجزته على صعيد حمل الكونغرس على الموافقة على 100 مشروع قانون يصبّ في مصلحة إسرائيل.

يتخذ نفوذ اللوبي الموالي لإسرائيل والمؤلّف من آيباك، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، ولجان العمل السياسي، ومئات المنظمات المحلية الرسميّ منها وغير الرسمي، حجماً أكبر من خلال ما تمارسه من تأثير وسيطرة على الكونغرس، ووسائل الإعلام، والمؤسسات المالية، وصناديق معاشات التقاعد، والمنظمات المسيحية المتشددة.

يجب وضع النزاع القائم بين النخبة الإسرائيلية وإدارة بوش في سياق أوسع، وقد بلغ هذا النزاع حداً ظهر فيه إلى العلَن. فبالرغم من الهجمات الموالية لإسرائيل على السياسة الأميركية بسبب

مـــا تُظهره من 'ضعف' حيال إيران، إتخذت واشنطن مواقف عدائية مـــن إيـــران بقـــدر ما تسمح به الظروف. وفي مواجهة المعارضة الأوروبـــية لحـــدوث مجابهـــة فورية (طالبت بها آيباك والسياسيون الإسرائيليون)، دعمت واشنطن المفاوضات الأوروبية ولكنها فرضت شروطاً مقيِّدة للغاية كانت مناقضة لشروط معاهدة الحدّ من انتشار الأســـلحة التي تسمح بتخصيب اليورانيوم لغايات سلمية. ولم تكن التـــسوية الأوروبية المتمثّلة بإجبار إيران على تسليم عملية التخصيب لـــبلد أجـــنبي (روسيا) انتهاكاً لسيادتها فحسب، بل أيضاً سياسة لا يتّبعها أي بلد آخر يستخدم الطاقة النووية.

نظـــراً إلى أن هـــذا الـــتفويض غير مقبول بشكل صريح، من الواضـــح أن 'دعم واشنطن للمفاوضات' كان دعاية مبتكَرة لإثارة رفض إيراني، ووسيلة لضمان تأييد أوروبا إحالة الموضوع إلى مجلس الأمن الدولي لفرض عقوبات دولية. ولم يكن لواشنطن أي اعتراض في الـــسابق على قيام روسيا ببيع صواريخ أرض-جو دفاعية لإيران لأنهـــا لا تنـــتهك المعـــيار المعتمَد في تصدير الأسلحة. وبالنسبة إلى لقاءات السفراء في العراق، نجحت الولايات المتحدة في ضمان تعاون إيـــراني في مـــا يـــتعلق بترسيخ أقدام النظام الشيعي العراقي التابع. واعتـــرفت إيـــران بالـــنظام، ووقّعت اتفاقات تجارية معه، ودعمت الانـــتخابات المـــشكوك في نـــتائجها، وزوّدت الـــولايات المتحدة بمعلومات مخابراتية ضد المقاومة السنيّة. ونظراً لمصالحهما المشترَكة في المـــنطقة، كان من المنطقي بالنسبة إلى واشنطن السعي إلى حمل إيران علـــى التعاون أكثر فأكثر من خلال محادثات دبلوماسية. ومن غير المفاجـــئ قـــيام المنظمات الصهيونية في أميركا (ZOA) بدعوة أكثر

مـــثيري الحرب ولَعاً بالقتال في الشرق الأوسط، وهو جون بولتون الـــسفير الأميركي لدى الأمم المتحدة، ليكون المتحدث الرئيسي في حفـــل العشاء السنوي لمنح الجوائز[1]. وسلكت المنظمات الصهيونية في أميركـــا بإخلاص كل المسارات المتعرّجة للسياسة الإسرائيلية منذ قيام الدولة.

61 في المئة من اليهود لا يتكلّمون أبداً عن إسرائيل أو يدافعون عنها لدى تحدّثهم إلى الغوييم. فقط 29 في المئة من اليهود هم مروّجون ناشطون لإسرائيل.

بالـــرغم مـــن التأييد شبه الإجماعي وتأثير المنظمات اليهودية الرئيـــسية على نطاق واسع، فإن 20 في المئة من اليهود الأميركيين لا يـــؤيّدون إســـرائيل في نـــزاعها مع الفلـــسطينيين. والأكثـــر دلالـــةً في الموضـــوع أن 61 في المئة من اليهود لا يتكلّمون أبداً عن إسرائيل أو يدافعون عـــنها لـــدى تحدّثهم إلى الغوييم (غير اليهود)[2]؛ فقط 29 في المئة من اليهود هم مروّجون ناشطون لإسرائيل، حتى أن التأييد متفاوت في إسرائيل. وكما أورد بيل مويرز في صحيفة *ناو NOW*:

> فـــي أواخـــر شـــباط/فبراير 2002، أظهر استفتاء نشرته الـــصحيفة اليومية الأكبر في إسرائيل، *يديعوت أحرونوت*، تأييد غالبية المستفتَين إخلاء كل المستوطنات في غزة (57%) وبعضها أو كلها في الضفة الغربية (59%). وبارتفاع حدّة التوتـــر في العام الماضي، أظهرت استفتاءات وطنية عدداً

(1) النـــشرة الإعلامية للمنظمات الصهيونية في أميركا، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(2) جيروزاليم بوست، 1 كانون الأول/ديسمبر 2005.

متزايداً من الإسرائيليين يؤيّدون "الانتقال" – نقل الفلسطينيين من الضفة الغربية. ووفقاً لمسح أجراه مارتن إنديك في حزيران/يونيو 2003 ونشرته صحيفة *فوراين أفيرز*، بدا أن "استطلاعات الرأي الإسرائيلية تُظهر باطّراد غالبيات كبيرة مؤيّدة لتجميد الاستيطان بالكامل وإخلاء المستوطنات النائية كجزء من عملية سلام توفّر الأمن لإسرائيل"[1].

بالنسبة إلى المستوطنين أنفسهم، أشار استفتاء إضافي لمنظمة 'السلام الآن' إلى أن حوالى 80 في المئة من المستوطنين انتقلوا إلى الضفة الغربية لتحسين نوعية حياهم[2] – منازل مرتفعة الثمن، أحواض للسباحة، حدائق – وهي نوعية حياة جعلها دافعو الضرائب الأميركيون أمراً ممكناً.

تجدر الإشارة إلى أن مجموعة مؤيّدي مصالح إسرائيل أوّلاً لا يشكلون سوى ثلث الجالية اليهودية، وقد بات ادعاؤهم التحدّث باسم كل اليهود الأميركيين كاذباً وتشويهاً للحقائق. في الواقع، هناك معارضة أكبر لإسرائيل بين اليهود ممّا هي الحال في الكونغرس الأميركي. ومن جهة ثانية، فإن معظم منتقدي إسرائيل غير متأثّرين بالمنظمات اليهودية الكبيرة وباللوبي الإسرائيلي، ولذلك تقاطعهم وسائل الإعلام ويُمنعون من التعبير عن آرائهم بالإكراه لا سيّما أثناء الاستعدادات لحرب إسرائيل ضد إيران. وليس باستطاعة المنتقدين اليهود الأقلية مضاهاة ما بين خمسة وثمانية ملايين من الدولارات

(1) ناو مع بيل مويرز: "طريق إلى خارطة الطريق"، .http://www.pbs.org/now/politics/settlement2.html

(2) المرجع نفسه.

تُنفَق على شراء أصوات أعضاء في الكونغرس كل عام من قِبَل جماعات الضغط الموالية لإسرائيل.

أنكر رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، دانيال حالوتس، بشكل مُطلَق أن إيران تشكل تهديداً نووياً مباشَراً لإسرائيل، فكيف لها أن تشكل تهديداً للولايات المتحدة. ووفقاً *لهاآرتس*[1]، أعلن حالوتس أن ايران تحتاج لبعض الوقت لتكون قادرة على إنتاج قنبلة نووية. وقدّر أن القنبلة قد تُنجَز بين عامَي 2008 و2015.

قبل الانتخابات الإسرائيلية، لم يكن مسؤولو حزب العمل في إسرائيل يعتقدون أن إيران تشكل تهديداً نووياً مباشَراً، وشعروا بأن حكومة شارون والحملة التي شنها الليكود لشن حرب هي خدعة انتخابية. ووفقاً *لهاآرتس*، "إنهم مسؤولو حزب العمل رئيس الوزراء أريل شارون، ووزير الدفاع شاؤول موفاز، ومسؤولين دفاعيين آخرين باستخدام المسألة الإيرانية في حملاتهم الانتخابية سعياً لإبعاد المسائل الاجتماعية عن الجدال الشعبي"[2]. وفي رسالة موجَّهة لليمين الإسرائيلي وملائمة أيضاً لآيباك ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، رفض عضو الكنيست عن حزب العمل، بنيامين بن-إليعازر، إثارة الحرب الانتخابية: "آمل في ألاّ تحثّ الانتخابات القادمة رئيس الوزراء ووزير الدفاع على الابتعاد عن سياسة الحكومة ووضع إسرائيل على الخطوط الأمامية لمواجهة مع إيران. المسألة النووية مسألة دولية، ولا سبب لقيام إسرائيل بلعب دور رئيسي فيها"[3].

(1) هاآرتس، 14 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(2) هاآرتس، 14 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(3) هاآرتس، 14 كانون الأول/ديسمبر 2005.

ولسوء الحظ، فقد جعل اللوبي الإسرائيلي من هذه المسألة مسألة أميركية ووضع واشنطن على خطوط المواجهة...

لكن برنامج الحرب أُعيد إلى الواجهة بعد الانتخابات، وبعد ابتعاد شارون عن المسرح السياسي وترؤّس أولمرت حزب كاديما. وفي 10 أيار/مايو 2006، عنونت *يديعوت إنترنت* الإسرائيلية برنامج الحرب الإسرائيلية بإيجاز:

> **أولمرت يطلب منا اتخاذ إجراء ما ضد إيران:**
>
> يستعدّ رئيس الوزراء للقيام بزيارة إلى واشنطن في غضون أسبوعَين لعقد لقاء قمة مع الرئيس بوش؛ وسيركّز أولمرت على الربط بين التهديد النووي الذي تشكله طهران وبين إرهاب حماس، ويطلب من الأميركيين التحرك ضد إيران.

تلفيق التهديد النووي الإيراني

أكدت المخابرات الإسرائيلية أن إيران لا تملك اليورانيوم المخصَّب ولا القدرة على إنتاج سلاح ذرّي في الوقت الحاضر أو في المستقبل القريب، وذلك بخلاف الادّعاءات الهستيرية التي روّجت لها جماعات الضغط الموالية لإسرائيل في الولايات المتحدة. وأشار محمد البرادعي، رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذريّة (IAEA) الذي نظّم حملات تفتيش في إيران طيلة عدة سنوات، إلى أن الوكالة لم تجد أي دليل على محاولة إيران صنع أسلحة نووية. وانتقد مخططات الحرب الإسرائيلية والأميركية محذّراً من أن "حلاً عسكرياً سيكون غير مُجدٍ تماماً"[1].

(1) فايننشل تايمز، 11/10 كانون الأول/ديسمبر 2005.

في إحـــدى المراحل، وفي تحرك واضح لنـــزع فتيل الاستخدام المـــستقبلي لليورانيوم المخصَّب، "فتحت إيران الباب أمام المساعدة الأميركـــية في بـــناء منـــشأة للطاقة النووية"[1]. ومتحدّثاً في مؤتمر صـــحافي، صـــرّح حميد رضا آصفي، الناطق باسم وزارة الخارجية الإيرانية، قائلاً إنه "بإمكان أميركا المشاركة في المناقصة الدولية لبناء منـــشأة في إيـــران لإنتاج الطاقة النووية إذا تقيّدوا بالمعايير الأساسية والجـــودة"[2]. وتخطط إيران أيضاً لبناء منشآت عديدة أخرى لإنتاج الطاقـــة الـــنووية بمـــساعدة خارجية. وتكاد الدعوة الإيرانية لتلقّي مـــساعدة خارجية استراتيجيةً بمثابة النفي الصريح بأنها تحاول تنفيذ بـــرنامج سرّي لإنتاج قنبلة ذريّة، سيّما وأنها موجَّهة لأحد متّهميها الرئيسيين وهي دولة أعلنت عن سياستها الرسمية المتمثّلة باستعدادها لاستخدام الأسلحة النووية حتى ضد الدول غير النووية[3].

في نيـــسان/إبريل 2006، أعلن الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد أن إيران نجحت في تخصيب اليورانيوم. ومع ذلك، وبالرغم من مستوى التطويـــر الذي بلغته حالياً، ما زال الأساس الواقعي للتحجج بأن إيران تـــشكل تهديداً نووياً لإسرائيل أو للقوات الأميركية في الشرق الأوسط غـــير موجـــود، علماً أن السعي الإيراني وراء أسلحة نووية قد يكون منطقـــياً بالفعـــل نظراً للتهديد الصارخ الذي تواجهه من قوى أخرى مصمِّمة على "إدخال تغييرات على الشرق الأوسط".

(1) يو إس أي توداي، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(2) يو إس أي توداي، 11 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(3) التوجـــيهات 60 للقرار الرئاسي لكلينتون. انظر فرانسيس أي. بويل، إجرامية الردع النووي، شركة كلاريتي بريس، 2002، الصفحات 46-48.

إن استعدادات إسرائيل للحرب، ومساعي آيباك لدفع الولايات المتحدة في الاتجاه نفسه بالارتكاز على بيانات مزيَّفة أو على تهديد وشيك، تذكّر بالدليل المختلَق الذي مُرِّر إلى البيت الأبيض من خلال مكتب الخطط الخاصة في البنتاغون الذي يرأسه أبرام شولسكي ويديره دوغلاس فيث وبول وولفويتز، وهما مؤيّدان لحزب الليكود منذ زمن طويل. ولا يعود سبب استعدادات إسرائيل للحرب إلى أي تهديد نووي إيراني في الحاضر أو المستقبل. فالمسألة مرتبطة *بتخصيب اليورانيوم في المستقبل*، وهو أمر قانوني وفقاً لمعاهدة الحدّ من انتشار الأسلحة كما أن استخدامه لإنتاج الطاقة الكهربائية هو قانوني كذلك. فإيران ما زالت حالياً في مرحلة تخصيب اليورانيوم، ويستخدم عدد كبير من البلدان التي تملك مفاعلات نووية اليورانيوم المخصَّب كونه حاجة ضرورية. ويندرج قرار إيران بالارتقاء إلى مستوى معالجة اليورانيوم المخصَّب في إطار حقها السيادي كما هو حال كل البلدان التي تملك مفاعلات نووية في أوروبا وآسيا وشمال أميركا.

يندرج قرار إيران بالارتقاء إلى مستوى معالجة اليورانيوم المخصَّب في إطار حقها السيادي كما هو حال كل البلدان.

إن لجوء إسرائيل وآيباك إلى استنباط صيغة مبهَمة حول قدرة إيران النووية المحتمَلة قد ينطبق على عدد كبير من البلدان التي تملك بنية تحتية علمية دُنيا. وفيما تتقدّم عملية الاتّجار بوسائل الترويع بسرعة، أعلنت البرازيل أنها دشّنت مركزاً لتخصيب اليورانيوم قادراً على إنتاج وقود نووي من النوع الذي ترغب إيران في صنعه، وذلك

بالـــرغم من الضغط الدولي عليها[1]. ولم يكن هناك احتجاج عنيف ضد البرازيل.

تهـــرّبت الدول الأوروبية الأربع من مناقشة مسألة ما إذا كانت إيـــران تملك أسلحة ذريّة أم لا، أم أنها تقوم بتصنيعها، وركزت بدلاً من ذلك على مهاجمة قدرة إيران على إنتاج الطاقة النووية؛ أي إنتاج اليورانـــيوم المخـــصَّب. فطرحت مسألة زائفة من خلال دمج عملية إنـــتاج اليورانيوم المخصَّب بالتهديد النووي، والقدرة النووية بخطر الهجـــوم الـــنووي الوشـــيك على البلدان الغربية وإسرائيل. وكان للأوروبـــيين، ولا سيما بريطانيا العظمى، خياران في ذهنهما: حمل إيـــران على الموافقة على وضع حدود لسيادتها، وبصفة خاصة في ما يتعلق بسياسة الطاقة ومراقبة التلوث المميت للهواء في مدنها الرئيسية وإيجـــاد مـــوارد طاقـــة أقل تلويثاً؛ أو حمل إيران على رفض الفقرة الإضـــافية التعـــسفية في اتفاقـــية الحدّ من انتشار الأسلحة، ومن ثمّ الترويج على أن الرفض دلالة على عزم إيران على صناعة قنابل ذريّة لاستهداف بلدان موالية للغرب. عندها، تردّد وسائل الإعلام الغربية موقـــف الحكـــومات الأوروبـــية والأميركية المتمثّل بتحميل إيران مسؤولية انهيار المفاوضات. وسيعمل الأوروبيون على إقناع شعوبهم بأن الملاذ الوحيد هو حَذْو جَذْو الولايات المتحدة بسبب فشل "لغة العقـــل"، ونقل المسألة إلى مجلس الأمن والموافقة على فرض عقوبات دولية ضد إيران حيث ستحاول الولايات المتحدة الضغط على روسيا والـــصين للاقتراع لصالح العقوبات أو الامتناع عن التصويت. ومن جهة ثانية، بات من الواضح أن أيّاً من الدولتَين لن توافق على ذلك

(1) "البرازيل تبني منشأة نيوك"، ميامي هيرالد، 7 أيار/مايو 2006.

نظـــراً لأهمية العقود النفطية والتسلحية والنووية والتجارية بين إيران وبينهما والتي تبلغ قيمتها عدة مليارات من الدولارات.

بالقـــيام بمحاولـــة في مجلـــس الأمن وفشلها فيها، قد تتحرك الولايات المتحدة في اتجاه شن هجوم عسكري. وسينجم عن هجوم جوّي على منشآت نووية إيرانية مشتبَه بها قصف مناطق ذات كثافة سكانية كبيرة إضافةً إلى مناطق بعيدة، مما يؤدي إلى خسائر عديدة في الأرواح. حتى أن هجوماً "محدوداً" - قصف منشأة أصفهان الإيرانية فقط - قد يؤدّي إلى مستوى مروّع من الأضرار:

> أظهـــرت محاكـــاة لــــ RNEP [مخترق الخرسانة الصلبة للمنـــشآت النووية] استُخدمت ضد منشأة أصفهان في إيران باســـتخدام بـــرمجيات طُـــوّرت خصّيـــصاً للبنتاغون، أن 3 ملايـــين شـــخص قد يُقتلون نتيجة للإشعاع في غضون أســـبوعَين مـــن الانفجار، ويتعرّض 35 مليون شخص في أفغانـــستان وباكستان والهند لمستويات متزايدة من الإشعاع المسبّب لداء السرطان(1).

ســـتكون النتـــيجة الرئيسية تصعيد كبير للحرب على امتداد الـــشرق الأوســـط. وقد يكون من المتوقّع أن تقوم إيران، وهي بلد مؤلّف من 70 مليون نسمة ذات قدرة عسكرية تفوق ما كان يملكه العراق بعشر مرات إضافةً إلى قوات عسكرية وشبه عسكرية ملتزمة ومحفّـــزَة إلى حـــدٍّ كبير، بعبور الحدود إلى داخل العراق. وسيقطع

(1) إتحـــاد العلمـــاء المعنـــيين، أيـــار/مايـــو 2005. انظـــر إلى http://www.ucsusa.org/global-security/nuclear-weapons/the-robust-nuclear-earth-penetrator-mep.html.

الــشيعة العراقيون المتعاطفون مع إيران أو المتحالفون معها علاقاتهم بواشــنطن على الأرجح ويشاركون في المعركة. وستتعرّض القواعد الأميركية والجنود الأميركيون وأولئك التابعون لهم إلى هجوم ضخم. وستتــضاعف الإصــابات العسكرية الأميركية وتُعطّل كل خطط ســحب الجــنود. وستتلاشــى استراتيجية 'العرقنة' (تطبيق الخطط الأميركــية الــتي تنفّذ في العراق على دول المنطقة) بارتداد القوات الشيعية المسلّحة 'الموالية' للولايات المتحدة على الضباط الأميركيين.

خــارج العــراق، ستحدث على الأرجح انتفاضات. وسيمتدّ الحريق المدمّر إلى ما وراء الشرق الأوسط بما أن الهجوم الإسرائيلي-الأميركي على بلد إسلامي سيُشعل احتجاجات شعبية في كل مكان مــن القــارة الآسيوية. ويُرجَّح إلى حدٍّ بعيد وقوع أحداث إرهابية جديــدة في أوروبا الغربية، وشمال القارة الأميركية، وأستراليا، وضد الــشركات الأميركية المتعددة الجنسيات أينما تكون أعمالها. ونتيجة لــذلك، ستنــشأ حــرب عنيفة ومطوَّلة، مسلّطةً 70 مليون إيراني مــوحَّدين حــول قيادهم، وملايين المسلمين في آسيا وأفريقيا، على ولايــات مــتحدة معزولة وإلى جانبها حلفاء أوروبيون ممانعون لها بشكل مطّرد في مواجهة احتجاجات شعبية محليّة[1].

---

(1) في حــين تمّ اســتبدال وزير الخارجية البريطانية جاك سترو الذي كان يعتبر الحــرب مــع إيران "أمراً لا يمكن تخيّله"، وذلك بعد اتصال غاضب من بوش ("هــل قام بوش بإخراج سترو بالقوة؟ صحف لندن: موقف وزير الخارجية جــاك سترو من إيران حثّ بوش الغاضب على الاتصال ببلير" أخبار سي بي أس، 7 أيــار/مايــو 2006)، ما تزال المطارات البريطانية غير جاهزة للعمل بأقــصى طاقاهــا، وهي صعوبة تمّ التعاطي معها في خطط الغارات الأميركية الأخــيرة التي تستهدف إيران. "يمكن فهم تقدّم الاستراتيجيين بخيارَين لغارات

فيما يبدو أن المسعى الأميركي لفرض عقوبات من خلال الأمم المتحدة أمر فاشل، لا يعني هذا الأمر أن الولايات المتحدة تخلّت عن مسعاها لفرض عقوبات على إيران. وأشار ستيفن آر. ويسمن، وهو كاتب في *النيويورك تايمز*، في 22 أيار/مايو 2006، قائلاً:

> مدفوعةً بتهديدات موجَّهة لها من الولايات المتحدة بالخضوع لغرامات وفقدان أعمالها، بدأت أربعة مصارف أوروبية كبرى بالحدّ من نشاطاتها في إيران وإن بغياب قرار لمجلس الأمن يفرض عقوبات اقتصادية على إيران بسبب الاشتباه باتّباعها برنامجاً لإنتاج الأسلحة النووية.

من جهة ثانية، وفيما تبدو الولايات المتحدة مصمّمة على السعي لفرض العقوبات بوسائل أخرى غير تلك التي تتّبعها الأمم المتحدة، لن تنجح العقوبات على إيران لأن النفط سلعة نادرة وأساسية. وستُعيق الصين والهند وبلدان آسيوية أخرى تشهد نمواً سريعاً أي مقاطعة، كما أن تركيا وبلداناً مسلمة أخرى لن تتعاون، وستعمل العديد من شركات النفط الغربية من خلال وسطاء. أما سياسة العقوبات فمقدَّر لها الفشل، وستكون نتيجتها الوحيدة رفع سعر النفط أكثر فأكثر. وسيتسبب هجوم إسرائيلي أو أميركي بحالة لااستقرار سياسية وخيمة، وزيادة المخاطر التي تواجه منتجي النفط

بالغة الدقة باستخدام قاذمات القنابل بي2 التي تطير مباشَرةً من قواعد في ميسوري، وغوام في المحيط الهادئ، وديغو غارسيا في المحيط الهندي. وتملك أيضاً راف فيرفورد في غلوستر منشآت لقاذفات بي2، ولكن أُعلن أن استخدام هذه المنشآت أمر لا مجال للبحث فيه بسبب المعارضة البريطانية لعمل عسكري ضد طهران". "توضح الولايات المتحدة خطة لقصف إيران"، ذا هيرالد، 16 أيار/مايو 2006.

والشاحنين والشارين، ممّا يؤدّي إلى ارتفاع سعر النفط إلى مستويات لا تُصدَّق، بالغاً ربما حدّ المئة دولار للبرميل الواحد فيتزعزع استقرار الاقتصاد العالمي، وتحدث فترة ركود عالمية كبيرة أو أسوأ من ذلك.

أما بالنسبة إلى إسرائيل، وبفشل محاولتها لتسريع هجوم عسكري أميركي على إيران في نهاية آذار/مارس بسبب الخسائر التي تتكبّدها الولايات المتحدة في العراق، قرّرت إذ ذاك رفع مستوى حالة التوتر من خلال اجتياح غزة ولبنان وقصف المدنيين على نطاق واسع، والعمل على تدمير حزب الله بصفة خاصة، وهو حليف إيران، آملةً في إثارة رد عسكري إيراني.

خاتمة

إن المستفيد الوحيد المحتمَل من هجوم عسكري أميركي أو إسرائيلي على إيران، أو من عقوبات اقتصادية، ستكون إسرائيل: سيبدو هذا الأمر إلغاءً لعدوّ عسكري في الشرق الأوسط، وتعزيزاً لتفوّقها العسكري في هذه المنطقة. ولكن هذه النتيجة مثيرة للمشاكل أيضاً لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار واقع أن التحدّي الذي تشكله إيران لإسرائيل هو *سياسي* في الأساس، ولا يكمن في قدرتها النووية غير الموجودة بعد. وستكون الأنظمة العربية الأكثر تقرّباً من إسرائيل الهدف الأول لملايين المسلمين المحتجّين على العدوان الإسرائيلي. وسيكون الهجوم الإسرائيلي انتصاراً باهظ الثمن إذا أطاح حريق سياسي مدمّر يمكن التوقع بحصوله بالحكام في بعض الدول العربية. وستكون النتائج أكثر سوءاً إذا شنّت الولايات المتحدة الهجوم: اشتعال آبار النفط الرئيسية، محاصرة القوات الأميركية في العراق،

تقـــويض العلاقات القائمة منذ زمن بعيد مع الأنظمة العربية، ارتفاع أسعار النفط، وإثارة الرأي العام الأميركي نتيجةً للإصابات في صفوف الجنود. ولن يكون الهجوم على إيران عملية جراحية بلا شوائب، بل سينتج عنها جرح عميق ومثلّم يؤدّي إلى الإصابة بالغرغرينا.

ممـــا لا شـــك فـــيه أن آيباك قد تحتفل "بنجاح آخر" حقّقته إســـرائيل، وذلك في تقريرها السنوي الذي يحمل التهنئة الذاتية على المهـــام الـــتي تمّ إنجازها. وسيشكر مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيـــسية في أميركـــا أتباعه المطيعين والأوفياء بسبب موافقتهم على تدمير بلد معادٍ للساميّة ومعادٍ للأميركيين، ويشكل تهديداً نووياً لكل الجنس البشريّ، أو أي هراء مُماثل آخر.

أكـــبر الخاسرين جرّاء الهجوم العسكري الأميركي-الإسرائيلي علـــى إيران هم الجنود الأميركيون في العراق وبلدان شرق أوسطية أخرى؛ الذين سيتعرّضون للقتل والتشويه، والشعب الأميركي الذي سيدفع الثمن دماً وفشلاً ذريعاً، وشركات النفط التي ستشهد تراجعاً لعمليات تزويد الأسواق بالنفط وتقويض العقود المشترَكة لاستثمار الـــنفط والـــبالغة قيمتها مليارات الدولارات، والفلسطينيون الذين ســـيعانون مـــن نتائج ركود اقتصادي أكبر وطرد جماعي، والشعب اللبنـــاني الـــذي ستُفرَض عليه حرب حدودية جديدة، والأوروبيون الذين سيواجهون عمليات انتقام إرهابية.

مـــن العـــدل القول إن الولايات المتحدة تعاني من مضاعفات جـــيو-سياســـية بسبب استهدافها غير العقلاني لإيران، ووفقاً للعالم المـــسلم، للشعوب الإسلامية كذلك في نظر العالم المسلم. وفيما ما تـــزال إيـــران وباكستان تحضران منظمة شانغهاي للتعاون (SCO)

كمــــراقبَين[1]، تستمران بسعيهما للانضمام إليها علماً أنها لم تصبح بعــد رسمــياً منظمة للدفاع المشترَك على غرار الناتو، ولم تضع بعد تصوّراً للقيام بأعمال عسكرية مشترَكة. وفيما تقول الصين إن لا وجود لقرارات جديدة وشيكة حول العضوية، "إقترح الرئيس الروسي فلادمير بــوتين أن يــشكل التحالف نادياً للطاقة دون إعطاء أي تفاصيل أثناء الجلسات العلنية"[2]. فمن الواضح أن الأمر لم يُبَتّ به بعد:

> ... إن تأثيــر مــنظمة شــانغهاي للتعاون في المنطقة هو في ازدياد... ومن شأن منظمة أقوى، سيّما وإذا كانت تضم عنصراً عــسكرياً وتكــون إيران عضواً فيها، أن تكون كابحاً للمصالح الأميركية وطموحاتها في المنطقة. "وإذا كانت المنظمة موسَّعة، فهــي ستتحكم بجزء كبير من احتياطيات النفط والغاز والترسانة النووية في العالم"، بحسب قول ديفيد وال، وهو خبير في شؤون المــنطقة فــي معهد شرق آسيا في جامعة كامبريدج، *للواشنطن تايمز*. "ستكون بصفة أساسية منظمة أوبيك تمتلك قنابل"[3].

هل خدمت السياسة الأميركية حيال إيران مصالحها الإمبريالية الخاصــة إذاً، أم أنهــا تدفع إيران في الواقع، وبلا داعٍ، إلى أحضان منافسيها السابقين والمستقبليين؟

---

(1) تــيم جونسون، "إيران وباكستان تسعيان إلى الانضمام إلى منظمة شانغهاي للتعاون"، نايت رايدر، 15 حزيران/يونيو 2006.

(2) جونسون، أعلاه.

(3) ليونــيل بيهنــر، "نــشوء مــنظمة شانغهاي للتعاون"، المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية، عنوان الموقع على الوب http://www.iiss.org/whats-new/iiss-in-the-press/june-2006/rise-of-the-shanghai-cooperation-organization 12 حزيران/يونيو 2006.

من الأهمية بمكان التشديد على أن لا وجود لجماعات ضغط منظَّمة تحثّ على شن هذه الحرب باستثناء اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة وقاعدته المؤلَّفة من مؤيّدين أميركيين يهود وحلفاء له في أوساط مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية. وللأسف، لم تكن هناك مقاومة كبيرة لهذه الحرب. وإن مواقف الشجب الطقسية من "بيغ أويل" كلما كان هناك نزاع في الشرق الأوسط تشارك فيه الولايات المتحدة هي في هذه الحالة مسألة زائفة بالكامل تفتقر إلى الجوهر. فكل الدلائل تشير إلى العكس؛ بيغ أويل تعارض أي نزاعات تُفسد دخولها الأساسي الأول إلى حقول النفط الشرق أوسطية بما أنها مؤمَّمة منذ السبعينيات من القرن الماضي.

إن القوة السياسية المنظَّمة الوحيدة التي يمكن تحديد هويّتها والتي قامت بغزوات ناجحة في عمق الكونغرس الأميركي وفي قطاعات الفرع التنفيذي هي جماعات الضغط الموالية لإسرائيل ولجان العمل السياسي. وعلى رأس المؤيّدين الرئيسيين لقيام الفرع التنفيذي باعتماد سياسة مجابهة عضو مجلس الأمن القومي الموالي لإسرائيل والمنتمي إلى المحافظين الجدد (والمجرم الذي حصل على عفو رئاسي) إليوت أبرامز المسؤول عن سياسة الشرق الأوسط، ونائب الرئيس تشيني. ونجد المعارضة الأساسية في الأجهزة العسكرية الرئيسية ووسط القادة الذين يشهدون العواقب الاستراتيجية الكارثية على القوات العسكرية الأميركية وقطاعات في وزارة الخارجية والسي آي ايه، وهم مُدركون بالتأكيد للنتائج الكارثية لقيام الولايات المتحدة بدعم إسرائيل الساعية إلى تفوّق إقليمي بلا منازع. حتى أن الشك طال أولئك الذين كان بالإمكان افتراض تأييدهم ذات مرة: محلّلو

هيريـــتدج فاونديشن اليمينيون وعناصر قيادية في المجتمع الإيراني في المنفى[1].

وتكمـــن المشكلة في أن لا وجود لقيادة سياسية تعارض اللوبي المـــوالي لإسرائيل الذي يروّج للحرب داخل الكونغرس أو حتى في المجـــتمع المدني. وتشكل جماعات ضغط منظّمة ومؤثّرة، إذا وُجدت، تحدّياً للّوبي الإسرائيلي الموالي للحرب في ما يتعلّق بالسعي إلى التعايش في الـــشرق الأوســـط أو حتى الدفاع عن المصالح الوطنية الأميركية عـــندما تتباعد عن المصالح الإسرائيلية. وبالرغم من قيام العديد من الدبلوماسيين السابقين، وجنرالات، ومسؤولين في أجهزة المخابرات، ويهود إصلاحيين، ومستشارين للأمن القومي متقاعدين، ومهنيين في وزارة الخارجية، بشجب برنامج الحرب على إيران وانتقاد جماعات الضغط التي تضع مصالح إسرائيل أولاً، وذلك دون أن تلقى إعلاناتهم في الـــصحف ومقابلاتهم في وسائل الإعلام بدعم أي منظّمة سياسية وطنية يمكنها المنافسة للتأثير في البيت الأبيض والكونغرس. وباقترابنا أكثـــر فأكثر من مواجهة كبرى مع إيران وقيام مسؤولين إسرائيليين بتحديد موعد أخير وقريب لإشعال حريق مدمّر في الشرق الأوسط، يبدو أنه قد حُكم علينا التعلّم من خسائر مستقبلية كارثية يجب على الأميركيين تحمّلها قبل هزم جماعات الضغط السياسي التي تكنّ الولاء لبلدان خارجية.

(1) انظـــر إلى جـــيم لوب، "المكاشفة تختبر قوة اللوبي الإسرائيلي"، آي بي أس، 11 نيسان/إبريل 2006.

الفصل العاشر

الرسوم الكاريكاتورية
في سياسات الشرق الأوسط

تعود جذور المواجهة المتفجرة بين المحتجّين الإسلاميين والعرب، وبين القادة السياسيين والحكومات، وبين الأنظمة الأميركية والغربية والناشـــرين، في مـــا يـــتعلق بالرسوم الكاريكاتورية التي نُشرت في الـــدانمارك إلى المـــساعي الإسرائيلية المبذولة لانقسام العالم والترويج لفـــرض عُـــزلة علـــى إيران وعقوبات اقتصادية، و/أو شنّ هجوم عـــسكري. هناك العديد من الأسئلة الأساسية التي فشل كل المعلّقين والمحللين تقريباً في الإجابة عنها، ومنها:

- ما هو سبب نشر الرسوم الكاريكاتورية في الدانمارك؟
- مـــا هـــي الخلفـــية السياسية لفلمينغ روز، وهو الناشر الثقافـــي *لجـــيلاندز-بوســـتن* الذي أصرّ على الرسوم الكاريكاتورية، واختارها، ونشرها؟
- مـــا هـــي المـــسائل المحـــيطة *بتوقـــيت* نشر الرسوم الكاريكاتورية وإعادة نشرها؟
- مـــن يستفيد من نشر الرسوم الكاريكاتورية والمواجهة الناجمة عن ذلك بين العرب/الإسلام والغرب؟
- مـــا هـــي البيـــئة الـــسياسية المعاصـــرة للاحتجاجات العربية/الإسلامية؟

- كيف تورّط جهاز المخابرات الإسرائيلي، الموساد، في إثارة النـــزاع الغربي–الإسلامي/العربي، وكيف بلغت النتائج مستوى توقعاتهم؟

إن نقطـــة الانطـــلاق لتحلـــيل الجـــدل الـــناجم عن الرسوم الكاريكاتورية التي تمّ التركيز عليها لمهاجمة المسلمين والبلدان المسلمة كونها لا تحتمل حريّة التعبير الغربية تتمثّل بالدور الذي تلعبه الدانمارك مـــنذ زمن طويل كمركز عمليات رئيسي للموساد في أوروبا. لنصِغ الجملة بطريقة أخرى: كيف يمكن لبلد اسكنديناڤي صغير يتألف من 5.4 ملـــيون مـــواطن ومقـــيم (200,000 أو أقـــل من 3% منهم مسلمون)، ويشتهر بحكايات الجنّ، واللحم المقدَّد والجبن، أن يصبح هـــدفاً لـــسخط ملايـــين المسلمين الممارسين لشعائرهم الدينية من أفغانـــستان إلى فلسطين، ومن أندونيسيا إلى ليبيا، والذين تدفّقوا في شوارع المدن في مختلف أنحاء العالم بأعداد كبيرة؟ وبعد قصف بغداد، وأعمال التعذيب في أبو غريب، وارتكاب المجازر في الفلّوجة، وإصابة كـــل الشعب العراقي والأفغاني بالفقر المُدقع... لِمَ صبّ المسلمون غـــضبهم علـــى رموز دانماركية بدءاً بكعكاتها المُحلاّة المعلّبة وانتهاءً بسفاراتها ومراكز أعمالها ما وراء البحار؟

تتـــناول القـــصة التي عرض لها بصراحة إعلاميون تلفزيونيون السيد فلمينغ روز، وهو ناشر ثقافي لصحيفة دانماركية يومية مقروءة علـــى نطـــاق واســـع أراد الرد على الحقيقة السياسية المتنامية لدى الأوروبـــيين والمتمثلة بانتقاد المسلمين، وقد قارنها بالرقابة الذاتية التي كانـــت قائمـــة في الاتحاد السوفياتي وطنه الأم. وقام محرر الصفحة الثقافـــية في *الجـــيلاندز–بوستن*، وهو مولود في أوكرانيا ويحمل اسماً

غريباً، بتكليف واضعي رسوم كاريكاتورية دانماركيين التقدّم بسلسلة من هذه الرسوم تصف النبي محمد (ص) كما يتصوّرونه هم. ومع ذلك، فإن أربعاً من الرسوم الإثنتي عشرة التي تمّ اختيارها للنشر أعدّها فريق روز، بما فيها تلك التي كانت أكثر إثارة للجدل وتُظهر 'قنبلة موضوعة في عِمامة'. ومتحدّياً قوانين الدانمارك المناهضة للتجديف، نشر السيد روز هذه الرسوم بتاريخ 30 أيلول/سبتمبر 2005، وما تلى ذلك بات مُلكاً للتاريخ...

شُنّ هجوم عالمي ضخم في العالم المسلم على ما وُصف بأنه "حق الغرب المقدَّس في حريّة التعبير"، وقد هرع ملايين الأوروبيين وسكان أميركا الشمالية المصابين بصدمة للدفاع عن حريّاتهم العزيزة في خضمّ صراع الحضارات هذا. وأُلقي اللوم على سوريا وإيران بشكل بارز بتحريض المؤمنين الغاضبين على النزول إلى شوارع دمشق وطهران وبيروت والأحياء الفقيرة في غزة. ووفقاً لوزيرة الخارجية رايس، "تعمّدت إيران وسوريا إلهاب المشاعر واستغلال هذا الوضع لغاياتهما الخاصة، ويجب على العالم محاسبتهما على الأمر". وقامت السلطات الباكستانية والليبية[1] المتحالفة مع الولايات المتحدة بإطلاق النار على المتظاهرين، فقتلت وجرحت أعداداً كبيرة منهم واعتقلت قادة دينيين عديدين. وحثّت الحكومات الغربية حلفاءها العرب والمسلمين على منع حدوث مزيد من الهجمات على المنتجات والممتلكات الدانماركية، ولامت أولئك الذين عجزوا عن قمع الغضب الشعبي متّهمةً إيّاهم بالتواطؤ والتحريض. كل ذلك كان بسبب مجموعة من الرسوم الكاريكاتورية، أو هذا ما قيل لنا.

(1) مع ذلك، علّق البرلمان الليبي عمل وزير الداخلية بعد وفاة 11 محتجاً.

المحرر الثقافي فلمينغ روز الذي سرعان ما تعب من كونه مطوَّقاً بفريق من الشرطة الدانماركية ورجال الأمن لحمايته من الاغتيال وقد فاتته الهرولات اليومية في الجوار الهادئ لكوبنهاغن، اختار طلب ملاذ آمـــن في ميامي، فلوريدا (بدلاً من وطنه الأم أوكرانيا) بين المنفيين الكوبـــيين، و*السايانيم* الإسرائيليين، والمتقاعدين الذين يمارسون لعبة ماه جونغ أثناء عرض المسرحية.

الدانمارك: مركز نشاط الموساد

لماذا الدانمارك؟ هل كان من الممكن نشوء هذا الجدل المختلَق لو ظهـــرت الرســـوم على صفحات أي صحيفة لندنية أو نيويوركية رئيـــسية؟ من يرغب في وضع الدانمارك وسط صراع الحضارات هذا إذ بدا الأمر وكأنه جدل حول نص رواية مثيرة مُبغضة للإسلام؟

يوجـــز فصل مثير للاهتمام في كتاب عميل الموساد الإسرائيلي الـــسابق فيكـــتور جاي. أوستروفسكي، ***عن طريق الخداع***[1]، عن العلاقـــة الوثـــيقة بين أعمال أجهزة المخابرات الدانماركية وأعمال الموساد الإسرائيلي:

> العلاقـــة بـــين الموساد والمخابرات الدانماركية حميمة جداً لدرجـــة أنـــه ليس بالإمكان أن تكون غير لائقة. ولكن هذا الوضع لا يعود إلى ما يتمتّع به الموساد من فضائل بل إلى فـــضائل الـــدانمارك. ويعـــود سبب ذلك إلى الانطباع غير الصحيح لدى الدانماركيين الذي يعود للحرب العالمية الثانية

(1) فيكـــتور أوستروفسكي، عن طريق الخداع، نيويورك، سنات ماتينـــز بريس، 1990، الصفحات 231-232.

> عندما أنقذوا حياة الكثيرين من اليهود، ولذلك فالإسرائيليون ممتنّون ويمكنهم الوثوق بالموساد.

للموســـاد القـــدرة على مراقبة كل السكان العرب ولا سيّما الفلـــسطينيين (وعلى الأرجح بمن فيهم أولئك الذين يحملون الجنسية الدانماركية) المقيمين في الدانمارك، وذلك من خلال علاقاتهم الخاصة مع الدانماركيين:

> ... يـــراقب عمـــيل من الموساد كل الرسائل العربية وتلك المـــتعلّقة بالفلـــسطينيين [التي يتمّ تبادلها بين أفراد الجالية العـــربية فـــي الدانمارك] والتي تصل إلى مقرّاتهم الرئيسية [جهـــاز المخابرات المدني الدانماركي]... وهو إجراء غير عادي لجهاز مخابرات أجنبي.

والاحتـــرام الكـــبير الـــذي يكنّه ضباط المخابرات الدانماركية لـــرفاقهم عمـــلاء الموســـاد الإسرائيلي غير متبادَل كما يبدو، وفقاً لأوستروفسكي:

> يـــزدري عملاء الموساد نظراءهم الدانماركيين لدرجة أنهم ينعـــتونهم بالـــ fertsalach، وهي كلمة عبرية تعني خروج كمـــية قليلة من الغازات... هم يُطلعون الموساد على كل ما يقومون به(1).

بالعودة إلى خنوعهم، يحصل الدانماركيون على تدريب قيّم من الإســـرائيليين. "كـــل ثـــلاث ســـنوات، يغادر مسؤولو المخابرات الدانماركـــية إلى إسرائيل لحضور ندوة يُقيمها الموساد" وتنجم عنها

(1) المرجع نفسه.

اتصالات مفيدة للموساد "في حين تؤدّي إلى استدامة المفهوم القائل إن لا وجود لمنظمة أفضل من الموساد في التعاطي مع الأرهاب".

وفي أعقـــاب الهزيمة الأميركية الكاملة في العراق ومقاومة العالم لهجوم عسكري وقائي كبير ضد إيران أو حظر اقتصادي ودبلوماسي علـــيها مـــن شأنه رفع أسعار النفط إلى ما فوق المئة دولار للبرميل الـــواحد، كانت إسرائيل بحاجة إلى قلب حرب الأفكار رأساً على عقِـــب. وقد يكون من المنطقي أن تُشَنّ حملة دعائية تهدف إلى إثارة تبريرات لشن هجوم على بلدان كإيران وسوريا (وهما عدوّتا إسرائيل في مـــرحلة نشر الرسوم الكاريكاتورية)، وذلك من قِبَل أحد حلفاء الـــولايات المتحدة الأوروبيين الأكثر قوة في اجتياح وتدمير العراق وأفغانستان، حليف يكون جهاز المخابرات الوطنية فيه (معروف بـــ 'fertsalach') متلهّفاً لخدمة مصلحة إسرائيل.

فلمينغ روز: صحافي يخدم قضية

نظراً لاختراق الموساد وكالات المخابرات الدانماركية منذ زمن بعـــيد وعلاقاته الوثيقة بوسائل الإعلام اليمينية على الصعيد العملي، مـــن غير المفاجئ أن يكون يهودي أوكراني يعمل تحت اسم فلمينغ روز ويُقيم علاقات عمل وثيقة مع الدولة الإسرائيلية (وبصفة خاصة مـــع نظام الليكود اليميني) محور الجدل حول الرسوم الكاريكاتورية. ويعـــود تـــاريخ روابـــط روز بالدولة الإسرائيلية إلى ما قبل مقابلته التـــرويجية المـــشهورة مع دانيال بايبس (2004)، وهو الإيديولوجي الـــصهيوني ذو السمعة الرديئة الذي يكره العرب. وقبل تعيينه محرراً ثقافـــياً في صحيفة يومية دانماركية يمينية رائدة، كان روز بين عامَي

1990 و1995 مراسلاً صحافياً في موسكو يقوم بترجمة السيرة الذاتية لـــبوريس يلتسين، الإبن بالمعمودية لأعضاء حكومة النخبة الروس في مـــرحلة ما بعد الشيوعية والموالين لإسرائيل والذين يحمل معظمهم جنـــسية روسية-إسرائيلية مزدوجة ويتعاونون مع الموساد في تبييض أموال غير مشروعة تقدَّر بالمليارات. وبين عامَي 1996 و1999، رافق روز الـــصحافي كلينتون في رحلته إلى الصين قبل العودة إلى موسكو (1999-2004) للعمـــل كمراسل *لجيلاندز-بوستن*. وفي العام 2005، أصبح محررها الـــثقافي بالرغم من معرفته القليلة بهذا الحقل، ولم يفهم صحافيون دانماركيون آخـــرون في فـــريق العمل سبب هذا الإجـــراء. وفي منـــصبه الجديـــد، وجد روز سنَداً قوياً للتحريض واســـتغلال العـــداء المتنامـــي الـــذي يكنّه الدانماركيون المحافظون للمهاجـــرين مـــن مـــنطقة الـــشرق الأوسط، ولا سيما المسلمين الممارســـين. وقـــد نشر النقد اللاذع والمعادي للإسلام الذي وجّهه بايـــبس، وذلك بوضعه في نسق 'مقابلة'، بهدف "اختبار عمق المياه" قـــبل المباشَرة بالمرحلة التالية في استراتيجية الموساد القائمة على قيام مواجهة بين الغرب والشرق.

قام يهودي أوكراني يعمل تحت اسم فلمينغ روز ويُقيم علاقات عمل وثيقة مع الدولة الإسرائيلية (وبصفة خاصة نظام الليكود اليميني) بتكليف أشخاص بوضع الرسوم الكاريكاتورية.

إثارة نـــزاع بين المسلمين والغرب

فيما نجح الصهاينة في تحقيق أهدافهم في العراق - منشئين رأس جسر في الجيب الكردي الشمالي (كردستان)، وضامنين مصادر قوة

لهـــم في النظام العراقي الجديد من خلال الشلَبي وأشخاص آخرين- واجهت الخطط الاستراتيجية الإسرائيلية لتوسيع العمليات العسكرية الأميركية بحيث تطال إيران وسوريا تحدّيات رئيسية من داخل الجيش والـــشعب الأميركيِّين إضافةً إلى قطاعات من وسائل الإعلام. وكان على مصادر الموساد في *النيويورك تايمز والوول ستريت جورنال*، وفي أمـــاكن أخــــرى، معالجة مسألة الإطراء المُغالى فيه من خلال إظهار الـــتهديد الـــذي تشكله الأسلحة النووية الإيرانية (غير الموجودة)، وذلك بعد الكشف عن أن المكيدة المدبَّرة للعراق أمر ملفّق بالكامل. كان الوضع بحاجة إلى حملة دعائية لإسكات منتقدي الحرب وتعميق الأحقاد حيال الإسلاميين/العرب بشكل عام، وإيران بصفة خاصة. عندها ظهرت عملية فلمينغ روز/موساد للعلن.

نُـــشرت الرســـوم الكاريكاتورية المعبّرة عن الكره للإسلام في الـــدانمارك في شـــهر أيلـــول/ســـبتمبر 2005 بينما كان الصهاينة الإسرائيليون والأميركيون يصعّدون حملتهم الدعائية لشن حرب ضد إيـــران. ومع ذلك، كان رد فعل البلدان الإسلامية محدوداً في بادئ الأمـــر. ولم تعـــرض *الإنترناشونال هيرالد جورنال* لهذا الأمر إلا في أواخـــر كانون الأول/ديسمبر 2005. وفي أوائل كانون الثاني/يناير 2006، فعّل الكاتساس (كلمة عبرية تعني 'ضباط' بالعربية) التابعون للموساد نشاط *السايانيم* (متعاونون يهود متطوّعون خارج إسرائيل) في وســـائل الإعلام الغربية والأوروبية الشرقية لنشر نسخات مطابقة للرســـوم الكاريكاتـــورية، وفي وقت واحد، في 1 و2 شباط/فبراير 2006. وتمـــثلت إحـــدى عمليات *السايانيم بحمل* المحرر الأعلى في *فرانس-سوار* أرنو ليفي ورئيس التحرير سيرج فوبير على اتخاذ القرار

بنشر هذه الرسوم في الصحيفة الفرنسية. وقام المالك الكاثوليكي الفرنسي-المصري للصحيفة مباشَرةً بطرد مدير التحرير جاك لوفران الذي كان قد عارض عملية النشر هذه، وفقاً لمقابلة صحافية مع السي أن أن، وذلك دون المساس بليفي وفوبير.

شُنّت عملياً حملة قوية في كل وسائل الإعلام الموالية للغرب، مُدينةً الاحتجاجات الإسلامية الأوليّة المعتدلة نسبياً التي حدثت بين أيلول/سبتمبر وكانون الأول/ديسمبر 2005 وأثارت بسرعة التصعيد الشعبي الذي تلى ذلك بمساعدة عملاء موساد سرّيين منتشرين بين الشعوب العربية. وصبّت أجهزة المخابرات الدانماركية، الزيت على النار من خلال توجيه النصح لرئيس وزراء الدانمارك اليميني أندرز فوغ راسموسن بعدم التراجع، رافضاً الاعتذار كما طلبت الأنظمة العربية ذات الميل الغربي، ورافضاً كذلك طلباً للقاء مجموعة من دبلوماسيي دول عربية وإسلامية معتمَدين في الدانمارك لمناقشة الوضع.

حاول فلمينغ روز/الموساد القيام بمناورة أخرى لزيادة التوتر بين الشرق والغرب. فعرض علانيةً نشر أي رسوم كاريكاتورية إيرانية في صحيفته تسخر من الهولوكوست. من الواضح أن المحرر الأعلى *لجيلاندز-بوستن* أدرك متأخراً برنامج فلمينغ روز المخبّأ ورفض العرض طالباً من روز أخذ إجازة عمل. وغارد روز إلى ميامي، لا إلى تل أبيب، حيث قد تثير إقامته هناك الشبهات حول الادّعاء القائل إنه مجرّد معارض للرقابة الذاتية. وفي ميامي، سيحظى بلا شك بحماية *السايانيم* المحليّين المسلّحين والمدرَّبين على الدفاع عن الصهاينة المهدَّدين.

السايانيم - المدافعون عن الحضارة الغربية

السايانيم، وهو اسم مشتَقّ من كلمة عبرية تعني المساعدة، وفقاً لفيكتور أوستروفسكي، هم شبكة عالمية ضخمة من اليهود العاملين في أمـــاكن استراتيجية أو مفيدة (الميدان العقاري، وسائل الإعلام، المـــيدان المـــالي، تجـــارة السيارات... إلخ) ارتضوا تقديم المساعدة لنشاطات الموساد الإسرائيلي داخل البلدان المقيمين فيها. وعُزي هذا الأمر إلى الولاء الوطني الكبير الذي يدين به *السايانيم* لإسرائيل أكثر مـــن ولائهم لأوطانهم الأم. ووفقاً لغوردن توماس ومارتن ديون في الـــسيرة الذاتية المفصَّلة التي وضعاها وهي بعنوان *روبرت ماكسويل، الجاســـوس الإســـرائيلي المـــتفوّق*(1)، كـــان قطب الإعلام روبرت ماكـــسويل ذو السمعة الرديئة مسرِفاً في انتمائه إلى *السايانيم* إذ كان يوفّر لهم التغطية، والمكاتب، والعلاقات السياسية، وخدمات تبييض الأمـــوال، وروايـــات نصب المكائد، نـــزولاً عند رغبة الموساد في إسرائيل.

تتـــراوح نشاطات هؤلاء المساعدين بين الأداء المثير للإعجاب والأداء الأكثر رتابة. ووفقاً لفيكتور أوستروفسكي في السيرة الذاتية للعـــام 1990 بعـــنوان *عن طريق الخداع*، يؤلّف *السايانيم* بركة من آلاف الأفـــراد الناشطين وغير الناشطين الذين يمكنهم توفير خدمات بـــشكل منفـــصل عن الولاء لقضية إسرائيل كما تعبّر عن ذلك أي عملية يقوم بها الموساد حالياً. والمنحى الساخر لهذا التدبير واضح: إن

(1) غـــوردن تـــوماس ومـــارتن ديون، روبرت ماكسويل، الجاسوس الإسرائيلي المتفوّق، الناشرون كارول وغراف، 2002.

قيام إحدى العمليات كعملية فلمينغ روز بتهديد المصالح الوطنية والاقتصادية للوطن الأم الذي ينتمي إليه عضو *السايانيم* لا يشكل فارقاً كبيراً بالنسبة إلى الموساد، وإذا افتُضح أمره فهو قد يسيء إلى منزلة اليهود في الشتات. وقد تكون الإجابة المعيارية للموساد: "ما الأسوأ الذي يمكن أن يحدث لأولئك اليهود؟ سيأتون كلهم إلى إسرائيل؟ عظيم". ومن الواضح أن لهذه اللامبالاة عواقب على اليهود الذين رفضوا الالتحاق كمعاونين للموساد في بلدان يمارس جهاز المخابرات الإسرائيلي تأثيراً فيها.

دعاية الموساد الحربية والجدل حول الرسوم الكاريكاتورية

عبّر قادة إسرائيل عن معارضتهم للمساعي الدبلوماسية التي تبذلها إدارة بوش لإشراك القوى الأوروبية في المفاوضات مع إيران، ممّا يُرجئ حدوث عمل ما ضد هذا البلد. وبصورة آلية ودون استفهام، أطلقت كل المنظمات الصهيونية واليهودية الرئيسية في الولايات المتحدة (آيباك، مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية، وغيرها) حملة وطنية متواصلة لتعبئة الكونغرس وأصدقائها في الفرع التنفيذي للقيام بعمل عسكري فوري ضد إيران أو لفرض عقوبات اقتصادية عليها. من جهة ثانية، كانت إدارة بوش تفتقر إلى التأييد الشعبي لهذه السياسة في الولايات المتحدة وبين حلفائها الأوروبيين وجماهيرهم الناخبة.

كانت سياسة الموساد تتمثل بإيجاد ذريعة *لانقسام* الرأي العام بين الشرق الأوسط (وما وراءه) والغرب بهدف تصعيد التوترات وإضفاء طابع الشر على الأعداء الإسلاميين الرافضين لذرائع الهيمنة

علـــى الشرق الأوسط. وخدمت رسوم روز الكاريكاتورية الموساد تمامـــاً. وكان بالإمكان التعريف عن القضية بأنها مسألة حرّية تعبير، ونـــزاع حول القيَم لا المصالح، بين "الغرب الديمقراطي" والإسلاميين "التوتاليتاريين" الأصوليين (كما وصفهم بايس-روز).

لا شـــيء يمكن أن يدحض الحقيقة. فقد أصرّ روز على الرسوم الكاريكاتورية الإسلامية واختارها، في حين رفضت صحيفته رسوماً مماثلة للسيد المسيح في ظروف سابقة. وصورة روز "كمعارض ثقافي للمعتقدات المقدَّسة" - فيما يعمل لصحيفة يمينية كان نجاحها اليومي قائمـــاً علـــى نشر "روايات إخبارية" معادية للمهاجرين (من منطقة الـــشرق الأوســـط) ومقابلات مؤاتية لمتطرفين صهاينة - لا تصدَّق للـــوهلة الأولى، علمـــاً أن تلك الصورة عزّزتها كل وسائل الإعلام الرئيـــسية. وإضـــافةً إلى ذلك، بينما يكون روز قد استهل التوترات الدولـــية، كان يُطلَب من المساعي التي يبذلها زملاؤه ورفاقه المنتمون إلى المحـــافظين الجدد داخل الموساد وخارجها، والذين يُلفتون انتباه الـــناس إلى المظهر الخارجي للرسوم الكاريكاتورية، أن تكون قادرة كذلك على التأثير في العالم العربي والإسلامي وإثارة غضبه. ويفسّر هـــذا الأمـــر المسافة الزمنية التي تفصل بين النشر الأول للرسوم ورد الفعل الكبيرة للمسلمين والذي حصل بعد أشهر.

في الـــنهاية، أثارت الرسوم الكاريكاتورية وما تلاها من شتائم وافتراءات طالت المحتجين الإسلاميين وحلفاءهم العلمانيين في أفريقيا، والشرق الأوسط، وآسيا، وأوروبا، احتجاجات سلمية كبيرة قام بها ملايـــين الـــناس ما لبثت أن اتخذت في ما بعد طابعاً عنفياً. ونشرت وســـائل الإعلام الغربية صوراً مثيرة لاحتجاجات وتظاهرات عنيفة،

وقد نجحت في بث الخوف والخشية المطلوبَين في البلدان المسلمة وفي نفوس الأقليات المسلمة المقيمين في أوروبا. واكتسبت حالة الرهاب من المسلمين زخماً. وربط دعائيون صهاينة في أوروبا والولايات المتحدة "الدفاع عن حرية التعبير" بمسألة سياسات "الأمن" الإسرائيلية. وفيما كان الغرب مشاركاً في تشويه سمعة المحتجين الإسلاميين، كانت إسرائيل تفرض حصاراً على غزة، بينما تقطع الولايات المتحدة وأوروبا كل المعونات المالية عن الفلسطينيين، مهددتين الناس بمجاعة على نطاق واسع بسبب ممارستهم حقهم الديمقراطي بانتخاب قادهم! وأحيت تمثيلية روز التحذيرية المرتبطة بحرية التعبير مبدأ "صراع الحضارات" الذي فقد مصداقيّته والذي ابتكره الصهاينة المحافظون. وباللعب على أوتار حالة الرهاب من المسلمين والحساسية المتزايدة إزاء الإساءة الغربية للمسلمين والقوميين العرب، قد يكون الخبراء الإسرائيليون بالحرب السيكولوجية يسلّطون الضوء على مسألة "حرية التعبير" بصفتها فتيل التفجير المثالي للنزاع.

لقد أدّى انتصار حماس الديمقراطي في الانتخابات- وصفتها إسرائيل بأنها حركة إرهابية- إلى تسريع المساعي الإسرائيلية لإقناع الحكومات الغربية بالإصرار على أن تقوم الأنظمة في البلدان المسلمة بقمع 'الشعوب الإسلامية اللاعقلانية' أو مواجهة حظر غربي أو قطع المعونات. (صوّر الإعلام الغربي الفشل في اتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة بحق المتظاهرين على أنه موافقة رسمية أو تحريض). لقد كانت المنظمات الصهيونية الرئيسية في الولايات المتحدة قادرة على التأثير في وزيرة الخارجية رايس لإلقاء اللوم على إيران وسوريا بإثارة

التظاهرات العالمية من غزة إلى الفيليبين. وكانت الاستراتيجية الإسرائيلية تتمثل باستغلال الانتهاكات الأوروبية بهدف إضعاف المعارضة الأوروبية لهجوم عسكري على إيران وسوريا أو لفرض عقوبات اقتصادية عليهما؛ أو استباق الأمر بعمليات مماثلة في غزة ولبنان.

ما وراء التجديف الديني

فيما ركّز معظم المحلّلين بشكل ضيّق على الرسوم الكاريكاتورية واصفين إيّاها بأنها مصدر التظاهرات الشعبية العالمية وأن هذه التظاهرات هي الهدف المنشود من عرض الرسوم، تبقى في الواقع، وفي أحسن الأحوال، فتيل التفجير المباشَر لسلسلة كاملة من الأحداث المستمرة ذات معنى *سياسي* أكبر. فمن عملية تمشيط العراق من خلال قصف جوي "مروِّع ومثير للصدمة" إلى التعذيب الجماعي والإذلال اليومي الروتيني في البلدان المحتلّة، ومن التدمير التام للفلّوجة (التي باتت رمز الإبادة الأميركية كما كانت غرنيكا بالنسبة إلى النازيين) إلى التدمير الإسرائيلي لجنين وفلسطين، ومن عمليات الاغتيال اليومية للفلسطينيين على أيدي المحتلّين الإسرائيليين إلى تدنيس القرآن الكريم في غوانتانامو، حاولت إسرائيل والولايات المتحدة وأوروبا إثبات أن أي مسلم في العالم ليس في أمان- سواءً كانوا في المدرسة، أو المنزل، أو المكتب، أو الحقل، أو المصنع، أو المسجد- وأن *لا شيء يعتبرونه غالياً على قلوبهم هو مقدّس*.

يعود سبب مشاركة الملايين في تظاهرات ضد رسم كاريكاتوري للنبي محمد (ص) نُشر في صحيفة اسكندينافية يمينية تافهة إلى أن هذا الأمر كان الواقعة الأخيرة - فتيل التفجير - التي

تُشعر بوقوع وشيك لسلسلة من الانتهاكات الاجتماعية والسياسية المتعمّدة التي تستهدف المسلمين والعرب والشعوب المستعمَرة. وفي حين ركّز الإعلام الغربي على الخلفية الدينية للمتظاهرين دون غيرها، فإن كل بلد تقريباً جرت فيه تظاهرات شعبية مستمرة كان عُرضة لتدخّل غربي حديث العهد، ونهب المواد الخام على نطاق واسع و/أو تعرّض حقوقه العلمانية للتدمير: فاجتيحت بلدان، ودُمِّرت منازل ومدارس ومستشفيات وأنظمة الصحة العامة ومياه الشرب، ونُهبت الموارد الزراعية والطبيعية، وسُرقت المتاحف والمكتبات ومواقع الآثار، وانتُهكت المساجد. وحوّل الغرب ظروف الحياة القائمة إلى جحيم لكل الناس المقيمين في البلدان العربية أو الإسلامية (سواءً كانوا علمانيين أو حريصين على التقيّد بالقواعد والعادات). وهكذا، تعرّض نبيهم (ص) - الشخصية الدينية الأكثر تعلّقاً بها - لإهانة متكرّرة وقد أفلت المرتكبون الإمبرياليون المتكبّرون ووسائل الإعلام التي تدور في فلكهم من العقاب، وقامت الدولة الإسرائيلية وعملاؤها *السايانيم* بتحريضهم وتقديم العون لهم. إن الإيحاء بأن المسلمين الممارسين يمكنهم تدنيس السيد المسيح دون التعرّض للعقاب هو تشويه فاضح للحقائق؛ نظراً إلى أن السيد المسيح هو من الأنبياء المكرَّمين في الإسلام، كما أن التعرض للأنبياء أمر مُناف لفكر المسلمين.

وبما أن الاستراتيجيين الإسرائيليين يعرفون ذلك مُسبَقاً، إذاً لم يكن تشويه سمعة الإسلام يحدث في خواء سياسي. فقد كانت الظروف المادية لانتفاضة إسلامية-عربية ملائمة: حققت حماس فوزاً ساحقاً في الانتخابات الفلسطينية، وكانت القوات العسكرية

الأميركية مُدركة أنها تخسر الحرب في العراق، وإيران ترفض الإذعان، وبوش يفقد التأييد الشعبي لحروب مستمرة ومستقبلية في الشرق الأوسط، وكانت آيباك، وهي الأداة السياسية الرئيسية لإسرائيل للتأثير في السياسة الأميركية، تخضع لتحقيق جنائي... وكانت استراتيجية إسرائيل القائمة على قيام الولايات المتحدة بخوض حروبها ترتدّ عليها. كانت هناك حاجة لإحياء التوترات السياسية-العسكرية التي كان قد تمّ استغلالها بعد 11 أيلول/سبتمبر 2001 لصالح إسرائيل: من هنا كان قيام فلمينغ روز بالتحريض، والترويج المنسَّق على نطاق واسع لإنجاز هذا العمل، وإثارة مسألة حرية التعبير في أوساط *السايانيم* والليبراليين والمحافظين والإيديولوجيين الغربيين المنتمين إلى المحافظين الجدد، وانفجار موجة الاحتجاجات التي كان بالإمكان توقعها، وافتعال التوتر في الشرق الأوسط من جديد... والتقدم الحاصل على صعيد تنفيذ بنود برنامج العمل الإسرائيلي.

من الواضح أن المواجهة التي تنمو ظروف حدوثها بسرعة تُنذر بأكثر من مجرّد مسألة حرية تعبير، وأكثر من مجرّد تحريض صريح قام به محرر ثقافي ضالّ تدلّله وكالة المخابرات الدانماركية المخترَقة. فما هو على المحك هو الفكرة المتعمَّدة، المُسبَقة والمبسَّطة وذات الطابع العِرقي عن الشعوب العربية، والإسلامية، وشعوب العالم الثالث التي تهدف إلى إطالة أمد ما يتعرّضون له من اضطهاد واستغلال وإخضاع وتعميقه، واستعداد الغرب

ما هو على المحك هو الفكرة المتعمَّدة، المُسبَقة والمبسَّطة وذات الطابع العِرقي عن الشعوب العربية، والإسلامية، وشعوب العالم الثالث التي تهدف إلى إطالة أمد وتعميق ما يتعرّضون له من اضطهاد واستغلال وإخضاع، واستعداد الغرب لقبول هذه العملية.

لقبول هذه العملية، وذلك بالرغم من القانون المحلّي أو الدولي الذي يوفّر لهم الحماية من التحريض على الكراهية.

إن مصادر الأفكار المُسبَقة والمبسَّطة عن العرب ذات الطابع العِرقي والأكثر انتشاراً وإثماراً وتأثيراً هي إسرائيل وأكاديمييها ما وراء البحار (ولا سيما الأميركيين والأوروبيين)، وخبراء الإرهاب، وعلماء النفس في الجامعات الأكثر أهمية، والمؤسسات الاستشارية، الذين قاموا بتوفير "الخلفية السيكولوجية" للتعذيب، والإذلال، والتحريض، وقمع الملايين الذين يناضلون في سبيل تقرير مصيرهم في مواجهة الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية.

مرة أخرى، وضعت إسرائيل وعملاؤها ما وراء البحار، بصفة خاصة، مصالح إسرائيل التوسعية والحربية فوق مصالح الشعوب الأميركية والأوروبية. وقد أدّى معيار "هل الأمر جيد لليهود؟" كما حدّدته الدولة الإسرائيلية، إلى حالة ظلامية من المواجهات الشعبية وحقد عميق بين الشعوب العربية/المسلمة والأنظمة الغربية. وما بدا ملائماً جداً لأمثال روز في العالم ولضبّاطهم وأعضاء *السايانيم* الطيّعين لدى الحث على المجابهة، فإنه قد يرتدّ عليهم مرة أخرى: فقد تتخطى الانتفاضات شعارات الاحتجاج على تشويه السمعة إلى مهاجمة السلطة في جوهرها والمتمثلة بالحكام العرب والمسلمين والمتعاونين مع النفوذ السياسي والاقتصادي الأوروبي-الأميركي. وفيما يُظهر الموساد مَكْراً بالتسلل وتحريض الجماعات المضطهَدة، فقد كان غير بارع بشكل غير عادي في التحكم بالانتفاضات الناشئة كما ظهر ذلك بعد فوز حماس مؤخَّراً ونجاح المقاومة العراقية.

خاتمة

فيما يزداد الجدل الذي أثاره الموساد بين الغرب والشعوب الإسلامية عمقاً - ودُعي بطريقة ملفّقة 'حرية التعبير في مواجهة التجديف' بدلاً من 'حرية التعبير في مواجهة الحث على الكراهية' - باشرت إسرائيل بفرض حصار اقتصادي وفقاً للأسلوب النازي على أكثر من 4 ملايين فلسطيني، متعمّدةً تجويعهم بهدف التنازل عن حرياتهم الديمقراطية. التعمّد هو التعبير المختصَر، وفقاً لجدعون ليفي، وهو محرر صحافي في صحيفة *هاآرتس* اليومية الإسرائيلية[1]، الذي نقل هذا القول عن دوف ويسغلاس، مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي، وهو يتوجّه بكلامه وبصورة هزلية إلى مسؤولين رفيعي المقام: "هو *(الحصار الاقتصادي؛ الذي قد يشمل الكهرباء والماء، إضافةً إلى الطعام) كموعد مع خبير في التغذية. سيغدو الفلسطينيون أكثر نحولاً ولكنهم لن يموتوا*". و"تمايل" المسؤولون الإسرائيليون "من شدة ضحكهم". وكما قال ليفي، فإن "أكثر من نصف الفلسطينيين كانوا يعيشون في فقر... العام الماضي، كان يواجه 37% منهم صعوبات في الحصول على طعام... وخفّض 54% من سكان غزة مقدار الطعام الذي يستهلكونه... وارتفع معدل وفيات الأطفال بنسبة 15%... وبلغت نسبة البطالة 28%". والتجويع الجماعي المخطَّط له لشعب وُضع في غيتو، وقيام منفّذي حكم الإعدام به بنبذه بشكل هزلي واصفين حالته *بزيارة إلى خبير في التغذية* هو نسخة مطابقة لمناقشة القيادة العليا النازية السياسة الداخلية الواجب

(1) هاآرتس، 19 شباط/فبراير 2006.

اتّباعها حيال الشعوب الخاضعة للتصنيف وفقاً لغيتو وارسو. وسُهّلت إلى حدٍّ كبير قدرة إسرائيل على فرض سياسة إبادة جماعية وتنفيذها من خلال المشهد الجانبي الرمزي الذي أخرجه الموساد-روز في أوروبا الغربية. ويكاد يكون النزاع الثقافي في خدمة الإبادة الجماعية خدعة ذكية أو مجرّد انتهاك للحساسيات الإسلامية؛ وهو في الواقع جريمة ضد الإنسانية.

القسم الثالث

خبراء في الإرهاب
أم خبراء إرهابيون؟



الفصل الحادي عشر

خبراء في الإرهاب

النظر في المرآة

بعـــد قراءة مئات الكتب والمقالات والاستماع إلى أعداد لا تُحـــصى ولا تُعَـــدّ مـــن الخطب والمقابلات لخبراء في الإرهاب وإرهابـــيين مـــن الولايات المتحدة، وكندا، وإسرائيل، وأوروبا، وأميركا اللاتينية، وآسيا، وجنوب أفريقيا، استنتجتُ وجود نماذج متكـــررة. فهم يستخدمون لغة مشترَكة لمعالجة مواضيعهم والبيئة المحيطة بهم، وهم أيديولوجيون إلى أبعد حدّ، ويختبئون وراء مظهر خـــادع مـــن الجعجعة العلمية، ويملكون حسّاً قوياً في الملاحظة الانتقائـــية، ويدّعـــون على الدوام امتلاك فهم سيكولوجي، علِماً أن عـــدداً قلـــيلاً من الناس، إذا توافروا، تفاعلوا مع مواضيعهم انطلاقـــاً مـــن حـــسّ تحليلي باستثناء ما يتعلق بظروف الاعتقال والاستجواب.

وأســـلوب هـــؤلاء قويم وأخلاقي إلى حدٍّ بعيد ويعتمد النقد الـــلاذع، وذلك بسبب فَرط المناقَشة والبحث، وهو مع ذلك سهل بتعابيره اللطيفة لوصف العنف في دولهم المشايعة. وتحاليلهم مليئة على الـــدوام تقريباً بقدح شخصي/فردي مشحون، ويعتبرون مواضيعهم خالية من أي حوافز سياسية.

توفّر لغة علم النفس التي تحمل مصطلحات معقّدة وسيلة تبدو شـــرعية للتعـــبير عن عدائية راسخة، وهي طريقة لافتراض حالة من التفوّق المتمدّن إزاء مواضيعهم التي تجرّد الناس من صفاتهم الإنسانية. وعملـــية التجـــريد هذه أساسية لكل المشروع الإرهابي-السياسي-الأكاديمي بهدف تقديم الإرهابي كشخص لا يتمتّع بصفات مُصلِحة، ولا مكـــان له في العالم، ولا وقت له للعاطفـــة؛ بكلمات أخرى، إن تصفيته الجسدية أمر جدير بالاهتمام. والخبراء الإرهابـــيون هم أرباب المهمة اليسيرة؛ فهـــم *يحرّضون* الفاتحين الاستعماريين والإمـــبرياليين ويعزّزون فكرهم القائلة إن الإرهابـــيين غير جديرين بأن يحكموا أو يُحكَموا في مناطق تنعم بالثروات أو حتى العيش في أي مكان قريب من الناس "المتمدّنين" أو "المختارين".

يتمثل الهدف بتقديم الإرهابي كشخص لا يتمتّع بصفات مُصلِحة، ولا مكان له في العالَم، ولا وقت له للعاطفة؛ بكلمات أخرى، إن تصفيته الجسدية أمر جدير بالاهتمام.

يُظهر الخبراء الإرهابيون عنف الحكام، وطموحاتهم القائمة على الغزو، وجشعهم المتمثل بالاستيلاء على الأرض والموارد، ودوافعهم الوحـــشية الهدّامـــة إزاء ضحاياهم في حين تأتي ردود فعل الضحايا والناجين بلغة تعبّر عن سلوك مَرَضي. من جهة ثانية، نعثر في الواقع علـــى الأمـــراض التي يتمّ اكتشافها سريرياً في عقول الذين يمارسون القـــتل الكلامـــي؛ الذين لا يمكنهم حل رموز العلاقة العرَضية بين عملـــيات الاغتـــصاب والتعذيب المتكررة التي ترتكبها الدول التي ترعاهم، وبين الصرخات اليائسة للمبعَدين أو المشرَّدين أو المستغَلّين ومحاولاتهم الدفاع عن أنفسهم أو بلوغ أي استنتاج أخلاقي ملائم.

كل خبراء الإرهاب تقريباً مصابون بجهل سيكولوجي مزمن للعنف المنهجي والشامل الذي يمارسه الغرب وإسرائيل على مجموعات خاصة. ومن يتعرّض لهذا العنف اليوم هم العرب، كما كان يتعرّض له المتمرّدون في أزمنة أخرى ويردّون على العنف الإمبريالي بالعنف.

كل خبراء الإرهاب تقريباً مصابون بجهل سيكولوجي مزمن للعنف المنهجي والشامل الذي يمارسه الغرب وإسرائيل على مجموعات خاصة.

إن ممارسة التعذيب المنتشرة هي وسيلة لإنهاك وترويض المقاتلين واستمالتهم، ومن ثمّ التسلّل إلى داخل حركات المقاومة. وتحظى طريقة الاستجواب بتبرير أيديولوجي ودعم أخلاقي من خبراء الإرهاب. ففي كتاباهم، يوصَف المتمرّدون أو الإرهابيون بأنهم غير منتمين إلى الحظيرة الإنسانية؛ فهم دون البشر وفي غيبوبة. ويوصَف قادهم بأنهم استغلاليون ومتلاعبون تهكميّون لا يتمتعون بأي قيَم إنسانية ولا أهداف لهم، كما أن الجماعات التي يهيمنون عليها هي "جيوب غير خاضعة لسلطة القانون". وما إن يُلزموا أنفسهم بقضية ما (تبقى حسناتها غير معترَف بها وغير مناقَشة)، حتى يرفضوا الإقرار بسلطة القانون والعدالة؛ فقط الموت والقتل والاستشهاد. هم يعيشون في دول ضعيفة، ولا تاريخ لهم أو ثقافة (أو يتمتعون على الأقل بثقافة أدنى من الثقافة الغربية، والحضارة اليهودية-المسيحية). وباختصار، سيكون العالم أفضل بدونهم.

بالنسبة إلى ممارس التعذيب، هذا يعني أن عمله أو عملها هو لصالح الحضارة. ويشعر خبراء الإرهاب بالانزعاج عندما يتمّ

الكشف عن ممارسي التعذيب وتصوير ما ارتكبت أيديهم من أعمال وحشية ونشرها في وسائل الإعلام العالمية. يشعر خبراء الإرهاب بالأسى لا بسبب الأعمال الناجمة عن الانحطاط الأخلاقي بل لأن هذا الأمر يؤكد ما كان يقوله الإرهابيون؛ فهم يثورون على ما يتعرّضون له من إساءة وإذلال على أيدي معذّبيهم الأميركيين/الإسرائيليين/الأوروبيين، والجنود، والمرتزَقة، والرؤساء. يحتجّ خبراء الإرهاب على *الكشف العلني*: بات العالم على اطّلاع على الأسرار القذرة غير المذكورة في تحليلاتهم، وتثير هذه الأسرار سببيّة الخوف الملازم. وبالرغم من كل شيء، كانوا قد نسبوا مشاعر الغضب والإذلال إلى الاضطرابات المزعومة في شخصية الإرهابيين، أو إلى سنوات طفولتهم أو عائلاتهم، أو الاختلالات الوظيفية الثقافية/الدينية. تصبح تصاريح خبراء الإرهاب أقل إقناعاً إزاء وقائع الإذلال الجسدي المعمَّمة التي ترتكبها جيوش ودول الممدِّنين المزعومين.

أسلوب خبراء الإرهاب

ترمز مقالة رئيسية للبروفسور جسيكا سترن نُشرت في *الويك إند فاينشل تايمز*، وهي بعنوان "كيف يفكر الإرهابيون"[1]، إلى أسلوب خبراء الإرهاب. وسترن محاضِرة في كلية جون أف كنيدي الحكومية ومؤلّفة كتاب حديث العهد، *إرهاب باسم الله: لماذا يقوم المقاتلون الدينيون بالقتل*[2]. وكون مقالاتها تُنشَر في صحف الأعمال

(1) فايننشل تايمز، 13 حزيران/يونيو 2004.

(2) جسيكا سترن، إرهاب باسم الله: لماذا يقوم المقاتلون الدينيون بالقتل، هاربر كولينز، 2003.

الأكثر أهمية، وقام ناشر هام بنشر كتاب لها، وبما أنها موظَّفة من قِبَل جامعة خاصة من النُخبة، فإن سترن تملك إذاً المصداقية الحقيقية التي تمكّنها من أن تكون خبيرة في الإرهاب لا مروّجة أفكار.

يعمل خبراء الإرهاب وينظرون إلى أنفسهم انطلاقاً من مستويَين: بوصفهم بحّاثة دراسيين، ومدّعين عامّين سياسيين ومستشارين أمنيين. وبوصفهم خبراء، يكون عملهم ذا نوعية مشكوك فيها بالرغم من تأكيدهم على امتلاك مجموعة وافرة من المصادر يزعمون عودهم إليها. أُجريت مقابلات مع العديد من الإرهابيين المزعومين في السجون حيث تعرّضوا على الأرجح للتعذيب والتخدير، ومن المحتمَل أن تكون الحوارات التي أُجريت معهم مراقَبة. وكانوا ينعمون بالحدّ الأدنى من الظروف الملائمة والمطلوبة لإجراء مقابلة عادلة. وبالرغم من ذلك، يمكن توقّع قيام خبير الإرهاب بحذف أي مقتطفات ذات مضمون سياسي بما أن منهجية عملهم المرتكزة على علم النفس تتطلب منهم السعي إلى اكتشاف ما يكمن وراء السطور ممّا يجعل النص النهائي غير متّصل بالموضوع جرّاء ذلك. ويبدو أنهم يُعنَون أكثر بانطباعاتهم المتحيّزة الخاصة حول كيفيّة قيام الإرهابي بالنظر والتكلم والاستماع، مركّزين عادةً على مدلولاتهم الشخصية التي تصوّروها مُسبَقاً في ما يتعلق بتعابير الوجه أو حركات الجسم.

يتفوّق خبراء الإرهاب في اختيار الحالة النموذج الأكثر سوءاً كونها تمثّل قيادة الإرهابيين؛ أي المتبجّح، والجشِع للمال، والميسور. وهم يُغفلون معيار مقاتلي المقاومة المضطهَدين، البسيطين، المضحّين، المتضامنين مع شعبهم، والذين يُعتمَد عليهم في غالب الأحيان لتأمين الطعام، والعناية الطبية، والملجأ.

هـــم يُغفلـــون واقـــع أنهم مسلمون أصوليون ذوو ثقافة عالية يسعون بكل طريقة متوافرة وراء المِهَن الحديثة المرتكزة على العلوم، ويـــستغلّون مـــا يـــوجَّه للغـــرب من انتقادات بسبب الاستعمار والإمـــبريالية، ويجـــدون أنه من الموافق لهم السعي إلى تقرير المصير، واعتماد حكم الغالبية، وممارسة إيمانهم.

هـــناك أيضاً مسلمون أصوليون وَرَعيّون- ينشدون العزاء في ممارســـات دينية، ويعيشون في نطاق ضيّق يشمل العمل والمسجد والعائلـــة - خبِروا التصدّع الكبير في حياتهم الوَرَعية ورد فعلهم علـــيها، ولا يعـــود سبب ذلك إلى قيام الإمبرياليين بانتهاك كل مقـــدَّس فحسب، بل إلى تدمير شبكة العائلة وقواعد الوجود التي تربط الأجيال ببعضها البعض. ويتجنّب هؤلاء المسلمون الوَرَعيون الـــتدخل السياسي إلى أن يتمّ انتهاك وسطهم الروحي والإنساني الحميم.

ووســـط الفوضـــى، والعنف، والإرباك، والنهب، واحتلال الـــبلد، يـــتمّ التأثير في شعب بأكمله بطريقة معاكسة. وفيما هم يحاولـــون الـــردّ والاحـــتجاج والـــنجاة، يسعون وراء حركات ومؤســـسات تملك بعض الموارد وقليلاً من النفوذ. وكان هناك في الماضي قوميون أشدّاء، واشتراكيون، وأحزاب شيوعية، واتحادات عمالية قوية، وحركات ريفية. وما تزال هذه المجموعات ناشطة في عـــدد قليل من البلدان حيث تتمتع بقوة يُحسَب لها حساب. من جهـــة ثانـــية، أُهلك القسم الأعظم منها من قِبَل الأنظمة التابعة للـــولايات المتحدة، والدكتاتوريين العلمانيين المحليين أو الدينيين، ومـــن خـــلال تفكيك الأحزاب الشيوعية. في ظل ظروف قاسية

تتطلب نشاطاً سرّياً ودعماً شعبياً، انضمّ العديد من الناشطين العلمانيين إلى حركات دينية ذات توجه سياسي تعتمد برامج معادية للاستعمار والإمبريالية، وبرامج للنضال الاجتماعي. والسياسة لا الدين هي المحفز لانضمام العلمانيين إلى حركات مستوحاة من الإسلام. لقد نصح ليون تروتسكي ذات مرة أتباعه إبّان الاحتلال النازي لأوروبا بأنه قد يكون من الضروري الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية إذا كانت الفُسحة الوحيدة المتوافرة للعمل السياسي. ونظراً لما تتمتع به الحركة المسلمة من قاعدة شعبية، ونظراً لخوضها صراعاً معادياً للاستعمار، من غير المفاجئ أن يكون العديد من العلمانيين (قد يكونون يساريين، وقوميين، وديمقراطيين) قد انضموا إلى هذه الحركات؛ وانتقلوا ربما في وقت لاحق إلى حركات سياسية أخرى.

إن إدراج الفسيفساء الغنيّة من مقاتلي المقاومة في صيغة إيديولوجية واحدة بسبب انتماءاتهم الرسمية - كما يفعل خبراء الإرهاب هؤلاء- هو خطأ جسيم. فهؤلاء الخبراء توّاقون إلى طرح *حل قمعيّ عام* لمشكلة "الإرهاب"، مُذعنين للمصالح السياسية لصارفي الرواتب في المؤسسات الكبيرة أو أجهزة الدولة. وهم يتغاضون عن تعقيدات غير ملائمة، وحوافز متنوّعة، وتقاربات في الحالتَين العلمانية والدينية. ويستعين خبراء الإرهاب بالعبارة الانفعالية *إرهابيون أصوليون إسلاميون* لوضع حدّ للنقاشات والتحاليل المدروسة التي قد تتطلب من الناس إعادة التفكير ملياً بدعمهم للحروب الإمبريالية والهيمنات الإسرائيلية، ومعارضتهم للقوميين العراقيين ومقاتلي المقاومة الفلسطينية.

إستجواب: أسئلة تُطرَح على خبراء الإرهاب

يدّعـــي خبراء الإرهاب أن الظروف الموضوعية، أو ما يشيرون إليه بتحقير على أنه استغلال أو قمع أو إمبريالية (مع اقتباسات على الـــدوام، وهـــو أمر يمكن توقعه)، ليست سوى مظهر خادع لتغطية حاجة شخصية أكثر عمقاً. ومن ثمّ يعمدون إلى كشف النقاب عن الحوافـــز الحقيقـــية؛ بلغـــة معقّدة. في الواقع، إن اللجوء إلى فئات سيكولوجية مفهومة ومطبَّقة بشكل غير مُتقَن هي الطريقة الأساسية الـــتي يـــستخدمها خبراء الإرهاب للتحكم بالعالم الموضوعي والتي تصطدم بتفسيرهم لسلوك مقاتل المقاومة.

العالم الخارجي الذي تنبثق منه حركات المقاومة العنيفة عدائي إلى أبعـــد حدّ. فالعالم أجمع يعتبر الولايات المتحدة وإسرائيل، مثلاً، لاعـــبَين عدائـــيَّين جداً لا يلتزمان بمعايير، إذ يعتبران نفسَيهما غير خاضعَين لمحاسبة أي من القوانين الدولية. يمكن لخبراء الإرهاب تجنّب هذا الواقع الجوهري الذي يصطدم بسلوك مقاتلي المقاومة من خلال التركيـــز علـــى عـــالمهم الداخلي المفترَض وعلى علاقاتهم المباشَرة. ويـــسمح هـــذا الأمـــر لخبراء الإرهاب بتفادي المظاهر غير السارّة لـــولاءاتهم لدولهم؛ الولاءات البدائية، والقبلية، والعشائرية، والإثنية، والدينـــية، والاســـتعمارية، والإمبريالية *الكامنة تحت* المظهر الخادع للاحترام ودفاعهم الزائف عن الحضارة والإنسانية.

ورُوِّع هـــؤلاء الخبراء *بصور* التعذيب الذي تمارسه الولايات المـــتحدة في العـــراق؛ لا *بالأعمال* بحدّ ذاتها. وتكشف الإيحاءات النقاب عن همجية شركائهم، وممارسي وَصْفاتهم، والعالم السفلي للجـــريمة والعقـــاب المـــشتقّ منطقياً من نظريات خبراء الإرهاب

التوتاليتارية الخاطئة. ويقرّب هذا الأمر خبراء هارفرد، وبرينستون، ويالن وجونز هوبكينز من المسارح الهمجية التي تشهد عمليات اغتصاب بين الجنس الواحد وبين الجنسَين، وتعرّض الأعضاء التناسلية لعنف متتال. ويتخذ خبراء الإرهاب بالطبع موقفاً ساخطاً من الحراسُ القُساة، والمستجوبين، والقادة العسكريين. وهم يلزمون الصمت بسبب تعرّض مأموري صرف الرواتب للتشهير - رامسفيلد وبوش - عالمين تماماً بأن الرئيس التالي سيستعين أيضاً بخدماتهم. وفي كل حال من الأحوال، من ذاك الذي سينظر بعمق وبعيداً عن مسارح التعذيب ويحدّد مَن من خبراء الإرهاب يشارك في التعذيب؟

يعبّر هؤلاء الخبراء ببساطة عن تشخيصهم المتعلّق بمقاتلي المقاومة المسلّحة: مصابون باضطراب عقلي وغير قابلين للشفاء، خطرون للغاية عندما يكونون مُطلَقي السراح. والسياسيون يُملون الأوامر: اعتقال، سجن، تعذيب، أو قتل. وتحطّم القوات الخاصة الأبواب في منتصف الليل، ويقطعون الأعناق أو يأخذون أسرى. ويضع آمرو السجن قواعد الاستجواب، ويقوم الحراس بالتعذيب. هو توزيع دولي منطقي جداً للمهام يلعب فيه خبراء الإرهاب دوراً هاماً في تطوير الأساس المنطقي. هم يعملون على إيجاد صيغة لحرب حتى الموت مبرَّرة أخلاقياً وعلمياً تستهدف الأشخاص الأدنى منزلة، والمسلمين العرب الأصوليين، وزارعي المتفجرات الانتحاريين، والإرهابيين. وتسري لغة مشترَكة بين خبراء الإرهاب وأسيادهم من أركان الحكم، ومن ثمّ يروَّج لها في وسائل الإعلام ومن خلالها.

في مـــا يلي بعض الأسئلة المطروحة على خبراء الإرهاب أولاً: لمـــاذا يعبَّـــر عـــن الحاجات الشخصية للإرهابيين الذين تُلصَق بهم اتهامات، وذلك من خلال السياسة (وليس من خلال ألف قناة وقناة شخصية، عائلية، ثقافية، اجتماعية-اقتصادية، أو مدنية)؟ لماذا يعبَّر عـــن الحاجات الشخصية للإرهابيين لمواجهة عدوّ ما (القوة المهيمنة) بـــدلاً مـــن مواجهة مجموعة وافرة من الأمـــور الموضوعية المباشَرة قد يكون التطرق إليها أقل خطورة وسهولة؟ لماذا تعبّر الحاجات الشخصية للإرهابيين عن ذاتهـــا خدمةً لمجموعة معيَّنة (العائلة، أو الجِوار، أو الأمّة، أو الطبقة) لا خدمةً لمجموعة أخرى (قوى خارجية، ونُخَب حـــصريّة... إلخ؟) لِـــمَ يعبَّـــر عـــن "الحاجات الشخصية" للإرهابيين في وقت محدَّد (خلال الاجتياحات، الاحـــتلالات... إلخ) ومكـــان محـــدَّد (موقـــع القـــوة الإمبريالية، والمؤسسات العسكرية والسياسية، ومخافر الشرطة المرتزقة)؟

لِمَ يعبَّر عن الحاجات الشخصية للإرهابيين الذين تُلصَق بهم اتهامات، وذلك من خلال السياسة، ضد عدوّ معيَّن، وخدمةً لمجموعة معيَّنة (العائلة، أو الجِوار، أو الأمّة، أو الطبقة) وفي زمان ومكان محدّدَين؟

مـــن الواضـــح أن التعـــبير عن الصفة الشخصية يتمّ بأشكال وأهداف متعددة وفي أماكن وأزمنة متعددة. ولشرح *أعمال* سياسية محدَّدة، يجب علينا تفحّص العلاقات السياسية والإيديولوجية والطبقية للسلطة الحاكمة، إضافةً إلى مظهرها المحلّي والدولي.

المجمـــوعة الثانـــية من الأسئلة هي تكرار للأولى: لماذا لا تعبّر الحاجـــات الخاصـــة عـــن ذاتها بأشكال لاعنفية أخرى من العمل السياسي كخوض انتخابات، مثلاً، بدلاً من أن يتحوّل المطالبون بهذه

الحاجـــات إلى مقـــاتلين في حـــرب عصابات أو زارعي متفجرات انتحاريين... إلخ؟ وبصورة أدقّ، ما الذي تحول العقبات السياسية أو الموضـــوعية أو الجـــدران الرمزية دون حدوثه غير الأشكال العنيفة للعمـــل السياسي؟ ويمكننا افتراض أنه كلما كان *الإغلاق* المفروض على النظام السياسي (حكم استعماري أو استعماري جديد، احتلال عـــسكري طويل الأمد، إيديولوجية وممارسة عِرقية حصرية، تعذيب منهجـــي للمشتبَه بهم على نطاق واسع) أكبر، كانت درجة *اجتثاث التطهير العرقي* أكبر، وكان الخيار الذي تفرضه القوة الحاكمة أبسط على الأرجح: اخضع أو تمرّد. وفي ظل هذه الظروف، هناك إمكانية أكبر لحدوث مقاومة عنيفة، فردية أو جماعية.

التفجيرات الانتحارية هي شكل من أشكال التضحية الفردية، أو المقاومـــة الفردية باسم الجماعة. وفي المجتمع الغربي، إن التضحية الفـــردية للدفاع عن أمّة في حرب تستحق أرفع الأوسمة العسكرية؛ وسام الشرف المتميّز مع احتفالات عسكرية ودينية مميَّزة. وفي الشرق الأوســـط، تـــرافق نشاطات تكريمية مماثلة مآتم لزارعي المتفجرات الانـــتحاريين: يُعتبَرون شهداء لقضية التحريـــر الوطني. فلماذا ينسب خبراء الإرهـــاب السلوك المرَضي إلى مقاتلي المقاومـــة الشرق أوسطيين وليس إلى أبطـــالهم العسكريين الذين قضوا دفاعاً عـــن الإمبراطورية الدموية؟ لماذا يُطلَق على حضارة تكرّم شهداءها الـــذين ضـــحّوا بأنفسهم صفة التمدّن فيما تُدعى أخرى متعصّبة، وعنيفة، وهمجية؟

التفجيرات الانتحارية هي شكل من أشكال التضحية الفردية، أو المقاومة الفردية باسم الجماعة.

هذا السؤال على صلة بالموضوع بصفة خاصة. فكما هو الحال في كــل الأمـــم وعلى امتداد التاريخ، فإن المقاومة التي تواجه محتلاً إمبريالياً يتمتّع بقوة عسكرية أكبر وبالتنظيم والتكنولوجيا أضافت إلى أيديولوجيـــتها التضحية بحياة شخص بهدف التسبّب بأكبر عدد من الإصابات في صفوف العدوّ.

يعلّمنا التاريخ عن وجود أفراد أو جماعات (أمم/شعوب... إلخ) - وما زالوا موجودين - مستعدين للدفاع عن الأمّة والمنـــزل لدى مـــواجهة قوى عسكرية أكبر؛ بغض النظر عن التكلفة المحتمَلة. نادراً مـــا تقـــوم البلدان (الدول الإمبريالية بصفة خاصة) التي تملك قوى عـــسكرية أكبر باستخدام الجسد البشري، فردياً أو جماعياً، كقذيفة صـــاروخية أو سلاح. فلم يُستخدَم مقاتلو الكاميكاز اليابانيون لدى احـــتلال الصين أو الفيليبين بل استُخدموا فقط لدى مواجهة اليابان القوة الجوية والبحرية الأميركية المتفوّقة.

هـــذا، ويحـــاول خبراء الإرهاب تشويه سمعة سياسات المقاومة الـــشعبية مـــن خـــلال قـــيام القادة الذين لا يملكون حوافز جديرة بالاهتمام بوصف عملية تدبّر أمر الأتباع الجاهلين بأنها صراع. يشمل هذا الأمر كل الحركات الشعبية التي تملك بطبيعتها مجموعة كاملة من القـــادة والناشـــطين فـــيها والمتعاطفين معها الذين يواجهون خطراً شخـــصياً كبيراً بسبب انتسابهم إليها. ويتخيّل خبراء الإرهاب قادة يسعون وراء المال والمنـــزلة والنفوذ والأعمال... إلخ. ومرة أخرى، تفـــشل تقنـــية كشف النقاب في شرح الوقائع الجليّة. ويُثبت الدليل الذي لا يقاوَم في مختلف أنحاء العالم، في الماضي والحاضر، أن أولئك الـــذين يناضلون ضد قوة إمبريالية استعمارية مهيمنة يُمنَون بخسائر

مادية جسيمة في الأرواح، والعائلة، والأعمال، والدخل، والمنازل، والأملاك. وفي حالة الفلسطينيين، يعاقب اليهود الإسرائيليون كل أفراد العائلة الواسعة، ويسرقون الممتلكات والأمتعة الشخصية، ويدمّرون البساتين التي زرعت منذ عقود ولا تزال كذلك والحقول المحروثة. وفي حالة حركات المقاومة، من النادر جداً تمكّن القادة من جمع ثروات وسط صراع الحياة والموت. إن أولئك الذين يثرون عادةً يتمكنون من القيام بذلك بعد انتهاء الصراع، ولا سيّما إذا تبعوا مآمير صرف الرواتب من استعماريين جدد يتبعهم خبراء الإرهاب كذلك. في الحقيقة، هم المتعاونون ومخبروهم الأكثر تقرّباً من خبراء الإرهاب الذين يجمعون ثروات من خلال التجسس وتسليم الوطنيين الذين يدعوهم الخبراء إرهابيين.

يشارك خبراء الإرهاب تكراراً في قلب الأدوار، محوّلين الضحايا إلى جلاّدين والجلاّدين إلى ضحايا. كان هذا الأمر خدعة مألوفة يعتمدها الإيديولوجيون الإمبرياليون التوتاليتاريون لتبرير استخدام القوة؛ من النازيين إلى الاستعماريين الأميركيين والأوروبيين والإسرائيليين في يومنا الحاضر. ولتبرير ادّعاءاتهم المُحالة، ينقّب خبراء الإرهاب العالم للعثور على بعض الجماعات أو القادة الفرديين الذين يؤكّدون أفكارهم المُسبَقة المبسَّطة ولدغدغة قرّائهم في نيويورك، وتل أبيب، وواشنطن، ولندن. يلتقي خبير الإرهاب قائداً (مسلماً بالطبع) صودف أنه يقود "مجموعة يُعرَف عنها ضرب أعناق الأجانب وإقامة تحالف وثيق مع أسامة بن لادن". وكان خبير الإرهاب هذا قد ضغط على كافة الأزرار الصحيحة، برأيه، لإثارة الرد المكيَّف؛ لكنها الأزرار الخاطئة. فالملايين المشاركون في مقاومة عنيفة لا يضربون

أعناق الأجانب؛ بل فقط عدد قليل منهم، وفي ظل ظروف مشكوك فيها.

التشهير اللاذع والانتقائي بأحدهم يُعدّ القارئ الغربي لقبول التهمة المنسوبة إلى هذا الشخص بشكل عاطفي. تزوّدنا الأكاديمية جسيكا سترن من هارفرد بمثال نموذجي – محاكاة ساخرة تقريباً – عن هذه المقولات الجدلية. فهي تصف الغاية من دراستها بأنها "تحديد لبعض المواضيع الشائعة التي قد تساعد على شرح كيفية استمرار العَدَمية الإسلامية العنفية بالانتشار في الجيوب التي لا تخضع لسلطة القانون، وفي الدول الضعيفة حيث يميل الإرهابيون إلى الازدهار، وداخل مدن الغرب"[(1)]. ولا تسلّم العَدَمية بأي أهداف، أو قيَم، أو خيارات. وقد يعارض معظم المراقبين هذا الأمر استناداً إلى قراءة بسيطة لمعظم المواقع الإسلامية الثورية أو الراديكالية على الوِب: لديهم أهداف؛ استبدال الهيمنة الغربية بحكام إسلاميين وطنيين. تشمل قيَمهم أشكالاً تقليدية دينية وعصرية أخرى، وتتمثل بدائل الإخضاع بالنسبة إليهم بحرب العصابات والمقاومة الجماعية أو الفردية.

كانت المناطق المجاورة لبعضها والمدن والمجتمعات الصغيرة التي نشأ فيها العَدَميون المزعومون أكثر استقراراً والتزاماً بالمعايير وتقبّلاً للقانون، وذلك *قبل* تدخل القوة الإمبريالية والاستعمارية بشكل فعّال وتمزيق الشبكات التي تربط الجماعات ببعضها إرَباً. فالجيوب غير الخاضعة لسلطة القانون هي نتاج عدم رغبة وقدرة القوى المهيمنة

---

(1) جسيكا سترن، "كيف يفكر الإرهابيون"، فايننشل تايمز، 13/12 حزيران/يونيو 2004.

ووكلائها في إقامة نظام اجتماعي عادل ومستقر. وعلاوةً على ذلك، يمكننا الملاحظة في حالات عديدة أن عدم الخضوع لسلطة القانون هو أمر انتقائي: تتمرّد الشعوب الخاضعة للاحتلال على القوانين الاستعمارية والمراسيم والأحكام، في حين أنها تتقبّل القوانين التي تعلنها سلطاتها الشرعية الخاصة. وبصفة عامة، فإن المناطق المحرَّرة حديثاً والتي تُدير شؤونها الجماعات المقاتلة تعترف بسلطة القانون أكثر ممّا كان حالها إبّان الاحتلال العسكري أو الاستعماري الذي كان يجيز تعاطي المخدرات، ويحمي بيوت الدعارة والحانات.

لقد أحرز مفهوم الدول الضعيفة سمعة رديئة في أوساط النقّاد الغربيين والأكاديميين، ولا سيّما خبراء الإرهاب. إن أنصار هذا المفهوم يستخدمونه لوصف انهيار الأمم التي دمّرها وكلاء مولَعون بالقتال وموالون للغرب، و/أو نهبتها مصارف غربية في ظل وصاية وحماية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وممّا لا شك فيه أنه كان يوجد في الاتحاد السوفياتي السابق، وأوروبا الشرقية، والعالم الثالث، حكّام من قاطعي الطرق؛ ولكنهم كانوا مدرَّبين في غالب الأحيان من قِبَل مؤسسات أو جامعات غربية، ويرسلون ثرواتهم التي كسبوها بوسائل غير مشروعة إلى مصارف غربية، إسرائيلية، أو خارجية. وبقيام خبراء الإرهاب بنعت ذرّيّتهم الآنف ذكرها بالحكّام الفاشلين، يتبرّأون بذلك من ذريّتهم الخاصة. وما عناه الأيديولوجيون الإمبرياليون بالدول الضعيفة هو فشل الأتباع في إقامة نظام ليبرالي جديد مستقر، ممّا يوجب تدخلاً أوروبياً-أميركياً إمبريالياً "ناجحاً" لتحقيق "ديمقراطيات مزدهرة"؛ على غرار مرحلة ما بعد اجتياح كوسوفو وأفغانستان والعراق وهايتي حيث سادت تجارة الرّق

الأبـيض والمخـدرات، وأسياد الحرب، وحكم فِرق الموت، وذلك بمساعدة الطوافات الحربية الأميركية التي تجوب الأجواء وتُطلق النار على مناطق صعبة المِراس مجاورة لبعضها.

قامت سترن وقتَلة آخرون بواسطة الكلام بتجريد الضحايا من إنـسانيتهم (عَدَمـيون)، وشوّهوا سمعة مسقط رأسهم (جيوب غير خاضـعة لـسلطة القانـون)، وتنكّروا لأصالة أممهم التاريخية (دول ضـعيفة)، وأشرفوا على إبادهم، وتوزيعهم وفقاً لغيتويات في مناطق مدمَّـرة اقتـصادياً غير قابلة للحياة، وتعذيبهم. وانطلاقاً من منظور خبراء الإرهاب، يُعتبَر القصف الأوروبي-الأميركي والإسرائيلي لهذه المراكـز الـسكنية بمثابة تقديم خدمة كبرى للإنسانية: منع انتشار الإرهابيين في مدن الغرب.

إن خطـاب خبراء الإرهاب الحادّ والمناهض للعرب/المسلمين يـشجّع الـسياسيين الغربيين المعتدلين على فرض مزيد من التدابير الإدارية المُذلّة والقانونية ضد المسافرين والمهاجرين والزائرين والقادة الدينـيين والأكاديميين ورجال الأعمال العرب، والشرق أوسطيين، والآسـيويين الجنوبيين. باستهدافهم من قِبَل وسائل الإعلام الغربية، ومـوظَّفين حكومـيين، وشرطة دائرة الهجرة، وموظَّفين عدائيين في الـسفارة، وخبراء أكاديميين في الإرهاب، وأجهزة المخابرات، وفرَق اغتـيال خاصـة، لتـشويه سمعـتهم بأسلوب منهجي، يتمّ إكراه الأشـخاص المضطهَدين على التبدّل ليتلاءموا مع حالة وطنية طارئة ومزمنة. والعلاقات التي يحدّد طبيعتها الحاكم هي سلسلة من الأعباء الثقـيلة الدائمة، وزيارات غير مرحَّب بها لعملاء استعماريين منحهم خـبراء الإرهاب الإمبرياليون الإذن للقيام بذلك بهدف فرض النظام

كما يُزعَم. وفي مواجهة مسعى منهجي لتخفيض مستوى اعتدادهم بنفسهم، يجد الأشخاص المقموعون أنفسهم في منظماتهم الخاصة بهم سواءً كانت علنية أو سريّة، دينية أو علمانية. ويعبَّر عن عملية إعادة التأكـيد هـذه بإصرار متجدِّد على هوية دينية أو علمانية متجسّدة بمسجد، أو كنيسة، أو حركة سياسية، أو منظمة مقاومة.

تعطّـل القـوة الاستعمارية/الإمبريالية *الروتين اليومي* للشعب عامةً: الذهاب إلى العمل يستلزم اجتياز حواجز في الطرقات، وأماكن العمـل مدمَّـرة، والأشـجار المُثمرة مقتلَعة من جذورها. ويصبح "الاعتناء بالعائلة نضالاً يومياً لاستمرار الحياة من خلال تأمين الطعام بأسـعار السـوق السوداء، مع ما يرافق ذلك من إمكانية التعرّض لإطـلاق نـار في السوق لا يمكن التوقع بحدوثه. ويغدو الاستمتاع بأوقـات الفراغ ذكرى ماضية في مرحلة ما قبل الاستعمار. وهناك الآن أوقـات فراغ مفروضة بالقوة – عاطلون عن العمل، ومعتقَلون في دوائر الشرطة، أشخاص لا مستقبل لهم- في الشارع حيث ينظِّم الاسـتياء الفردي من قِبَل قادة الرأي المحليين الذين يركّزون على ما يتوجّب القيام به. وتأييد أطراف النـزاع، والتعاطي مع الاضطهاد، وتصلّب المواقف، هو مسعى أساسي لاستعادة الروتين اليومي.

يـؤدّي التمازج المعقّد للولاءات الروحية القوية، والمسؤوليات العائلـية، واستبدال مكان العمل، إلى التزام بتوجيه التحركات وإلى حـركة سياسية؛ هي عملية منطقية ومعقّدة. والأفكار الاستعمارية التي كوّنها خبراء الإرهاب سلَفاً تُعمي هؤلاء عن إدراك هذه الحقيقة. فعلـى سبيل المثال، تعتبر سترن أن مقاتل المقاومة الملتزم هو في حالة من الغَشية؛ أي أنه غير منطقي، وجازم، وبالغ البساطة.

يـــردّد خـــبراء الإرهاب حتى الغثيان أن الإرهابيين ينضمون إلى مـــنظماهم بحـــثاً عـــن القوة، وهذا رد فعل شائع لكل أولئك الذين ينخرطون في العمل السياسي والاجتماعي. يحوّل خبراء الإرهاب ظاهرة مألوفة تعود لأكثر من 3.000 عام أو أكثر إلى ميزة خاصة بالإرهابيين. فمقاتلـــو المقاومـــة يملكون بالفعل مَيلاً لحب الغير وفكرة الصالح العام؛ وهـــذين أمرين يرفض خبراء الإرهاب أخـــذهما بعين الاعتبار وبجدّيّة. وللقيام بـــذلك، يستلزمهم الأمر إعادة تفحّص عمـــيقة لولاءاهم الخاصة، ولتعاولهم مع القـــوى الإمبريالية/الاستعمارية، ولنقد ذاتي عمـــيق يتناول انتماءاهم المؤسساتية وحوافـــزهم. قـــد تكون هذه الخطوة اختباراً سيكولوجياً ومادياً صعباً لهم نظراً للتهديد الذي تتعرّض له هيبتهم، ودخلهم، ومنـــزلتهم، وقدرهم على الـــتأثير. وقـــد يؤدّي هم التحليل الانتقادي الفاحص إلى مساءلة مآمير صـــرف الرواتب، ومؤسساهم، ودولهم الاستعمارية/الإمبريالية. ولكن مَـــن مـــن المؤسسات قد يدفع لخبير إرهاب مرتدّ لقاء الإدلاء بشهادته حـــول الأضـــرار اللاحقـــة بزملائه، والتحريفات، والعلاقات الوثيقة بالـــسياسيين الذين يُجيزون التعذيب والقتل؟ هل أن زملاءه السابقين يـــصفون المـــرتَدّ بأنه في حالة من "الغَشية"، "ضحية عقدة ستوكهولم" (موافقين على وجهات نظر معتقليه)؟

يملك مقاتلو المقاومة بالفعل مَيلاً لحب الغير وفكرة الصالح العام؛ وهذين أمرين يرفض خبراء الإرهاب أخذهما بعين الاعتبار بجدّيّة. وللقيام بذلك، يستلزمهم الأمر إعادة تفحّص عميقة لولاءاتهم الخاصة، وتعاوناً مع القوى الإمبريالية/الاستعمارية.

يتخصص ممارسو الحكم الاستعماري وخبراؤهم الأكاديميون في الـــتحقق مـــن صحة أفكار الآخرين المُسبَقة والمبسَّطة حيال مقاتلي

المقاومــــة. فهم يُفرطون في تبسيط حوافزهم، وقراراتهم، والتزاماتهم، ويـــتّكلون على مقولات مشوَّشة تخفي حقائق بنيويّة أعمق تحملهم على إطلاق صفات غير موضوعية. فقبل كل شيء، هم يضعون أي حقـــيقة موضوعية جانباً. ويصف خبراء الإرهاب العلاقات القائمة علـــى النفوذ والهيمنة، وعنف الدولة، والتدخلات العنيفة في شؤون الـــبلدان العربية والمسلمة، واللاتينية الأميركية، والبلدات، والقرى، بأنهـــا دفاعـــية أو انتقامية. وفيما أوصال وأعضاء الأجسام المبتورة للأطفـــال، والنساء، والشيوخ الفلسطينيين متناثرة فوق بقايا المنازل والجـــوارات المدمَّـــرة بالقصف، كتب هارفي موريس، مدير المكتب الـــصهيوني *للفايننـــشل تايمـــز* في إسرائيل، عن الانتقام الإسرائيلي. والـــتخلّص مـــن الحقائـــق الموضوعية يعني العجز عن تلمّس الحالة الإنسانية للضحايا الخاضعين للاستعمار؛ لذلك السبب، وجُب على الخـــبراء التعـــريف عـــن الضحايا بأنهم دون البشر. وبما أن خبراء الإرهاب يُدينون الضحايا الأكثر تعرّضاً للإساءة باسم القوى الأكثر شـــرّاً، فهـــم يقنعون أنفسهم إذاً بأن انتقاداتهم الساخرة هي خدمة للحقـــيقة والعلم ليس إلاّ. لقد ابتكر خبراء الإرهاب نموذجاً جديداً؛ الانتقادات العلمية الساخرة في خدمة الكذب الفكري.

خـــبراء الإرهـــاب هم أسياد التعبير اللطيف، ولا سيّما لدى التعاطـــي مـــع العـــبث الـــذي يرافق بناء الإمبراطورية. لقد بات الإمـــبرياليون العالميين الوحيدين، ويُدعى الاحتلال الاستعماري بناء أمّـــة. وتـــصبح الحروب الهجومية المدمِّرة المتتالية والقاتلة تدخلات إنسانية. وفي حين يُعتبَر خبراء الإرهاب القوة المحرّكة في عملية تغيير قامـــوس الـــتعابير المعـــتمَدة، يلاحَظ المدى الذي بلغه الأكاديميون

العاديون في اعتماده. وقبل كل شيء، يحتفل خبراء الإرهاب بالإمبريالية المنتصرة: قيل لنا إن الشعوب المهزومة الخاضعة للاستعمار ممتعضة؛ "أولئك الذين يشعرون بأهم غير قادرين على التواصل". كيف سيتمكّن مزارع فلسطيني من التواصل مع مستوطن يهودي استولى على أرضه ومياهه وهو مدعوم من قِبَل قاطعي طرق محليين وجنود إسرائيليين يعملون وفقاً للسلطة التي تمنحهم إيّاها الحكومة، كما أنه يقطع عليه طريق الوصول إلى السوق؟ فكل ما هو دون الامتعاض يكون ضرباً من ضروب الماسوشيّة. هل من العجَب قيام أولئك الذين تمّ اجتثاثهم من أراضيهم وطردهم من منازلهم بالمخاطرة بحياقم لتحويل الامتعاض إلى مقاومة؟ سيقومون بذلك أيّاً كان الثمن. عندما اقتحمت الدبابات الجوارات العراقية بعد قصف المنازل والمساجد، هل من العَجَب قيام الجيران الغاضبين بالاحتشاد حول دبّابة كُمِن لها والرقص على بقايا المعدن الذي يرتفع منه الدخان والجثث؟ هل هو مشهد بغيض لإرهابيين عديمي الرحمة أم لجيران متهلّلين أسكتوا صوت القذائف المنطلقة فوق رؤوسهم والمتّجهة إلى داخل منزل جيرانهم؟

في حين يُعتبَر خبراء الإرهاب القوة المحركة في عملية تغيير قاموس التعابير المعتمَدة، يلاحَظ المدى الذي بلغه الأكاديميون العاديون في اعتماده.

ظهر خبراء الإرهاب قبل المقاومة العراقية، وسيبقون موجودين بعدها. وكلّما انتفض المقموعون وقاوموا الحكم الإمبريالي بفعّالية، كانت هناك مناصب أكاديمية إضافية، ومِنح تقدّمها المؤسسات، ومراكز للدراسات الدولية لخبراء الإرهاب الطموحين، إذ إن مبنى

الإمبريال ستايت سيكون بحاجة إلى خدماتهم، وسيعرض مستشارون رفـــيعو المقـــام في العلاقـــات الدولية عليهم العضوية، وستكافئهم الجامعات بأستاذيّة متميّزة. وهم سيغدون من المشاهير؛ تركّز عليهم بـــرامج المقابلات في وسائل الإعلام. وسيكونون بعيدين عن ميادين القتل، ولكنّ روحهم ستبقى هناك على الخطوط الأمامية وفي غرف الـــتعذيب، مـــوجّهين الأيدي التي تضع أغطية الرأس على العَدَميّين، والمسلمين، والماركسيين، والوطنيين القوميين الذين لن يكون بإمكان أحد إنقاذهم.

الفصل الثاني عشر

زارعو المتفجرات الانتحاريون

المقدَّس والنجِس

مقدمة

إن أحـــد المظاهـــر الأكثـــر أهميّة لهجمات زارعي المتفجرات الانـــتحاريين والتي حظيت بأقل قَدْر من المناقشة هو الحدّ الأنغلو-أميركـــي المنهجـــي والعمـــيق من قَدْر أكثر ما هو مقدَّس في الدين الإســـلامي: مجموعة مبادئه، وطريقة الممارسة الروحية فيه، وشعائره الدينية، ونصوصه المقدَّسة، واحترامه للمؤمن اليقِظ.

يركّز مروّجو الأفكار الليبراليون الموالون لإسرائيل والمنتمون إلى المحـــافظين الجـــدد، صـــحافيين كانوا أم أكاديميين، على ما اختاروا تـــسميته مَرَضـــيّات المسلمين الشبّان، وتعصّب معتقداتهم، وعنفهم الذي لا مبرّر له، والغضب المتوارث عبر الأجيال، والإحباط بسبب العيش في دول ضعيفة، وتلاوة طويلة من التصرفات اللاعقلانية التي تُحِلّ الأنغلو-أميركيين والإسرائيليين ممّا يرتكبونه من عنف وتعذيب.

تـــشدّد مدرســـة فكرية تقدّمية على الطبيعة العكسية للعنف؛ حروب الأنغلو-أميركيين واجتياحاتهم واحتلالاتهم التي تولّد الإرهاب العـــربي أو الإســـلامي بوصـــفه جزءاً من عنف لولبي. وفي بعض النسخات، يوضع العنصر الديني في مرتبة أدنى من الاهتمام السياسي

المتعلّق بتقرير المصير لدى شرح سلوك زارعي المتفجرات الانتحاريين.

فيما يملك المنحى التقدمي ميزة تخطّي لغة علم النفس القاسية التي يعتمدها الخبراء الصهاينة وأولئك المنتمون إلى المحافظين الجدد لوصف العقل العربي، فقد فشل في تفسير عمق ومدى ظاهرة التفجير الانتحاري أو ظاهرة الاستشهاد، ولا سيّما ازدياد حدّها أثناء الاحتلال.

كوّن الأنغلو-أميركيون نظرة عن الحرب الشاملة، ووضعوها موضع التنفيذ؛ حرب لا حدود قانونية، وأخلاقية، وجغرافية، وزمنية، أو مكانية لها.

ووراء الضرر العام المتعمَّد الناجم عن الحروب والاجتياحات والاحتلالات الأنغلو-أميركية، هناك نوعان من العنف المشتَقّ من المفهوم العام للحرب وهما عاملان محدِّدان بشكل مباشَر للتفجير الانتحاري.

كوّن الأنغلو-أميركيون نظرة عن الحرب الشاملة ووضعوها موضع التنفيذ؛ حرب لا حدود قانونية، وأخلاقية، وجغرافية، وزمنية، أو مكانية لها. وكما أعلن بوش، ورامسفيلد، وصهاينة البنتاغون (بيرل، وولفويتز، وفيث، وشركاؤهم)، هي حرب مختلفة يتواجد فيها العدوّ في كل مكان ويهاجم في كل الأوقات. يتمثل الحل النهائي بالبحث عنهم والقضاء عليهم وعلى ملاجئهم، وشركائهم، والمناطق المجاورة لأماكن سكنهم، وعائلاتهم، ومؤسساتهم الدينية، وكل من يقدم لهم الدعم المادي أو الروحي، والحماية أو التشجيع. محت نظرية وممارسة الحرب الشاملة التمييز بين المقاتلين والمدنيين، وبين المواقع العسكرية والمنشآت المدنية، وبين البنية التحتية العسكرية ووسائل النقل المدني، وبين المقدَّس والنجِس.

لقـــد فـــرض الأنغلو-أميركيون معايير جديدة للحرب وقواعد جديـــدة للاشتباك مع العدوّ قام أخصامهم باعتمادها بشكل متزايد. وإذا كان بإمكان الإمبريالية الأنغلو-أميركية التصرف بعنف غير مقيَّد ضد كل الأهداف العسكرية والمدنية، يمكن للمقاومة أيضاً التصرف بالطريقة نفسها- بمن فيها زارعو المتفجرات الانتحاريون- سواءً كان أعضاؤها إسلاميين أو علمانيين، فقراء أو من الطبقة الوسطى، وهو أمر قابل للجـــدل انطلاقـــاً من الاعتراف بمبدأ الـــشمولية. وما ينعكس على رد فعل أخصام الإمبريالية الأنغلو-أميركية هي قواعد الاشتباك الخاصة بهم؛ مفهوم الحرب الشاملة.

فرض الأنغلو-أميركيون معايير جديدة للحرب وقواعد جديدة للاشتباك مع العدوّ قام أخصامهم باعتمادها بشكل متزايد.

الحرب الشاملة: محتوى وعواقب

هـــناك أشـــكال مخـــتلفة من السيطرة الإمبريالية. في أحد هذه الأشـــكال، تتمثل الطريقة بالعمل من خلال نُخَب محليين يغدون جباة للضرائب وشرطة للقوى الإمبريالية التي تتحكم بالثروة الزراعية-المعدنية وتموّل موقعها المتمتع بامتيازات عدة من خلال الضرائب المحلية.

في شـــكل آخـــر من أشكال السيطرة الإمبريالية، تقوم القوى الإمبريالية بتدمير المجتمع والنظام الحاكم الذي كان قائماً قبل مجيئها، وكـــثيراً ما يجتثّون السكان ويبيدونهم مع ثقافتهم في سياق الاستيلاء على الثروة. إن الحط من قَدْر المقدَّس هو مقدمة لمحاولات تهدف إلى فـــرض مجموعة جديدة من المعتقدات التي تؤدّي أكثر من غيرها إلى الخضوع والاستغلال.

يتمثل الشكل الآخر بمزيج أو عملية متتالية من التدمير والإذلال والاستغلال تليها جهود لإعادة بناء بنية عسكرية وبوليسية وسياسية راغبة وقادرة على قمع المقاومة المناهضة للاستعمار واحتوائها.

يأتي الإجتياحان الأميركيان للعراق وأفغانستان في سياق الشكل الثالث للسيطرة الإمبريالية. ففي المرحلة الأولى، تعمل الجيوش الإمبريالية على تحقيق احتلال كامل، ونهب المواقع التاريخية دون أي قيود، وإذلال السكان، وتدمير المؤسسات الثقافية، واغتيال الأفراد البارزين - وبشكل منهجي - المنتمين إلى الطبقات السياسية المحلية، والمهنية، والمجتمع المدني. وبعد تنامي المقاومة الشعبية لقوى علمانية ودينية تمّ اجتثاث أفرادها من حياتهم اليومية الأساسية في ظل تعرّضهم لهجمات طالت أجسادهم ومعتقداتهم الدينية، ينتقل الاحتلال الأنغلو-أميركي إلى مرحلة إعادة بناء جهاز استعماري قمعي وهيئات حاكمة؛ خلف الجدران، وسياجات الأسلاك الشائكة، وأبراج مراقبة تابعة للجيش الاستعماري.

يستمر مبدأ الحرب الشاملة بإحداث الفوضى في ما يتعلق بالحقوق الدُنيا الممنوحة لجيوب من المتعاونين يحمل معظمهم جنسيّتين، ولمنفيين يدينون بالولاء للأمبرطورية أولاً وأخيراً، وتقع منازلهم ومدافنهم (بغض النظر عن حساباتهم المصرفية وحدائق الورود الإنكليزية) في مدن بلدان إمبريالية حيث تقيم عائلاتهم أيضاً.

الحرب الشاملة والمقاومة

يقتبس ممارسو الحرب الشاملة الكثير من ممارسات ومبدأ الاحتلال الاستعماري الإسرائيلي لفلسطين: عقوبة جماعية، وإزالة

المواقـــع التاريخـــية، وتدمير المنازل، ومحو البساتين والمزارع المنتجة، وقصف المعامل الصغيرة، وبناء جدران الفصل، وأعمال طرد جماعية بالقـــوة، ولا سيّما تقنيات التعذيب والاستجواب المصمَّمة خصّيصاً لانتهاك المعتقدات الإسلامية والهوية العربية. لقد نُقلت هذه التقنيات عـــبر مستـــشارين إســـرائيليين ودورات تدريبـــية إلى المستجوبين الأميركـــيين وأُضيفت إلى كتيّبات التعليمات. هي الوسائل الشائعة بالـــتحديد في تقنـــيات الاستجواب-التعذيب الإسرائيلية والأنغلو-أميركية المرتبطة بمبدأ الحرب الشاملة التي أدّت إلى الممارسات الشائعة التي يعتمدها زارعو المتفجرات الانتحاريون ضدّهم.

بالإضـــافة إلى تقنـــيات الاســـتجواب-التـــرهيب التي تجرّد ضـــحاياهم من كل ما هو أساسي لذاقم الروحية، يقومون أيضاً بفـــرض مبدأ أخلاقي جديد على ضحاياهم، وهو مبدأ لا تقبل به أبـــداً التعالـــيم الأخلاقية-الدينية إلا في ما يتعلق بمقاتلة من يبدأ القـــتال على أن تجري حماية الأبرياء الموجودين في صفوف العدوّ. والمـــبدأ الأخلاقـــي الجديد هو انعكاس لممارسي الحرب الشاملة. يتـــصرف زارعـــو المتفجرات الانتحاريون دون القلق على حياة المدنيين، والمكان، والزمان، والظروف. وعلى غرار مستجوبيهم، هـــم يـــسعون إلى إلحـــاق أكبر قَدْر من الضرر بالمشاعر الغربية، كاشـــفين عـــن نقاط ضعفهم، في حين يقومون بتقويض روتينهم اليومـــي. ومفـــتاح تحـــوّل معارضـــة الإسلاميين والعلمانيين إلى هجمـــات استـــشهادية وممارسة المبدأ الأخلاقي الجديد لا يرتبط بالاحتلال والحرب الاستعمارية السياسية-العسكرية فحسب، بل باللجوء إلى ممارسات محدَّدة تُهين ضحايا الاستعمار.

الحط من قَدْر الناس: منطق الحرب الشاملة

مـــارس الإســـرائيليون التعذيب من خلال الحد من قَدْر الناس ومعتقداهم وإهانتهم طيلة عقود من الزمن، وهم يملكون جيشاً قوياً يدعمـــه أشخاص ما وراء البحار - أساتذة، مسؤولون من المحافظين الجـــدد، ليبراليون، مصرفيون، مهنيون، فنانون، صحافيون، وأقطاب إعلاميون - يوفّرون التبريرات على صورة ظروف تحسينية ومساواة أخلاقية.

إن ممارسي الحرب الشاملة الأنغلو-أميركيين الذين تأثّروا بقدرة إسرائيل على إطالة أمد الاحتلال الاستعماري لفلسطين دون التعرّض لأي عقـــاب، عايـــنوا التأثيرات الجانبية: ظاهرة التفجير الانتحاري، وكـــنّ إســـرائيل الكـــره للعـــالم غير الأوروبي (وحتى للعديد من الأوروبيين).

الإذلال مـــصمَّم خصّيصاً لترويض العقل العربي أو الإسلامي- كمـــا وصـــف الأمـــر خبراء الحرب السيكولوجيون الإسرائيليون- وتـــأمين حشد غفير من المخبرين، والعملاء وأشخاص ليّني العريكة، والـــسجناء المروَّعين المُطلَق سراحهم الذين يكونون عِبرة للراغبين في الانـــضمام إلى مقاتلي المقاومة. وفيما حُمِل عدد قليل من السجناء علـــى تغيير طريقة تفكيرهم من خلال التعذيب والابتزاز التهديدي، وأُطلـــق سراح آخرين كونهم رجالاً محطَّمين ونساء عاجزات بسبب اضـــطرابات نفسية شديدة، لم يكن رد فعل الملايين خضوعاً وإذعاناً بـــل سخطاً وغضباً وعنفاً، اتخذ في بعض الحالات شكل التفجيرات الانـــتحارية. ووفّـــرت كلمـــات الـــناجين-الضحايا من الوحشية الإســـرائيلية، والصور المرئية، حقيقة حيّة عن الحط المنهجي من قَدْر

كل ما يعتبره العرب - إسلاميون وعلمانيون - مقدَّساً.

الملاحَظ من الضحايا، وعائلاهم، وأنسبائهم، وزملائهم المؤمنين، وأمّتهم أن الحدّ من قَدْر السجناء العراقيين هو تقنية أجازت المستويات العليا في السلطة اعتمادها ووافقت عليها، ونفّذها خبراء الإرهاب، بدءاً بنُخبة علماء النفس ووصولاً إلى السجانين ذوي المراتب الدُنيا. ولا يمكن لأحد الادّعاء بأنه لم يكن على عِلم بذلك. ولا يمكن لأحد في جيش من المتطوّعين الادّعاء بأنه كان ينفّذ الأوامر ليس إلاّ. كما أن المواطنين في الأنظمة الانتخابية الذين لم يتلكّأوا فحسب في الاحتجاج على الإهانات الحاصلة بطريقة ملائمة، بل اقترعوا في الواقع لصالح الجلاّدين الإمبرياليين، لا يمكنهم ادّعاء البراءة. كلهم مشاركون في الجُرم بنظر زارع المتفجرات الانتحاري...

إن الحدّ من قَدْر الناس هو تقنية أجازت المستويات العليا في السلطة اعتمادها ووافقت عليها، ونفّذها خبراء الإرهاب، بدءاً بنُخبة علماء النفس ووصولاً إلى السجانين ذوي المراتب الدُنيا.

تقنية الحط من قَدْر الناس: المعنى الأشمل

لقد قام ممارسو التعذيب بتدنيس القرآن وهو كتاب سماوي، كما داسوا عليه بجزماهم العسكرية الموحِلة، ورموا صفحاته في المرحاض.

لقد حرم ممارسو التعذيب ضحاياهم، وبشكل منهجي، من الماء للاغتسال (الوضوء) قبل الصلاة. وبدلاً من ذلك، دنّسوهم بالبذاءات وقامت المستجوبات شبه العاريات بتلويث السجناء المقيَّدين بدم

زائــف تتعـسبّب به الدورة الشهرية، وأجبروهم على التغوّط على أنفسهم، وهزئوا من المحنة الدينية الكبيرة التي كان يمرّ بها ضحاياهم. لقــد انــتهكوا كــل محظور، ومعيار، بما في ذلك المبادئ الأخلاقية الأساسية. وفرضوا (وصوّروا) ممارسة الجنس المنحرف، وعورة المرء وهـــي في حالة الانتصاب، واغتصبوا الرجال والنساء بأدوات نَخس الماشية وأدوات تعذيب أخرى. ولفّوا السجناء بالعَلم الإسرائيلي.

لهــذه التقنــيات المُذلّة عواقب سيكولوجية تمتدّ طوال الحياة إذ تحــول دون إقدام الضحايا على الزواج أبداً والمحافظة على علاقات عائلية طبيعية. لقد أخبر ممارسو التعذيب ضحاياهم بأنهم سيعرضون الأفــلام والصور الفوتوغرافية التي تُظهر الذلّ الذي تعرّضوا له على عــائلاتهم وجيرانهم، وذلك بهدف رفع مستوى الكرب بعد إطلاق سراحهم. وتُطبَّق تقنيات التعذيب هذه على المسلمين والعرب بصفة خاصــة، ولكــن يُفتــرَض اعتبارها بصورة عامة انتهاكاً لحياء كل الرجال والنساء العاديين. لقد اعتمد ممارسو التعذيب الإذلال الجنسي الفاضــح المُعَــدّ لقطع كل الروابط السياسية بين الشعب المستعمَر والضحايا المُحَط من قَدْرهم. وجاء في التقارير أن السجينات في أبو غــريب وجّهــنَ رســائل يتوسّــلنَ فيها المقاومة القيام بقتلهنّ في زنــزاناتهنّ من خلال هجمات بمدافع الهاون.

لقــد قــام القادة السياسيون الأنغلو-أميركيون بترقية قساوسة عسكريين إنجيليين مسيحيين حثّوا الجلاّدين على مقاتلة الشيطان أثناء محاصرة مدينة الفلّوجة وتدميرها. واعتمد خبراء الإرهاب (استناداً إلى العلوم السلوكية في غالب الأحيان) النقد العاطفي اللاذع من خلال تــبرئة الجلاّديــن من سلوكهم المَرَضي واتهام الضحايا بهذا السلوك.

ونحن بحاجة إلى رؤية صانعي السياسة كمجرمي حرب... كمُعِدّي طريقة عمل زارعي المتفجرات الانتحاريين.

العواقب السياسية لتدنيس المقدّسات

للمظاهر المنهجية العميقة للحرب الشاملة وما نجم عنها من تدنيس للمقدّسات تأثيرات واسعة النطاق على المسلمين والعرب، بمن فيهم العلمانيون، وذلك على الصعيد الجغرافي، والممارسة السياسية، وحدّة الأذى اللاحق نتيجة لتشويه السمعة، والمشاعر حيال ممارسي التعذيب وحكوماتهم وحضاراتهم. وإن تأثير تشويه سمعة المقدّسات هو أقوى على تلك الجماعات التي تتشاطر القيَم الدينية والثقافية والإثنية نفسها كما هو تأثيره على أولئك الذين تمّ اغتصابهم. يمسّ الحطّ من قَدْر النصوص المقدَّسة والأماكن الدينية بالوجود الديني والمادي للجماعات والأفراد الذين باتت حياتهم موجَّهة بواسطة نصوص حُطّ من قَدرها. إن الرسالة التي يوجّهها على مراحل ممارسو التعذيب وقادتهم مفادها أن 'ما من شيء مقدَّس'؛ كل شيء وكل شخص على قدَم المساواة هم أدوات لتحقيق السيطرة، والهيمنة، والتحكّم بأمور الشعب. إن عملية الإذلال برمّتها بدءاً بقصف المجتمعات المدنية دون تمييز، ومروراً باغتصاب المؤسسات العامة، ونهب الإرث الثقافي، ووصولاً إلى الاعتقال الاعتباطي واغتيال عابري السبيل، وبلغت أوجها في الفساد التام، ومحاولة تحويل الرموز والنصوص الروحية والإرشادات الأخلاقية إلى هراء بكل معنى الكلمة.

إن إنكار المقدَّسات على المقموعين هو أمر ملازم لعملية إيجاد سلسلة هرمية، فكلما حُطّ من قَدْر الآخر زاد نفوذ ممارسي التعذيب

واعتدادهم بذاهم. وكلما انخفضت مكانة ممارسي التعذيب – (أولئك الذين لا يمكنهم الحصول على الغنائم الحقيقية للاحتلال عندما يكونون خارج غرف التعذيب، أو تحقيق أرباح فاحشة جرّاء الحرب، أو ابتزاز أموال إعادة الإعمار، أو الضبّاط العسكريين الذين يمكنهم 'إضافة قيمة' العقود) – إزداد الدافع لتحقيق التفوق (مكافآت رمزية) من خلال الحط من قَدْر المقيَّدين بالأغلال والأصفاد، والعراة والمذلولين، لإرضاء رؤسائهم بذكائهم المزعوم. وكثير من هذه الأمور موثَّق في تقرير الجنرال أنطونيو تاغوبا.

التفجير الانتحاري: رد فعل على المدنِّسين

اكتشف بعض مدّعي الخبرة في شؤون الإرهاب من الجهّال الأكثر ذكاءً أن زارعي المتفجرات الانتحاريين ليسوا فقراء بالضرورة، أو ضحايا مباشَرين للاجتياحات الإمبريالية، وليسوا بالضرورة أصوليين إسلاميين. وإزاء هذا التعارض بين الواقع الجديد والأوصاف السابقة التي ذكروها، أعاد معظمهم سبب ذلك إلى مصطلحات علم النفس المعقَّدة، ذاكرين العُزلة وصراع الأجيال ومَرَضيات سلوكية أخرى بوصف أدق من وصفهم لمجتمعات خبراء الإرهاب. وهؤلاء الخبراء الأنغلو-أميركيون المواليون لإسرائيل الذين يجهلون لسبب مَرَضي الجرائم الشنيعة المرتكَبة في حق القيَم والمعتقدات الأساسية للمقموعين يعتبرون، بكل رزانة، أهم قادرون بالفعل على تشخيص أمراض الآخرين. ويدّعي عدد قليل من الخبراء أن الإرهابيين وزارعي المتفجرات الانتحاريين هم أشخاص سياسيون وأن تصرفاهم سياسية؛ أي رد فعل على الحرب والاجتياح والاحتلال

الأنغلو-أميركي. وبطريقة أقرب إلى الحقيقة ولكنها ما تزال غير ملاءمة، يُضيف البعض رد الفعل إلى ما يتعرّض له شعب محتَل من إذلال.

ما يدفع زارعي المتفجرات الانتحاريين هو سعيهم لتخليص المقدَّسات من المدنِّسين. يشمل التدنيس التدمير المادي الذي يتسبّب به المجتاحون الأنغلو-أميركيون والمستعمرون الإسرائيليون. وبسبب الحطّ من قَدْر النصوص المقدَّسة وإهانتها، ضعُفت بشكل نهائي القيَم الروحية العميقة والتقاليد التأديبية التي تُنتج طبقة من الأفراد الذين يشعرون بالروابط الإنسانية.

يعتقد زارعو المتفجرات الانتحاريون أنه يمكن للغضب الروحي مقاومة مدنِّسي المقدَّسات. بالنسبة إلى زارعي المتفجرات الانتحاريين، لا تعوّض المقاومة، والمسيرات، والاحتجاجات، والإضرابات، والعصيان المدني، وحتى المقاومة، على المقدَّسات ما لحق بها من تدنيس. ويحتدم الصراع في المناطق المجاورة لهم، وفي منازلهم؛ والأسواق ووسائل النقل المدمرة. يعتقد زارعو المتفجرات الانتحاريون أنهم إذا جعلوا العنف يرتدّ على مرتكبيه المجتاحين، يمكنهم إذ ذاك فقط إعادة السطوة لما تمّ تدنيسه وذلك من خلال الرد بالمِثل على مؤيّدي الحرب الشاملة والمدافعين عنها، وحتى على ضحايا أبرياء؛ ضحاياكم البريئة مقابل ضحايانا البريئة...

بات الاعتراف بالترخيص لتدنيس المقدَّسات أمراً واضحاً؛ سواءً استمرّ بشكل أو بآخر، والتُقطت له مشاهد فيديوية أو خُبِّئ في محفوظات عسكرية، فهو الآن محفور بأذهان عشرات الملايين من الناس لأنه مرتبط بوجودهم الثقافي والسيكولوجي والأخلاقي. وتخضع الحياة اليومية للاختبار.

خاتمة

من قصف المدن الذي يُحدث صدمة وترويعاً، إلى قتل الملايين أو بتر أطرافهم أو إبادتهم، إلى التعذيب وتدنيس المقدَّسات، أُصدرت *الأوامر* من جنرالات لا هوية لهم، ورؤساء، ووزراء حرب مقيمين في البعيد، *ونفّذها* وجهاً لوجه أشخاص عاديون، وعمّال، وموظفون، ورجال دين... قاموا بانتخاب قادتهم. من وجهة نظر زارعي المتفجرات الانتحاريين، تعكس الوجوه العديدة لهؤلاء الأشخاص العاديين وجوه وتصرفات أولئك الذين حطّوا من قَدْر المقدَّسات وحاولوا تدمير ما يُعطي معنى لحياتهم اليومية.

بالنسبة لزارعي المتفجرات الانتحاريين، فإن وجه العدوّ هو وجه الشعب الذي ينتمي إليه؛ أثرياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، جنرالات وجنود عاديون. ويبقى زارع المتفجرات الانتحاري الذي تضاعفت روابطه الطبيعية بالمقدَّسات والأخلاق بسبب الحط المنهجي من قَدْرها على هذه الحال، إلى أن يكف عن الشعور بوخز الضمير لدى مهاجمة أشخاص عاديين يطوفون المباني المكتبية أو يجولون في الأنفاق للقيام بأعمالهم اليومية، مؤثِراً التضحية بنفسه لإعادة التأكيد على المقدَّسات، ومهما كان الثمن، وذلك بالرغم من قوة منتهكي حرمات هذه المقدَّسات. والضحايا الذين قُصفت أو أُزيلت منازلهم، وشوارعهم، والأبرياء في صفوفهم، وأحباؤهم، يردّون بالمثل على منزل مرتكبي هذه الأعمال في حقّهم، وشوارعهم، والأبرياء في صفوفهم، وأحبائهم.

يقترح تحليلنا علاقة وثيقة بين ممارسة الأنغلو-أميركيين للحرب الشاملة وسياسات الحط المنهجي من قَدْر المقدَّسات والأشخاص

المنبثقة من هذه الممارسة، وظهور زارعي المتفجرات الانتحاريين، أحد الأشكال الأساسية لرفض الطغيان. وإذا كان هذا التحليل صحيحاً، فمن المرجَّح إذاً توقّف زارعي المتفجرات الانتحاريين عن نشاطهم عند انتهاء الحرب الشاملة. ولا يمكن تحقيق هذا الأمر إلا بإلحاق الهزيمة بالإحيائية الاستعمارية للإمبريالية بمختلف أشكالها الأميركية والأوروبية والإسرائيلية. ويبقى السؤال عن المدة التي يتطلّبها الاستياء السياسي المحلّي والخارجي لينجم عنه بديل سياسي قادر على استنباط استراتيجية انسحاب عسكري والانصياع للقانون الدولي.

يمكن تحقيق المصالحة بين الأنغلو-أميركيين والشعوب الإسلامية والعربية من خلال محكمة لجرائم الحرب مماثلة لمحاكمات نورمبورغ بعد الحرب العالمية الثانية. ممارسو الجرائم ضد الإنسانية والمؤيّدون لها، بدءاً برئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا العظمى، يُفترَض تقديمهم للمحاكمة وصدور عقوبات بحقّهم تكون عبرة للآخرين وخطوة رئيسية في سياق حملة عالمية يقوم بها المجتمع المدني لوضع حدّ للإفلات من العقوبات. لا يكون السلام والمصالحة ممكنَين إلا إذا طُبِّقت العدالة بحقّ مهندسي وممارسي الحرب الشاملة والحط من قَدْر الإنسان.

القسم الرابع

نقاشات

الفصل الثالث عشر

نعوم تشومسكي
واللوبي الموالي لإسرائيل

خمس عشرة فَرَضية خاطئة

"إن ردود الفعل الانعكاسية اللاإرادية التي تنشأ تلقائياً للدفاع عن نقاش مفتوح واستعلام حرّ تمّ إيقافه – على الأقل بين قسم كبير من النخبة السياسية في أميركا – ما إن يتناول الموضوع إسرائيل ودور اللوبي الموالي لإسرائيل في تحديد شكل السياسة الخارجية الأميركية... والابتزاز التهديدي الأخلاقي – الخوف من أن يؤدّي أي انتقاد موجّه للسياسة الإسرائيلية والتأييد الأميركي لها إلى اتهامات بمعاداة الساميّة – هو عقبة كبيرة أمام نشر وجهات نظر معارِضة. وهو يؤدّي أيضاً إلى إسكات النقاش السياسي في حرم الجامعات الأميركية، وهي نتيجة جزئية للحملات التي تستهدف المعارضين... علاوة على ذلك، لا شيء أكثر ضرراً بالمصالح الأميركية من العجز عن إجراء نقاش ملائم حول النـزاع الإسرائيلي الفلسطيني... والتنمّر على الأميركيين لحملهم على الإجماع على سياسة إسرائيلية هو أمر سيّئ لإسرائيل ويجعل من المستحيل على أميركا تحديد مصالحها الوطنية الخاصة..."

فاينَنشل تايمز، الافتتاحية، السبت 1 نيسان/إبريل 2006.

المقدمة

دُعـي نعوم شومسكي المفكر الأميركي الأول من قِبَل النقّاد وبعض قطاعات وسائل الإعلام أيضاً. إنه يملك جمهوراً واسعاً في مختلف أنحاء العالم، ولا سيّما في الأوساط الأكاديمية، ويعود سبب ذلـك، وإلى حـدٍّ كـبير، إلى انتقاده الصريح للسياسة الخارجية

الأميركية والكثير من الظلم الناجم عن هذه السياسات. ولُعن تشومسكي من كافة المنظمات ووسائل الإعلام الرئيسية اليهودية والموالية لإسرائيل بسبب انتقاد السياسة الإسرائيلية حيال الفلسطينيين، حتى وإن قام بالدفاع عن وجود دولة إسرائيل الصهيونية. وبالرغم من سمعته التي تحظى بكل احترام في مجال التوثيق، والكشف عن رياء الأنظمة الأميركية والأوروبية، وتحليل الخِدَع الفكرية للمدافعين عن الإمبريالية، تغيب هذه الفضائل التحليلية بالكامل عندما يتعلق الأمر بمناقشة تحديد شكل السياسة الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط، وبصفة خاصة دور الجماعة الإثنية فيه، أو اللوبي اليهودي الموالي لإسرائيل ومؤيّديه الصهاينة في الحكومة. وهذا العمى السياسي ليس مجهولاً أو غير مألوف. فالتاريخ مُتخَم بالنقّاد العقلانيين في كافة الإمبرياليات، وهم مناوئون مخلِصون لأولئك الذين يسيئون استخدام السلطة والنفوذ دون أن يكونوا مناوئين لمواطنيهم الذين يتصرفون بالطريقة نفسها. تاريخ تشومسكي الطويل في إنكاره الجازم لنفوذ اللوبي الموالي لإسرائيل ودوره في تحديد شكل السياسة الأميركية في الشرق الأوسط بلغ أوجه لدى الانضمام مؤخّراً إلى آلة الدعاية الصهيونية الأميركية لمهاجمة دراسة تنتقد اللوبي الإسرائيلي. أنا أشير إلى البحث الذي نشرته *لندن ريفيو أوف بوكس* بعنوان اللوبي الإسرائيلي بقلم البروفسور جون ميرشايمر من جامعة شيكاغو، والبروفسور ستيفان والت وهو العميد الأكاديمي لكلية كنيدي الحكومية في جامعة هارفرد. (نشرت كلية كيندي الحكومية نسخة كاملة عن الدراسة في آذار/مارس 2006).

تـــشدّد كلمـــات وكتابات تشومسكي التي تتناول اللوبي على عدد من الاقتراحات المُريبة:

1. اللوبي الموالي لإسرائيل هو كأي لوبي آخر تماماً؛ لا تأثير خاص له ولا مكان له في السياسات الأميركية.
2. إن المجمـــوعات التي تدعم اللوبي الإسرائيلي *لا تملك نفوذاً أكبر* من جماعات ضغط مؤثّرة أخرى.
3. حقـــق برنامج عمل اللوبي نجاحاً لأنه يتوافق مع مصالح القوى المهيمنة ومصالح الولايات المتحدة.
4. يثـــبت ضعف اللوبي من خلال واقع أن إسرائيل هي مجرد أداة لبناء الإمبراطورية الأميركية تُستخدَم عند الحاجة، وإلاّ لتعرّضت للتهشيم.
5. بـــيغ أويل والمركّب العسكري-الصناعي هما القوّتان الرئيسيتان اللتان تحدّدان شكل السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، وأيّ منهما غير مرتبط باللوبي الموالي لإسرائيل.
6. تتطابق مصالح الولايات المتحدة عامةً مع مصالح إسرائيل.
7. الحرب على العراق والتهديدات التي تواجهها سوريا وإيران هما من نتاج المصالح النفطية والمركّب العسكري-الصناعي، ولا يعود سببهما إلى دور يلعبه اللوبي الموالي لإسرائيل أو المتعاونون معه في البنتاغون ووكالات حكومية أخرى.
8. السلوك الأميركي في الشرق الأوسط مماثل للسياسات التي اتّبعتها الـــولايات المـــتحدة في أماكن أخرى من العالم، وهذه السياسة تفوق سياسة اللوبي أهميّة.

في حين يحجم تشومسكي بصورة عامة، وعمداً، عن مناقشة خُطَب اللوبي الموالي لإسرائيل، ومقابلاته ومنشوراته، بصفة خاصة، والتي تحلّل السياسة الأميركية المتّبعة حيال الشرق الأوسط، فهو يتّبع السياق الآنف ذكره عندما يقوم بذلك.

مسألة الحرب والسلام في الشرق الأوسط ودور اللوبي الإسرائيلي هما من الأهمية بمكان بحيث إنه لا يمكن تهميشهما واعتبارهما فكرة لاحقة. إن القيود المفروضة على حقّنا في التكلّم بحرّية عن سياسات إسرائيل واللوبي وانتقادها تقلّص إلى حدٍّ كبير إمكانيات العمل السياسي. إن كَبت التفكير الحر يسمح بوضع وتشريع سياسات تُلحق الضرر بمصالح الشعب الأميركي، ولا سيّما عندما تتباعد أفضل مصالحهم عن مصالح نُخَبهم.

لذلك، من الواجب تحديد وتفحّص الفَرَضيات الخمس عشرة الخاطئة التي وضعها البروفسور تشومسكي كلّي الاحترام، وذلك بهدف التحرك قُدُماً ومواجهة ما يشكّله اللوبي من تهديدات للسلام في الخارج وللحريات المدنية في الوطن الأم.

فَرَضيات تشومسكي الخمس عشرة

1. يدّعي تشومسكي أن اللوبي ليس سوى لوبي آخر في واشنطن. ولكنه يهمل أمر ذكر الغالبيات الكبرى التي ضمنها هذا اللوبي في الكونغرس لصالح تخصيص معونة خارجية سنوية لإسرائيل تبلغ ثلاثة أضعاف المعونة الممنوحة لأفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية مجتمعة (أكثر من 100 مليار دولار على مدى 40 عاماً). وللّوبي 150 موظفاً يعملون بدوام كامل لصالح لجنة الشؤون

الأميركية- الإسرائيلية العامة (آيباك)، ترافقهم مجموعة غفيرة من ممارسي الضغوط من كافة المنظمات اليهودية الرئيسية والاتحادات اليهودية الدولية والإقليمية والمحلية التي تلتزم كلّياً بخط المنظمات الرئيسية، وهم ناشطون في سياسة إسرائيل والرأي العام المحلّي فيها، ويروّجون لمرشّحين لمقاعد في الهيئة التشريعية ويموّلوهم على أساس موالاتهم لخط حزب اللوبي. ولا وجود للوبي آخر يجمع بين ما يملكه اللوبي الموالي لإسرائيل من ثروة، وشبكات من المحازبين، وإمكانية الاستفادة من خدمات الإعلام، وقوة تشريعية، وتركيز على هدف واحد.

لا وجود للوبي آخر يجمع بين ما يملكه اللوبي الموالي لإسرائيل من ثروة، وشبكات من المحازبين، وإمكانية الاستفادة من خدمات الإعلام، وقوة تشريعية، وتركيز على هدف واحد.

2. يهمل تشومسكي تحليل الغالبيات شبه الإجماعية في الكونغرس التي تدعم سنوياً كل الامتيازات الممنوحة لإسرائيل عسكرياً واقتصادياً وعلى صعيد الهجرة، إضافةً إلى المعونة التي يروّج لها اللوبي. ويهمل تفحّص القائمة التي تحتوي على أكثر من 100 مبادرة تشريعية ناجحة تقوم آيباك بالإعلان عنها حتى في السنوات التي تشهد أزمات على صعيد الميزانية، وتراجع للخدمات الصحية المحلية، وتكبّد خسائر عسكرية بسبب الحرب.

3. إن عزو تشومسكي إلى بيغ أويل، وبصيغة مبتذَلة، تحقيق أهداف جرّاء الحرب هو أمر يفتقر إلى الأدلّة تماماً. في الواقع، تُلحق الحروب الأميركية في الشرق الأوسط الضرر بالمصالح النفطية من

نــواحٍ اســتراتيجية عدة. فالحروب تولّد بشكل عام عداءً إزاء شــركات الــنفط التي ترتبط بعلاقات طويلة الأمد مع البلدان العــربية. كمــا تؤدّي الحروب إلى إضعاف إمكانية إبرام عقود جديــدة تفــتح الطريق أمام استثمارات نفطية أميركية في هذه الــبلدان. لقد كانت شركات النفط الأميركية أكثر تشجيعاً من إسرائيل والذين يمارسون الضغوط لصالحها لإيجاد حلول سلمية للأزمــات، كما تؤكّد عليه الصحف المتخصّصة بصناعة النفط والناطقين باسمها. ويختار تشومسكي تجاهل النشاطات التي تلت الحــرب تماماً، إضافةً إلى الحملة الدعائية التي قامت بها المنظمات اليهودية الرائدة والموالية لإسرائيل، وغياب مقترحات لبيغ أويل في وسائلها الإعلامية في مرحلة ما بعد الحرب، وتطويق محاولتها الإبقــاء علــى الروابط مع الأنظمة العربية المعارضة لطموحات إسرائيل المولَعة بالقتال والساعية إلى تحقيق الهيمنة. وبخلاف رأي تشومــسكي، فبذهابها إلى الحرب في الشرق الأوسط، ضحّت الولايات المتحدة بمصالحها الحيوية المرتبطة بشركات النفط لصالح ســعي إســرائيل للهيمنة على الشرق الأوسط، مستجيبةً بذلك لدعــوة وتوصــية اللــوبي الموالي لإسرائيل. وفي إطار ممارسة الــضغوط، لا خــلاف البــتة بين ما تعتبره كتلة النفوذ الموالية لإســرائيل حــرباً حرّضت شركات النفط على نشوبها بهدف الحــصول علــى عقود نفطية، وما تعتبره شركات النفط حرباً حرّضت الكتلة الموالية لإسرائيل على شنّها لمجرّد خوض حرب؛ فكــتلة النفوذ الموالية لإسرائيل هي المسيطرة على الدوام. ولكن تشومــسكي لا يتفحّص أبداً قوة كل من جماعتَي الضغط في ما

يختار تشومسكي تجاهل النشاطات التي تلت الحرب تماماً، إضافة إلى الحملة الدعائية التي قامت بها المنظمات اليهودية الرائدة والموالية لإسرائيل، وغياب مقترحات لبيغ أويل في وسائلها الإعلامية في مرحلة ما بعد الحرب.

يتعلق بالسياسة الأميركية حيال الشرق الأوسط. وبشكل عام، فإن هذا الباحث المنشغل على الدوام والذي يكرّس نفسه لكشف النقاب عن مستندات غامضة يُعتبر مُهملاً بصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بكشف النقاب عن مستندات يمكن توافرها بسهولة ومن شأنها الإطاحة بتأكيداته حول بيغ أويل واللوبي الإسرائيلي.

4. يرفض تشومسكي تحليل الأضرار الدبلوماسية التي تنشأ عن قيام الولايات المتحدة بالتصويت ضد قرارات مجلس الأمن الدولي، أو الامتناع عن التصويت عليها، والتي تُدين انتهاكات إسرائيل المنهجية لحقوق الإنسان. ولا يملك أي من المركّب العسكري-الصناعي أو بيغ أويل تأثيراً كبيراً في تبديل القرار الأميركي في الأمم المتحدة. فجماعات الضغط الموالية لإسرائيل هي القوة الرئيسية الوحيدة القادرة على ممارسة ضغوط لاستخدام الفيتو ضد الحلفاء الأكثر قرباً من الولايات المتحدة وضد الدور الذي قد تلعبه الولايات المتحدة كوسيط بين العالم العربي-الإسلامي وإسرائيل. لم يكن الدفاع العلني عن الجرائم الإسرائيلية واضحاً -أو غير ملائماً للمكانة الأميركية العالمية-بوضوح رفض الولايات المتحدة إدانة الضربات التي توجهها إسرائيل للمدنيين في لبنان.

يرفض تشومسكي تحليل الأضرار الدبلوماسية التي تنشأ عن قيام الولايات المتحدة بالتصويت ضد قرارات مجلس الأمن الدولي والتي تُدين إسرائيل.

5. ثانياً، وبالنسبة إلى شخص دقيق جداً كتشومسكي، من المدهش إهماله مناقشة دور اللوبي في انتخاب أعضاء الكونغرس، وتمويل المرشحين الموالين لإسرائيل، وإنفاق ما يفوق الخمسين مليون دولار على الأحزاب السياسية والمرشحين والحملات الدعائية. وتكون النتيجة تصويت 90% من أعضاء الكونغرس على مسائل ذات أولوية كبيرة بضغط من اللوبي واتحادات محلية وإقليمية موالية لإسرائيل. وتمّت الموافقة على اقتراع للكونغرس حول تدابير تصبّ في خانة الإبادة الجماعية - إيقاف كل المعونات للفلسطينيين بتحريض من آيباك وكافة المنظمات اليهودية الرئيسية - بنتيجة 361 صوتاً في مقابل 37 وامتنع تسعة أعضاء عن التصويت. لقد طغى النظام اليهودي الموالي للإبادات الجماعية على مجموعة المناوئين اليهود الليبرالية الصغيرة المتحالفة مع الكنيسة الكاثوليكية ومجلس الكنائس العالمي، والتي أشارت إليها *الجيروزاليم بوست* باليسارية. والأسوأ من ذلك أن اللوبي تخلّى تقريباً عن النظام السياسي كأداة يؤكّد من خلاله الشعب الأميركي بشكل ديمقراطي على خياراته في المسائل الرئيسية؛ وشهد تأييد الحزب الديمقراطي شبه الإجماعي لحرب العراق، وحتى حرباً محتمَلة ضد إيران بالرغم من استفتاءات الرأي التي تشير حالياً إلى أن غالبية الأميركيين يرغبون بحلول أخرى.

أهمل تشومسكي أمر مناقشة دور اللوبي في انتخاب أعضاء الكونغرس ومدى تأثيره فيهم.

6. لا يأخذ على عاتقه أمر تحليل الحالات التي هزم فيها اللوبي المرشحين، أو الاعتذارات المُذلّة التي انتُزعت من أعضاء

الكونغـــرس الذين تجرّأوا على طرح أسئلة حول سياسات اللوبي وتكتـــيكاته، والأثـــر التهويلي للعقوبات التي فرضها على بقية أعضاء الكونغرس لتكون عبرة لمن اعتَبر. إن العقوبات التي كان لها أثر كرة الثلج هي أحد أسباب الغالبيات غير المسبوقة المؤيّدة لكافة مبادرات آيباك. فمحاولات تشومسكي الضعيفة للمساواة بـــين مبادرات آيباك الموالية لإسرائيل ومصالح السياسة الأميركية الأوســـع هـــي منافية للعقل بوضوح بالنسبة إلى كل من يدرس عملـــية انحـــياز الجماعات السياسية المرتبطة بتدابير آيباك في ما يـــتعلق بالتخطـــيط، والضغط، والدعم، والمشاركة في الرعاية. تفـــوق قدرة اللوبي اليهودي قدرة جمهور ناخبيه إلى حدٍّ كبير؛ كمـــا أثبـــتت أمـــوال الرشوة البالغة قيمتها مليون دولار والتي اســـتُخدمت لإلحاق الهزيمة بعضوة الكونغرس عن ولاية جورجيا ســـينتيا ماكـــيني. وإن إعادة انتخابها في ما بعد بسبب تخفيف انـــتقاداتها لإسرائيل يُظهر تأثير اللوبي حتى في الديمقراطيين ذوي الشأن.

7. يـــتجاهل تشومـــسكي قدرة اللوبي التي لا تُضاهى على دعوة الـــنُخَب إلى الاجتماع. إذ يستقطب اللقاء السنوي لآيباك كل القـــادة الرئيسيين في الكونغرس، وأعضاء أساسيين في الحكومة، وأكثر من نصف أعضاء الكونغرس الذين يمنحون إسرائيل دعماً لامـــشروطاً، حـــتى أنهـــم يعتبرون المصالح الإسرائيلية والمصالح الأميركية أمراً واحداً. وليس باستطاعة أي لوبي آخر ضمان هذا المستوى من حضور النُخبة السياسية، وهذه الدرجة من الخنوع المُـــذِلّ طيلة سنوات عدة في أوساط الحزبَين الرئيسيَّين. إن الأمر

المهم الذي يجب وضعه نصب أعيننا هو أن جمهور الناخبين اليهود يشكل أقل من 5% من مجموع الناخبين الأميركيين، في حين أن الملتزمين اليهود يشكّلون أقلّ من 2% من السكان وليسوا بأكملهم من مؤيّدي تحقيق مصالح إسرائيل أولاً. ولا يمكن لأيّ من جماعات الضغط الرئيسية مثل أن آر أي، وأي أي آر بي، والاتحاد الوطني للصانعين، وغرفة التجارة الوطنية، دعوة هذه المجموعة الواسعة من القادة السياسيين إلى اجتماع، وذلك بصرف النظر عن ضمان تأييدهم اللامشروط لتشريعات مؤاتية وأوامر صادرة عن الهيئة التنفيذية. خير شهادة على ذلك رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق، أريل شارون، الذي تباهى بنفوذ اللوبي الموالي لإسرائيل في ما يتعلق بالسياسة الأميركية في الشرق الأوسط. ويؤكّد تشومسكي أن اللوبي الموالي لإسرائيل هو مثل أي لوبي آخر، وذلك دون أن يقوم بأي محاولة جدّية لمقارنة التأثير النسبي لكل منها، والقدرة على الدعوة إلى اجتماع والحصول على تأييد الحزبَين الرئيسيَّين، والفعّالية في ضمان إقرار تشريعات ذات أولوية عالية.

يؤكّد تشومسكي أن اللوبي الموالي لإسرائيل هو مثل أي لوبي آخر دون أن يقوم بأي محاولة جدّية لمقارنة التأثير النسبي لكل منها.

8. في التحليل الذي وضعه قبل الحرب الأميركية-العراقية، تخلّى تشومسكي كليّاً عن المراجعة الدقيقة لمستندات السياسة الخارجية، وتحليل الروابط السياسية بين صانعي السياسة ومراكز النفوذ، وذلك لصالح التعليقات الانطباعية الخالية من أي أساس تجريبي. وكانت استراتيجيات الحرب التي أُعلن عنها علانيةً

ووضـــعها المخططـــون الحكومـــيون الأساســـيون، وروّج لها المفكـــرون، مـــرتبطة بعمـــق باللوبي الإسرائيلي ومُعَدّة للدولة الإسرائيلية. كان وولفويتز، الرجل الثاني في البنتاغون، ودوغلاس فيث، الرجل الثالث في البنتاغون، وريتشارد بيرل، رئيس مجلس الـــسياسة الدفاعية، وإليوت أبرامز المسؤول عن شؤون الشرق الأدنى وشمـــال أفـــريقيا في مجلس الأمن القومي، وعشرات من العـــاملين الأساســـيين الآخرين في الحكومة والإيديولوجيين في وســـائل الإعلام، ناشطين متعصّبين لصالح إسرائيل على الدوام، وكـــان بعضهم قد فقد في السابق امتيازاته الأمنية بسبب تسليم الحكومة الإسرائيلية مستندات. ويتجاهل تشومسكي المستندات الاســـتراتيجية الأساســـية التي وضعها بيرل، ووارمسر، وفيث، وصـــهاينة جدد آخرون في أواخر التسعينيات من القرن الماضي وطالبوا فيها بالقيام بعمل قتالي ضد العراق وإيران وسوريا، وقد نفّـــذوا هذه المطالب عندما تسلّموا زمام السلطة لدى انتخاب بـــوش. كـــيف يمكن لناقد عقلاني من الدرجة الأولى للسياسة الخارجية الأميركية، كتشومسكي، تجاهل قيام الصهيوني المتطرف في البنتاغون، دوغلاس فيث، بإنشاء مكتب المعلومات الزائفة في البنتاغون– المدعو مكتب الخطط الخاصة– الذي أداره زميله أبرام شولـــسكي، وهو محافظ صهيوني أيضاً، بهدف توجيه البيانات الـــزائفة للبيت الأبيض؛ متخطياً بذلك السي آي ايه والمخابرات العـــسكرية، ومـــشوِّهاً سمعتهما، وهذان الجهازان يكذّبان هذه المعلومات الزائفة؟ ووصفت المتخصصة غير الصهيونية في مكتب الـــشرق الأوسط في البنتاغون، الكولونيل كارن كوياتوسكي،

كيف يمكن لناقد عقلاني من الدرجة الأولى للسياسة الخارجية الأميركية تجاهل مكتب الخطط الخاصة الذي أنشأه الصهيوني المتطرف دوغلاس فيث في البنتاغون؟

بالتفصيل دخول وخروج الموساد وضباط الجيش الإسرائيلي من مكتب فيث وإليه بسهولة وبشكل مستمر، في حين كان يُمنع دخول الخبراء الأميركيين الانتقاديين. ولم يكن لأي من صانعي السياسة الأساسيين هؤلاء المروّجين للحرب أي ارتباط بالمركّب العسكري-الصناعي أو ببيغ أويل، ولكنهم كانوا مرتبطين بعمق وفعاليّة بدولة إسرائيل ومدعومين من اللوبي. ومن المذهل أن تشومسكي الشهير بانتقاده للمفكرين المفتونين بالقوة الإمبريالية والأكاديميين غير الانتقاديين يسلك طريقاً مماثلاً عندما يتعلق الأمر بالمفكرين الموالين لإسرائيل الموجودين في السلطة وزملائهم الأكاديميين الصهاينة. ولا تكمن المشكلة فقط في الضغط الذي يمارسه "اللوبي" من الخارج بل بنظرائه داخل الولاية.

9. انتقد تشومسكي في كثير من الأحيان انتقاد الليبراليين الفاتر للسياسة الخارجية الأميركية، ولكنه لم يُشر البتّة إلى صمت التقدميين اليهود المطلَق حيال الدور الرئيسي للّوبي في عملية الترويج لاجتياح العراق. ولم يدخل في أي نقاش حول الأعداد الكبيرة للمؤيّدين الأكاديميين *للمصالح الإسرائيلية أولاً* والحرب مع العراق، وإيران، أو سوريا. وبدلاً من ذلك، تمحور انتقاده للحرب حول دور قادة الحزب، وإدارة بوش... إلخ دون أي محاولة لفهم الأساس التنظيمي ومقدّمي النصح الإيديولوجيين للمشبَعين بالروح الحربية.

10. يهمل تشومسكي تحليل أثر الحملة المدبَّرة والمستمرة التي نظّمتها كل جماعات الضغط والشخصيات الأميركية الرئيسية الموالية لإسرائيل لإسكات النقد الموجَّه لإسرائيل ودعم اللوبي للحرب. إن رفض تشومسكي انتقاد إساءة استعمال اللوبي لمعاداة الساميّة التي تهدف إلى القضاء على حياتنا المدنية، وتعقّب الأكاديميين خارج الجامعات وفي مناصب أخرى بسبب انتقاد إسرائيل واللوبي، هو الحدث الأكثر وضوحاً في الحملة الأخيرة المشوِّهة للسمعة التي يقوم بها البروفسوران والت وميرشايمر. وعندما نجح اللوبي بالضغط على هارفرد للتنصّل من البروفسور والت، وربما ممارسة الضغوط لاستقالته من منصب العميد في كليّة كنيدي التابعة لهارفرد بالرغم من تنازل والت عن المنصب، انضمّ تشومسكي إلى اللوبي في إدانة انتقادهما المُفرط وتحاليلهما المفصَّلة. ولم يعالج تشومسكي أبداً الوقائع الرئيسية لتحليلاتهما التي تتناول النفوذ المعاصر الذي يمارسه اللّوبي على السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. وما يدعو للسخرية أن تشومسكي نفسه ضحية الانتقاد الصهيوني الأكاديمي العنيف من حين لآخر.

يهمل تشومسكي تحليل أثر الحملة المدبَّرة والمستمرة التي نظّمتها كل جماعات الضغط والشخصيات الأميركية الرئيسية الموالية لإسرائيل لإسكات النقد الموجَّه لإسرائيل.

11. يهمل تشومسكي تقييم نفوذ اللوبي مقارنةً مع قوى مؤسساتية أخرى. فعلى سبيل المثال، كثيراً ما تذمّر جنرالات أميركيون ذوو مراتب رفيعة من تلقّي القوات الإسرائيلية المسلّحة تجهيزات عسكرية ذات تقنيات حديثة متطوّرة قبل أن تُعتمَد في الولايات

المتحدة. لقد تذمّرت الصناعات الدفاعية الأميركية (وقّع بعضها عقود للإنتاج المشترَك مع الصناعات العسكرية الإسرائيلية) بمرارة مـــن منافسة إسرائيل غير المنصفة، وانتهاك الاتفاقات التجارية، وبـــيع أسلحة ذات تقنيات متطورة للصين، وبشكل غير قانوني. في ظـــل تهديد البنتاغون من فقدان كل صلاتهم المُربِحة، ألغت إســـرائيل المبـــيعات للصين فيما كان اللوبي ينظر إلى ما يجري بارتياب... وقبل الاجتياح الأميركي للعراق، عارض العديد من المسؤولين العسكريين العاملين والمتقاعدين ومحلّلي السي آي ايه الحـــرب، وطـــرحوا تساؤلات حول افتراضات الإيديولوجيين المـــوالين لإسرائيل في البنتاغون. ولكن المحافظين الصهاينة رفضوا نصيحتهم واستخفّ بهم مؤيّدوهم الإيديولوجيون الذين يكتبون في وســـائل الإعـــلام الرئيسية. لقد نجح المحافظون الصهاينة في الحكـــومة بتخطّي منتقديهم المؤسساتيين، ويعود سبب ذلك إلى حدٍّ كبير إلى أن أراءهم وسياساتهم حيال الحرب قبلتهما وسائل الإعـــلام بلا حرَج ولا سيّما *النيويورك تايمز* التي كان لمروّج أفكار الحرب الرئيسي فيها، جوديث ميلر، علاقات وثيقة مع اللوبي. هذه العلاقات والنقاشات تاريخية معروفة جيداً، ومن شأن قارئ مواظب لوسائل الإعلام، كتشومسكي، أن يكون مُدركاً لها. ولكن تشومسكي تعمّد اختيار إغفالها وإنكارها، مستعيضاً بالمزيد من الانتقاد الانتقائي لحرب العراق ومستثنياً وقائع حيوية.

12. مـــا يظنّه تشومسكي دحضاً لنفوذ اللوبي هو استعراض تاريخي ســـطحي للعلاقـــات الأميركية-الإسرائيلية يُذكَر فيه النـــزاع

العرَضـــي حـــول المصالح، حتى أن اللوبي الموالي لإسرائيل كان يفـــشل من حين لآخر في الحصول على ما يريد. وتشبه الحجج التاريخية لتشومسكي موجزاً قانونياً لمحامٍ حول دعوى ما أكثر منه مـــراجعة شـــاملة لنفوذ اللوبي. فعلى سبيل المثال، هل أن رفض الـــولايات المـــتحدة الانضمام إلى الهجوم الفرنسي-البريطاني-الإســـرائيلي علـــى مـــصر عام 1956 يلطّف واقع أن الولايات المـــتحدة قامت في السنوات الخمسين التالية بتمويل آلة الحرب الإسرائيلية وتجهيزها بمقدار 70 مليار دولار، وذلك بفضل ضغط اللـــوبي إلى حـــدٍّ كبير؟ في الواقع، في العام 1967، قامت القوة الجـــوية الإســـرائيلية بقـــصف سفينة جمع المعلومات المخابراتية الأميركية، *يو أس أس ليبرتي*، في المياه الدولية وقتل وجرح أكثر مـــن 200 بحّـــار وضابط من أفراد البحرية الأميركية. في خطوة تاريخـــية غـــير مسبوقة، رفضت إدارة جونسون الردّ الانتقامي، وأسكتت الناجين من الهجوم الذي حدث دون استفزاز، مهدّدةً إيّـــاهم بالمثول أمام المحكمة العُرفية. ولم تطرح أي إدارة لاحقة المـــسألة، باستثناء إجراء الكونغرس تحقيقاً رسمياً، حتى أنهم زادوا المعـــونة لإسرائيل، واستعدّوا لاستخدام الأسلحة النووية دفاعاً عـــنها عندما بدا أنها تخسر الحرب في حرب تشرين عام 1972. وأدّى دفـــاع الولايات المتحدة عن إسرائيل إلى المقاطعة العربية للـــنفط الـــتي كانت تكلفتها باهظة جداً وتسبّبت بارتفاع سعر الـــنفط إلى حـــدٍّ كبير، وعداء الحلفاء العرب السابقين، وتهديد الاســـتقرار الـــنقدي العالمي. بكلمات أخرى، وفي هذه الحالة وحالات عديدة أخرى، كان اللوبي الموالي لإسرائيل أكثر تأثيراً

من القوات المسلّحة الأميركية في تحديد شكل الرد الأميركي على عمل إسرائيلي عدائي ضد الجنود الأميركيين العاملين في المياه الدولية. في السنوات الأخيرة، منع نفوذ اللوبي الأف بي آي من مقاضاة أعداد كبيرة من الجواسيس الإسرائيليين الذين دخلوا الولايات المتحدة عام 2001. وما تمّ القيام به فقط هو ترحيلهم بهدوء. إن الاعتقال الأخير لمسؤولَين في آيباك بسبب تسليم مستندات حكومية سرّيّة للسفارة الإسرائيلية أدّى إلى قيام اللوبي الموالي لإسرائيل بتنظيم حملة إعلامية دفاعاً عنهما، محوّلاً عملاً تجسسياً ضد الولايات المتحدة إلى ممارسة لحرية التعبير. وظهرت في معظم الصحف البارزة مقالات افتتاحية مؤيّدة لإسقاط التُهَم، وذلك في حملة غير مسبوقة في تاريخ الولايات المتحدة لصالح عملاء حكومة أجنبية. لقد تخطّى نفوذ قدرة الحملة الدعائية للّوبي أي قوة موازية، وإلى حدٍّ بعيد، حتى وإن كانت القضية المرفوعة ضد مسؤولَي آيباك شائكة جداً وتتضمّن شهادة المسؤول الرئيسي في البنتاغون الذي أُدين بتهمة تسليمهما المستندات.

13. يعزو تشومسكي، وهو ناقد ذو شهرة كبيرة لانحياز وسائل الإعلام، الروابط المشترَكة إلى تقاريرها الإخبارية المعادية للعاملين. ومع ذلك، وعندما يتعلق الأمر بالانحياز الموالي لإسرائيل بطريقة لا يمكن مقاومتها، فهو لم يحلّل أبداً تأثير اللوبي الإسرائيلي، والعلاقة بين نخبة الإعلام الموالي لإسرائيل والانحياز الموالي لإسرائيل. هل هو موضوع غير متفاهَم عليه فحسب أم مسألة فقدان إيديولوجي للذاكرة...؟

14. يذكر تشومسكي أهمية إسرائيل بالنسبة إلى الاستراتيجية الإمبريالية الأميركية القاضية بإضعاف القومية العربية، ودورها في توفير معونات عسكرية ومستشارين عسكريين لأنظمة توتاليتارية إرهابية (غواتيمالا، الأرجنتين، كولومبيا، التشيلي، بوليفيا، وهكذا دواليك) عندما يفرض الكونغرس الأميركي عقوبات ليكون التدخل بقيادة أميركية. وهناك قليل من الارتياب في شأن قيام إسرائيل بخدمة أهداف الإمبريالية الأميركية، ولا سيّما في أوضاع تُتَّبع فيها سياسات دامية. ولكن هذا الأمر يتجاهل النتيجة الطبيعية وهي أن إسرائيل استفادت من قيامها بهذا الدور (وربما قامت به لهذا السبب بالذات)؛ فزادت مداخيلها العسكرية، وكسبت داعمين لها ومؤيّدين لسياسات إسرائيل الاستيطانية، ووفّرت الأسواق لتجّار الأسلحة الإسرائيلية، وأرست بصورة عامة مبدأ المبادَلة في ما سيكون علاقة أحادية الجانب مثيرة للسخرية، وهو أمر

برهن تحليل أكثر شمولية للمصالح الأميركية أن تكاليف دعم إسرائيل تتخطى بكثير المصلحة العَرَضية.

كان بالإمكان إثباته. من جهة ثانية، برهن تحليل أكثر شمولية للمصالح الأميركية أن تكاليف دعم إسرائيل تتخطى بكثير المصلحة العَرَضية، إذا أخذنا بعين الاعتبار الفوائد الناجمة عن الأهداف الأميركية الإمبريالية أو فوائد أكبر ناجمة عن تفضيل سياسة خارجية ديمقراطية. وفي ما يتعلق بالحروب المُكلفة والهدّامة ضد العراق - ومتّبعةً خطى إسرائيل وجماعات الضغط التابعة لها - أضعفت السياسة الموالية لإسرائيل، وبشدة، قدرة الجيش الأميركي على الدفاع عن الإمبراطورية في أماكن أخرى،

وأدّت إلى فقـــدان هيبته وثقته بنفوذه، وأضعفت الثقة بادّعاءات الــولايات المــتحدة بأن تكون بطلة الحرية والديمقراطية. ومن وجهـــة نظـــر السياسة الخارجية الديمقراطية، فقد قوّت الجناح المُشبَع بالروح القتالية في الحكومة وأضعفت الحريات الديمقراطية في الــوطن. وتستفيد إسرائيل بالطبع لأن الحرب دمّرت خصماً علمانياً رئيسياً وسمحت لها بإحكام قبضتها على الأراضي المحتلة.

المؤيّدون اليساريون، مثل نعوم تشومسكي وستيف زونس، لما تدعوه إسرائيل اللوبي اليهودي الأميركي، يجادلون قائلين إن السلوك الأميركـــي في الـــشرق الأوسط مماثل لسياسات اعتُمدت في أماكن أخرى من العالم، ويُقال إن هذه السياسة العامة سبقت نشوء اللوبي. وتخالف هذه الحجة معظم تاريخ الولايات المتحدة في مرحلة ما بعد الحـــرب العالمية الثانية. ويُثبت دليل دامغ معارضة الولايات المتحدة الاســـتعمار والشيوعية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، ساعيةً إلى استبدال الأنظمة الاستعمارية الأوروبية واليابانية بهدف فتح الأسواق وفـــرص الاستثمار للشركات الأميركية المتعددة الجنسيات. إسرائيل هـــي القوة الاستعمارية الوحيدة التي تعارض الحركات غير الشيوعية الـــتي دعمـــتها الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال، وخلال أزمات الـــسوَيس عام 1956 عندما اجتاحت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قناة الـــسوَيس المـــصرية وصحراء سيناء واحتلّتهما، عارضت الولايات المـــتحدة مـــسعى هذه الدول لإقامة حكم استعماري. وفي أواخر الـــستينيات وفـــيما كـــان اللوبي اليهودي يرفع من مستوى نفوذه، دعمت الولايات المتحدة بالسلاح وبمليارات الدولارات الدبلوماسية الإســـرائيلية الاســـتيطانية، واغتصاب الأراضي، وهجمات جوّية في

مختلف أنحاء الشرق الأوسط؛ وهي سياسة لم يسبق لها أن دعمت، أو تدعم في الواقع، في أي مكان آخر في العالم، ولا سيّما هجمات دولة استعمارية ضد بعض البلدان التي تُقيم روابط مع شركات نفط أميركية.

بخلاف معظم آسيا، وأميركا اللاتينية، وأفريقيا، حيث طوّرت الولايات المتحدة علاقات وثيقة مع أنظمة ليبرالية جديدة منتخَبة، لا يمكن للولايات المتحدة تكرار هذه السياسة في الشرق الأوسط لأن العمليات الانتخابية أدّت إلى نتائج سلبية، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى العلاقات الأميركية مع الدولة الإسرائيلية الاستعمارية وسياستها القائمة على احتلال الأراضي. تتمثل الفرَضية الرئيسية للسياسة الخارجية الأميركية الإمبريالية بحصد مكاسب ضخمة من أفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا؛ تمّ ذلك بشكل روتيني باستثناء ما يتعلق بإسرائيل التي كانت تحصد ما بين 3 و10 مليارات دولار سنوياً على صورة تقدمات. هذا الأمر جليّ تماماً بقدر ما هو مُضحك.

لم يسبق للولايات المتحدة أن دخلت في حرب إمبريالية عارضها أصحاب النفوذ الاقتصاديون الرئيسيون أو التزموا الصمت حيالها.

وفي مقابلة مع *الوول ستريت جورنال* (12 نيسان/إبريل 2006)، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي أولمرت أنه سيطلب 10 مليارات دولار (أميركي) لإعادة إسكان 70.000 مستوطن يهودي في الضفة الغربية. وحشد اللوبي اليهودي على الفور أعداداً كبيرة من أعضاء الكونغرس لدعم الاقتراح الإسرائيلي الخيالي، في حين كان مئات الآلاف من ضحايا الإعصار كاترينا بلا مأوى أو عمل أو مستقبل. لم يسبق للولايات المتحدة أن دخلت في حرب إمبريالية عارضها

أصـــحاب النفوذ الاقتصاديون الرئيسيون أو التزموا الصمت حيالها. وإذا تفحّصنا الحالات التي ذكرها تشومسكي ومعاونوه: غواتيمالا 1954، إيـــران 1954، والتـــشيلي 1973، فقد دعمت المجموعات الاقتـــصادية الرئيسية آنذاك التدخل الأميركي: يونايتد فروت في غواتـــيمالا، ســـتاندارد أويـــل في إيران، أناكوندا وآي تي تي في التشيلي.

وفي الحروب الشرق أوسطية والجنوب آسيوية الحالية، لا وجود لتأثير مماثل تمارسه الاتحادات (النفطية) الاقتصادية أو حتى المؤسسات الفـــردية. لم يُشر تشومسكي إلى أي تصريح علني، أو مذكّرة سرّيّة، أو لوبي في صناعة النفط يقوم بالترويج لبرنامج الحرب. بخلاف ذلك، هـــناك أكثـــر من 2000 تصريح، ونشرة إعلامية، ومؤتمر، ومقابلة، ومقالـــة افتتاحية، ومستند لكافة جماعات الضغط اليهودية الرئيسية وقادهـــا روّجت لاجتياح العراق، وتروّج في الوقت الحاضر لهجوم وقائـــي علـــى إيران. و لم يسبق لأي ميدان آخر من ميادين السياسة الخارجـــية في الـــتاريخ الحديث للولايات المتحدة أن تعرّض لحملة إعلامـــية مماثلـــة طويلة الأمد وعلى نطاق واسع قام بها لوبي يعمل لصالح قوة خارجية، كما هي حالة اللوبي اليهودي الذي يعمل لصالح إســـرائيل. إن التـــشابهات القائمـــة مع اللوبي الصيني القديم مثيرة للـــضحك؛ في مـــا يتعلق بنطاق الكونغرس وتأثيره. وبطريقة مماثلة، فـــشل اللوبي المناهض لكاسترو بإحباط صادرات أميركية إلى كوبا بقـــيمة مليار دولار أميركي قامت بدعمها مجموعة من رجال أعمال نافـــذين. وعلاوةً على ذلك، لا يتّبع اللوبي المناهض لكوبا سياسات حكومة أجنبية، وهو يفتقر إلى التمويل، والتأثير الإعلامي، والتنظيم

الـــتي يتمـــتّع بها اللوبي اليهودي الموالي لإسرائيل. وباستثناء منطقة الكاريبـــــي وأميركا الوسطى، لم تقُم الولايات المتحدة باجتياح أيّ من بلدان أميركا اللاتينية أو ذهبت إلى الحرب للإطاحة بنظام هناك، وذلـــك بخلاف ما هو الحال في الشرق الأوسط. فالولايات المتحدة تـــستخدم بدائل محليين ومسؤولين عسكريين متحالفين مع طبقات محلـــيّة حاكمة لإسقاط أنظمة وطنية أو ديمقراطية. وفي حالة العراق، قامت الولايات المتحدة باجتياح عسكري مباشَر، وهي تخطط لحرب جويّة وبريّة مستقبلية ضد إيران وسوريا. إن الاستراتيجيات المختلفة تعكـــس سياســـات مختلفة صمّمها صانعو السياسة وفقاً لأولويات متضاربة في عملية بناء الإمبراطورية الأميركية: يسعى المحافظون الجدد إلى القضاء على أعداء إسرائيل حتى وإن عنى ذلك الإضرار بالمصالح الاقتصادية الأميركية، فيما يسعى الاستعماريون الجدد إلى الاستيلاء علـــى المـــوارد لا الأراضـــي. وكثيراً ما تشارك السياسة الخارجية الأميركـــية في نقاشـــات، وحوارات، وبدائل؛ حتى ضمن إطار بناء الإمـــبراطورية. ولا وجود لنقاش مماثل حول الشرق الأوسط يشمل السياسة المتعلقة بإسرائيل. ويحشد اللوبي ما بين 90 و98 في المئة من أعـــضاء الكونغـــرس. إن الـــسلوك الأميركي في الأمم المتحدة إزاء القـــرارات المرتبطة بحقوق الإنسان، والعقوبات، واقتراحات السلام الـــتي تؤثّر في سياسة الاستعمار الإسرائيلية متأثّر كثيراً باللوبي. ولم تـــستخدم الولايات المتحدة حق النقض في أي مسألة أخرى مرتبطة بسياستها الخارجية لحماية منتهك دائم للقانون الدولي كما هي حالها مـــع إسرائيل. وباستثناء الضجيج الذي حدث نتيجة لمعارضة الأمم المتحدة فرض حصار اقتصادي أميركي على كوبا، وحدها السياسة

الأميركـــية المتغاضـــية عن التوسع الاستعماري الإسرائيلي والتدخل العنـــيف في فلسطين أثارت معارضة عالمية مماثلة. إن دمج السياسات الإمبريالية الأميركية وصانعي السياسة والعلاقات مع إسرائيل بطريقة مماثلة لما يجمع إسرائيل ببقية العالم هو خطأ تاريخي لا أساس تجريبـــي لـــه، ويفتقـــر إلى أي حنكة تحليلية. ولم يكن لأي سياسة خارجية إقليمـــية هذا العدد الكبير من صانعي السياسة الأساسيين في وزارة الخارجية والبنـــتاغون المـــرتبطين عُضوياً بدولة خارجـــية وموالين لها سياسياً كما هو حال الشرق الأوسط المعاصر. ولم يكن أي مـــيدان آخـــر من ميادين السياسة الخارجية غير مناقَش في وسائل الإعلام كمـــا هـــو حال التوسع الاستعماري الإســـرائيلي وانتهاكه المتواصل لحقوق الإنسان. يدعو اللوبي خبراء الشرق الأوسط الأميركيين الذين لا يؤيّدون إسرائيل بلا قَيد أو شرط مـــستعربين أو أسوأ من ذلك، معادين للساميّة، وقد هُمِّشوا بالكامل في وزارة الخارجـــية، والقوات المسلّحة، والسي آي ايه، أو أُخرجوا مـــن عـــضوية الكونغرس. ولم يحدث ذلك في أي ميدان من ميادين السياسة الإقليمية. واعتبار أن سياسة الولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط هي السياسة الإمبريالية نفسها المطبَّقة في أماكن أخرى ليس ســـوى تجاهل للاصطفافات المختلفة والمجموعات النافذة المشاركة في تحديـــد السياسة، والأهم من ذلك تجاهل للأهداف التي تنكبّ القوة الإمبريالية على تحقيقها، ولكن لأجل أي مصالح.

يسعى المحافظون الجدد إلى القضاء على أعداء إسرائيل حتى وإن عنى ذلك الإضرار بالمصالح الاقتصادية الأميركية، فيما يسعى الاستعماريون الجدد إلى الاستيلاء على الموارد لا الأراضي.

لقــد أدّى الالتزام غير المشروط بالدولة الإسرائيلية الاستعمارية إلى تآكــل علاقات الولايات المتحدة بالدول الأكثر ثراء وازدحاماً بالــسكان في العالم العربي والإسلامي. ووفقاً لمصطلحات السوق، هناك فارق بين مبيعات بمئات المليارات من الدولارات وبين الدفاع عــن متلقّي معونات أميركية ضخمة. وتفوق الخسائر الاقتصادية أي مكاســب عسكرية مشكوك فيها على نطاق ضيّق. تشتري الدول العــربية إجمــالاً المعدات العسكرية الأميركية، بينما صناعة الأسلحة الإسرائيلية هي منافس قوي.

وشركات النفط والغاز الأميركية هي خاسرة صِرفة في ما يتعلق بالاستثمارات والأرباح والأسواق بسبب ما يربط الولايات المتحدة وإســرائيل مــن علاقات، ولا تملك الكثير لتقدّمه في الفئات الآنف ذكــرها بــسبب سوقها الصغير. في الواقع، كانت بيغ أويل مهتمّة بالاستثمار في عراق صدام؛ تمّ استثناؤه مــن قِبَل السياسة الأميركية التي تحظّر على الشركات الأميركية دخول تلك الــسوق. وكــان الحظــر جزءاً من استراتيجية المحافظين الصهاينة التي يعود تاريخهــا إلى زمن رئاسة كلينتون التي كانــت متأثّــرة إلى حدٍّ كبير باللوبي الموالي لإسرائيل وصانعي سياسة الشرق الأوسط (هولبروك، أولبرايت، روس، إنديك، ساندي برغر... إلخ). وأن يكون لفرنسا، والصين، وروسيا، واليابان، ودول عديدة أخرى مــصالح في العــراق، وأن توقّــع عقــوداً نفطية بعدة مليارات من

وفقاً لمصطلحات السوق، يكمن الفارق بين مبيعات بمئات المليارات من الدولارات وبين الدفاع عن متلقّي معونات أميركية ضخمة. وتفوق الخسائر الاقتصادية أي مكاسب عسكرية مشكوك فيها على نطاق ضيّق.

الـــدولارات مـــع إيـــران، هـــي أمور لم تكن *سبباً* لسياسة الحرب الأميركـــية بل نتيجة لها. ممّا لا شك فيه أن شركات النفط الأميركية قادرة على المنافسة، وهي تملك أكثر من مجرّد *فرصة* للتنافس بنجاح بهدف الحصول على عقود للتنقيب وفقاً لشروط السوق العادية إن لم تمنعها سياسة الحرب الأميركية من ذلك. والدور الذي يلعبه المحافظون الصهاينة في السلطة لإضعاف حضور شركة MNC الأميركية في صناعة النفط الإيرانية يُثبت تفوّق اللوبي اليهودي على بيغ أويل.

ولا أســـاس للحجـــة القائلة إن سياسة الحرب صُمِّمت لإبقاء الـــدولار عملة الاتّجار بالنفط في الأسواق العالمية عندما كان صدام يفكـــر بالـــتحوّل إلى الـــيورو، أو أن تجارة النفط التي يهيمن عليها الـــدولار يهـــدّدها إنشاء بورصة النفط الإيرانية المقترَحة. ولو تحوّل صـــدام أو إيـــران إلى اليورو لكان أثر ذلك على سوق العملات في حدّه الأدنى، أو معدوماً، نظراً لأن هذا الأمر يشكل أقل من 1% من التـــبادلات التجارية. فالذين يملكون أضعافاً مضاعفة من الدولار هم الـــدول الآســـيوية (الصين، اليابان، تايوان... إلخ) والدول النفطية الشرق أوسطية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، والكويت... إلخ؛ ولا معلـــومات تشير إلى أن أيّاً من هذه الدول تتخلّص ممّا تملكه مـــن احتياطيات بالدولار أو أنها تتّبع برنامج إيران النقدي، أو قبل ذلـــك، برنامج صدام في هذا المجال. وللقيام بذلك، يستلزمهم الأمر إدخـــال تعديل كبير على علاقاتهم الحالية مع الولايات المتحدة، وهو أمر سيكون محفوفاً بالمخاطر والعواقب.

أخـــيراً، إن حملـــة اللوبي الفعلية لضمان فيتوات أميركية ضد القرارات الدولية التي تُدين التطهير العِرقي الذي تمارسه إسرائيل بحق

الفلـــسطينيين، وهجومها على لبنان، تضع الولايات المتحدة علانيةً وبوضـــوح في خانة ممارسة التعذيب على نطاق واسع والذي جُعل قانونـــياً، وتنفـــيذ أحكام بالإعدام خارج إطار المحاكم القانونية وقد جُعـــل قانونـــياً، وتهجير السكان الكبير وغير القانوني، أي ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. وتكون النتيجة النهائية إضعاف القانون الدولي، وحالة تفجّر متزايدة في منطقة ذات أهمية استراتيجية كـــبيرة. ولا يُدخل تشومسكي في حسابه التكلفة الجيو-استراتيجية وتكلفة الطاقة، والخسائر اللاحقة بحرّياتنا الوطنية الناجمة مباشَرةً عن حـــروب الشرق الأوسط التي تُخاض بالنيابة عن إسرائيل، وبدرجة أقل، عن نشوء شكل خبيث من أشكال المكارثية الجديدة الصهيونية المنتشرة في مؤسساتنا الأكاديمية والفنّية، وفي مؤسسات عامة وخاصة أخـــرى. وإذا كـــان هناك ما يُثبت نفوذ الصهاينة المتنامي وقدرتهم الاستبدادية، فإن الحملة القاسية والناجحة ضد البروفسورَين ميرشايمر ووالت تؤكّد ذلك.

خاتمة

في الأزمنة الطبيعية، قد ينتبه المرء قليلاً للمجادلات الأكاديمية ما لم يكـــن لها عواقب سياسية هامة. وفي هذه الحالة، نعوم تشومسكي هـــو صـــورة لمـــا يرمـــز إلى الحركات الأميركية المناهضة للحرب والمعارَضـــة الفكـــرية. أما وقد اختار أن يغفر للّوبي الموالي لإسرائيل وللمجموعات المنتسبة إليه والمساعدين الإعلاميين فهو حدث سياسي هـــام، ولا ســـيما عندما توضَع مسائل الحرب والسلام في الميزان، وعندما تعارض غالبية الأميركيين الحرب. إن القيام بجولة في إطار من

حــــريّة التعبير على الكتّاب الأساسيين والمخططين وممارسي الضغوط العـــاملين لصالح الحرب هي عقبة إيجابية في طريق إيضاح من الذي نقاتلـــه ولأي سبب. وتجاهل اللوبي الموالي لإسرائيل يعني تمكينه من الحـــث على اجتياح إيران وسوريا، والأسوأ من ذلك أن إعفاءه من مسؤوليته من خلال الإشارة إلى أعداء زائفين لا يعني إضعاف فهمنا للحـــرب فحـــسب، بل أيضاً لأعداء الحريّة في هذا البلد. وقبل كل شيء، هو يوفّر لحكومة أجنبية موقعاً يمكّنها من إملاء سياستنا حيال الـــشرق الأوســـط، فـــيما يقتـــرح أنظمة وتشريعات لمنع النقاش والمعارضـــة. دعوني أختتم بالقول إن حركات السلام والعدالة، في الـــوطن وفي الخـــارج، هـــي أكـــبر من أي فرد أو مفكر آيّاً تكن مصداقيّتها في الماضي.

يوم أمس، أطلعتنا المنظمات الصهيونية الرئيسية على من يمكننا أو لا يمكننا انتقاده في الشرق الأوسط، وهم اليوم يُطلعوننا على من يمكنـــنا انتقاده في الولايات المتحدة، وغداً سيطلبون منّا حَني رؤوسنا والخضوع لأكاذيبها وخدعها بهدف خوض حروب احتلال جديدة خدمةً لنظام استعماري بغيض أخلاقياً.

الفصل الرابع عشر

مجابهة الصهيونية وإصلاح السياسة الأميركية في الشرق الأوسط

إن مسائل السلام والحرب، ومعاملة كل المجموعات العرقية والإثنية بإنسانية، وتخصيص معونات خارجية لأولئك الذين هم بأمسّ الحاجة إليها في العالم الثالث لا لدولة استعمارية عدوانية يحتل الدخل الفردي فيها المرتبة الثامنة والعشرين[1] في العالم، هي أمور رئيسية في برنامج عملنا. ومجابهة الصهيونية- الدولة الاستعمارية نفسها والموالون لها في الخارج- تتطلب منا مواجهة تحديات مترابطة، وببسالة، متمثلة بمعارضة القوات المسلّحة الأميركية، والإمبريالية الاقتصادية وما تتمتّع به من امتيازات، ومؤيّدي الإثنية الدينية، وذلك بصرف النظر عن ادّعاءات الصهاينة بأنهم شعب مميَّز ذو تاريخ أو قضية أو حقوق على الجنس البشري فريدة من نوعها.

هناك الكثير من المسائل التي لم يُبَتّ فيها بعد وهي ستُطرَح بالتأكيد بعد الكارثة العسكرية في العراق التي أزهقت أرواح عدد كبير من الأميركيين واستنزفت ميزانية مؤلّفة من عدة مليارات من الدولارات كان من المُفترَض إنفاقها على عشرات الملايين من

---

(1) انظر إلى الدخل العالمي للفرد الواحد عام 2005 وفقاً لمؤشرات تطور البنك الدولي على الموقع http://www.finfacts.com/biz10/ globalworldincomepercapita.htm

المواطـــنين الأميركـــيين والمقـــيمين في الـــولايات المتحدة الذين لا يستفيدون من خدمات العناية الصحية ومعايير العيش الملائم. وفيما قد توجَّه في النهاية دعوة للكونغرس لإجراء تحقيق بهدف الإجابة عن الأســئلة التالية "لِمَ شنّت الولايات المتحدة الحرب؟"، "لِمَ خسرت الولايات المتحدة الحرب؟"، وقبل كل شيء "من كان المسؤول؟" فإن إمكانـــية حدوث أي تحقيق رسمي على نطاق واسع يدفعنا إلى الأمام في هـــذا الـــوقت تعتمد على قدرة المحافظين الجدد في الحكومة على إحـــباطه. فالتحقـــيق الـــذي أجراه المفتش العام في البنتاغون ولجنة المخابرات المختارَة المنبثقة عن مجلس الشيوخ (SSCI) برئاسة رئيس اللجنة بات روبرتس، في شأن دوغلاس فيث، كانت مخيِّبة للآمال[1]. وإن دعـــوة عضوة الكونغرس باربرا لي لإجراء تحقيق محدود وُضعت علـــى قارب بطيء متّجه إلى الصين[2]. وفيما قد تكون الأف بي آي

(1) جون بايم، "أجهزة مخابرات ما قبل الحرب تحقّق في أعمال الظلم بهدف وضع حـــدٍّ لها فيما تتبادل الأحزاب الاتهامات بالإرجاء" الثلاثاء، 11 نيسان/إبريل 2006، واردة في موقع رووستوري http://www.rawstory.com/news/2006/ Prewar-intelligence-probe-grinds-to-end-0411.html. وذكـــر بايم أن الديمقـــراطيين قالوا إن "روبرتس أجّل التحقيق حتى تشرين الثاني/نوفمبر" وأنه "مـــا يزال على اللجنة إجراء مقابلة مع أي مسؤولين عامّين حول تصريحاتهم المتعلّقة بقدرات العراق قبل الحرب".

(2) في تموز/يوليو 2005، تقدّمت عضوة الكونغرس باربارا لي (الحزب الديمقراطي عـــن ولاية كاليفورنيا) إلى مجلس النواب بقرار لإجراء تحقيق (H. Res 375) كان من شأنه، لو أُقرّ، حمل البيت الأبيض ووزارة الخارجية على "إرسال كل المعلومات المتعلقة بالاتصال بمسؤولي المملكة المتحدة بين 1 كانون الثاني/يناير 2002 و16 تـــشرين الأول/أكتوبـــر 2002 والـــتي هي على صلة بسياسة الـــولايات المـــتحدة حيال العراق". كان لمشروع القرار 83 راعياً مساعداً. وبـــتاريخ 16 أيلول/سبتمبر 2005، وُضع مشروع القرار هذا على روزنامة

حققت نجاحاً بإجبار وولفويتز على الانتقال إلى البنك الدولي، لم يحدث بعد أي تحقيق علني ورسمي حول الدور الذي لعبه، أو إدانة لهذا الأمر.

مع ذلك، إذا ما أُجري هذا التحقيق في وقت ما في المستقبل كما هو مفترَض، فإن سلسلة المسائل التي ستثير المعارضة الأكثر عنفاً ستركّز على دور الصهاينة في البنتاغون، وعلى مستشاريهم والمتعاونين معهم والداعمين لهم داخل نظام بوش وخارجه. ومن المتوقَّع قيام المحافظين الجدد، والليبراليين، والمنظمات اليهودية الخيرية وحلفائها غير اليهود داخل الحكومة وخارجها، بمعارضة مجرى هذا التحقيق، بمن فيهم أولئك الذين قاموا بعمل عظيم لدى كشفهم عن غير الصهاينة المُشبَعين بالروح القتالية في إدارة بوش وأغفلوا بشكل مُلفت ذكر الجماعات الصهيونية ومؤيّديها الإيديولوجيين والمنظّمين في المجتمع المدني[1].

قد يصلح تحقيق مماثل كاختبار تربوي لتزويد المواطنين الأميركيين بمعلومات عن الطبيعة غير الديمقراطية، وإلى حدٍّ بعيد، لعملية اتخاذ القرار في مسائل الحرب والسلام، والتهديدات التي يشكّلها المدنيون المُشبَعون بالروح القتالية على القانون الدولي وحقوق تقرير المصير الوطني، والتهديد الفعلي الذي تشكّله النُخَب الداخلية ذات التنظيم العالي الذين أصبحوا أدوات للدول الاستعمارية الصغيرة التي تقتطع لها إمبراطوريات إقليمية.

مجلس النواب وحمل الرقم 87؛ ومن جهة ثانية، تحدّد قيادة الحزب الذي يملك غالبية المقاعد ترتيب مشاريع القرار وفقاً للأولوية وتصوّت عليها.

(1) في كافة مقالات سيمور هرش التي نشرتها ذا نيويوركر في شهرَي نيسان/إبريل-حزيران/يونيو 2004، لم تتمّ مناقشة دور أعضاء البنتاغون الصهاينة.

هناك مجريان محتمَلان للتحقيق في شأن التأثير الصهيوني الكارثي علـى سياسـة الحرب الأميركية في الشرق الأوسط. ومصدر أحد المجـريَين بناة الإمبراطورية القوميون الذين ينظرون إلى مسألة النفوذ الـصهيوني مـن مـنظار الأثر السلبي الذي لحِق ببناء الإمبراطورية الأميركية نتيجةً لحرب العراق والهجوم الإسرائيلي على لبنان(1). فمن المحـتمَل أن يـتقدّموا بـشهادة مفادها أن الموالين لإسرائيل عزلوا الولايات المتحدة عن حلفائها الأوروبيين والمحافظين من خلال الحث على اتّباع استراتيجية عسكرية احتلالية أحادية بدلاً من الدخول في استراتيجيات اقتصادية ودبلوماسية مشترَكة، والضغط على إسرائيل للتـصرف كدولة عادية من خلال التفاوض على حلّ قائم على مبدأ الأرض مقابـل الـسلام يـؤدّي إلى قـيام دولتَين. سيسعى بانو الإمـبراطورية المحافظـون هؤلاء إلى لفت الانتباه لدور الصهاينة في البنتاغون وإخلاصهم الخانع لمصالح الدولة الإسرائيلية، ولتأثيرات هذا الـدور المدمِّـرة على الموقع السياسي- الاقتصادي العالمي للولايات المـتحدة مـن خلال التركيز على فقدانها النفوذ الذي تمارسه على منتجـي الـنفط مـن دول عربية وإسلامية، وتسليط الضوء على التهديدات الغبيّة التي تتعرّض لها المملكة العربية السعودية.

سيـسعى المـسؤولون المحترفون في القوات المسلّحة وأجهزة المخابـرات بصفة خاصة إلى إثبات كيفية قيام الصهاينة بالاستيلاء

(1) بـتاريخ 16 حزيران/يونيو 2004، صدر إعلان عن 27 دبلوماسياً من ذوي المـراتب الـرفيعة ومـسؤولين عسكريين مرموقين يدعو إلى هزيمة بوش في الانـتخابات، ووجّهوا في أيار/مايو 2004 رسالة مفتوحة للرئيس بوش تحمل تواقـيع60 دبلوماسـياً متقاعداً أشاروا فيها إلى ما ألحقته العلاقة الأميركية- الصهيونية من ضرر بالهيبة الأميركية وتأثيرها في العالم المسلم وأوروبا.

علـــى عملـــية صناعة القرار، وتهميشهم وتدبّر أمورهم، وتجاهل تقاريـــر جهـــاز المخابـــرات الداخلي لصالح تقارير ملفّقة تضعها جماعتهم والمخابرات الإسرائيلية بهدف خدمة أكبر قَدْر ممكن من المـــصالح الإسرائيلية. وسيشدّد المسؤولون المحترفون بصفة خاصة علـــى التغاضـــي المـــتعمَّد وغير المبرَّر عن الخبراء الداخليين الذين حـــذّروا مـــن الحرب ومن عدم جدوى البحث عن أسلحة دمار شامل، ولاعقلانية سلسلة من الاجتياحات التي تعرّض لها الشرق الأوســـط، وإمكانـــية حـــدوث مقاومـــة أكـــبر إبّان الاحتلال الاستعماري. ستشير القوات المسلّحة المكيَّفة وفقاً لخطط الناتو إلى كيفـــية قيام صانعي السياسة ذوي التوجّه الإسرائيلي بتعمّد إثارة خـــصومات غير ضرورية بين حلفائهم الأوروبيين تؤثّر في عملية بناء الإمبراطورية، وذلك من خلال الإعداد لحملات خبيثة معادية للـــساميّة تـــستهدف فرنـــسا وبلجـــيكا لأنهما تنتقدان التوسع الإسرائيلي والتطهير العِرقي.

الخلاصـــة أن المحـــافظين (مـــسؤولون سياسيون وعسكريون ومخابـــراتيون) ســـيجادلون قـــائلين إن الصهاينة، ومن خلال وضع إسرائيل في مركز اهتمامهم لدى صناعة السياسة، أضعفوا عملية بناء الإمـــبراطورية الأميركـــية، واستنـــزفوا الجنود، والموارد، والأموال، والتأييد الشعبي، لتحقيق مزيد من الهيمنة الإقليمية[1].

(1) الـــسناتور الأميركـــي إرنـــست فريتز هولينغز، "سياسة بوش الشرق أوسطية المُخفقـــة تتـــسبّب بمـــزيد من الإرهاب"، تشارلستون بوست أند كوريي، 6 أيـــار/مايـــو 2004، و"الـــولايات المـــتحدة فقدت سلطتها الأخلاقية"، ذا ستايت، 23 حزيران/يونيو 2004.

ويُفترَض بمجرى آخر للتحقيق من وجهة نظر اليساريين والتقدميين أن يعالج مسألة النفوذ الصهيوني في ما يتعلق بالحرب والسلام في الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى، وذلك من خلال التركيز على اغتصاب الحقوق الديمقراطية للمواطنين الأميركيين في صناعة السياسة الخارجية: في الواقع، إن بإمكان نُخبة صغيرة مؤلّفة من عدة آلاف من ممارسي الضغوط الميسورين ذوي تنظيم رفيع وتمويل جيد التحكم بعملية تصويت أعضاء الكونغرس، وممارسة التهويل على الممثلين السياسيين الذين ينتقدون سياسات إسرائيل الاستعمارية أو إلحاق الهزيمة بهم، وشراء وسائل الإعلام والناطقين البارزين باسمها الذين يطرحون تساؤلات حول الترابطات العراقية-الإسرائيلية، أو إسكاهم و/أو ممارسة التهويل عليهم. ولن يكون الانتقاد التصعيدي موجَّهاً لدور صهاينة البنتاغون في إدخال تعديلات على سياسة الحرب الأميركية لصالح إسرائيل فحسب، بل أيضاً لوجهة نظرهم العالمية ككل المستقاة من وجهة النظر الإسرائيلية للعالم: نظرة مصابة بالذُهان الارتيابي إلى أعداء خارجيين أبديين، وحلفاء لا يمكن الاعتماد عليهم ويُنكرون القانون الدولي ومواثيق واتفاقات جنيف، وتغلغل انتقادات حادة، وأجهزة عسكرية ومخابراتية لحلفاء مزعومين.

وسيهاجم التقدميون وجهة النظر الإسرائيلية التي تصف الدول المعادية بالأعداء المُهلكين الذين لا يفهمون إلا لغة القوة، والتي تعتبر المفاوضات وسيلة تهكميّة تُستخدَم فقط لإبطال الانتقادات وتعطيل فعّالية الأخصام بهدف إيجاد "وقائع جديدة على الأرض" من خلال القوة والعنف. وسيكون على التقدميين الربط بشجاعة بين صهاينة

البنتاغون وبين انجذابهم للإيديولوجية الإسرائيلية وعدم الاعتراف بالدبلوماسية والقانون الدولي والتعاون.

لكن من شأن تحقيق دقيق تقييم أفضليات السياسة بدلاً من تنقيحها، وذلك بقصد إضفاء الطابع الديمقراطي على السياسة الخارجية الأميركية. يبدو أن أي إجراء رسمي مماثل قد يكون ممكناً في أميركا هو أمر مشكوك فيه نظراً لأنه سيكون عليها التعاطي مع مستوى من الجرائم الموازية لجرائم النازيين إبّان الحرب العالمية الثانية، وذلك لأن مهندسي الحرب العراقية خططوا لسلسلة من حروب الاحتلال العدوانية المرتكزة على مبدأ الهيمنة من خلال العنف، والتعذيب، والعقاب الجماعي، والحرب الشاملة على المدنيين ومنازلهم، وعلى المستشفيات، والإرث الثقافي، والكنائس والمساجد، ووسائل العيش والمؤسسات التربوية. فهذه هي الجرائم الأكثر خطورة ضد الإنسانية.

يتعذّر اجتناب الجرائم ضد الإنسانية في الحروب الشاملة المرتكزة على إيديولوجيات الولاءات الإثنية-الدينية الحصرية سواءً كانت يهودية، أو مسيحية، أو هندوسية، أو مسلمة. وتُرتكب أسوأ الجرائم من قِبَل أولئك الذين يدّعون أنهم شعب الله المختار؛ شعب يدّعي البراءة لأنه الضحية الأسمى. فنظرية الضحية المرتبطة بولاءات إثنية-دينية والموجَّهة من قِبَل أشخاص مدنيين متعصّبين مشبَعين بالروح القتالية ومزوَّدين بأسلحة متطورة هي التهديد الأكبر للسلام العالمي والإنسانية. ويجب على التقدميين أن يرفضوا بقوة نظرية الضحية من خلال الكشف عن البرنامج الإمبريالي المعاصر لهذه الضحية وواقع أن العديد من المتحدّرين من هؤلاء الضحايا باتوا

جلّادين قساة. ويجب عليهم رفض استثناءات خاصة تحول دون الإشارة إلى وسطاء صهاينة لممارسة النفوذ وصانعي القرار بالاسم، ولا سيما من قِبَل زملائهم اليهود اليساريين. ولا يُضعف الانتقاد الانتقائي الجوهر السياسي والمصداقية السياسية للناقد فحسب، بل يستحق الشجب الأخلاقي أيضاً لأنه يُنكر حقيقة هامة؛ سياسات المهندسين الصهاينة المتّبَعة لصناعة السياسة الإمبريالية الأميركية.

يجب على التقدميين رفض كل السياسات الإمبريالية سواءً كانت مصمَّمة إسرائيلياً أم لا. ويجب على الولايات المتحدة العودة إلى المبادئ الجمهورية، ولكن، وأثناء الترويج لهذه الغاية، على التقدميين الإشارة إلى اللاتوافقية القائمة بين جمهورية ديمقراطية وبناء إمبراطورية، وبين رأسمالية توسعية واشتراكية ديمقراطية. وبهدف اتّباع الخط التقدمي والمنظور السياسي البديل في التحقيق، يُفترَض بنا توقّع هجوم لاعقلاني، منتقد، ومطوَّل.

وسيكون الخط الأول للهجوم الإيديولوجي، ولا سيّما من قِبَل بنية النفوذ الصهيوني، تكتيك التصنيف؛ إذ ستصنَّف تحاليل انتقادية قاسية بأنها معادية للساميّة لمنع القرّاء والمستمعين من مناقشة الأدلّة المرتبطة بالمسائل وجوهرها. ورد الفعل إزاء ميرشايمر ووالت كما توقّعاه في مقالتهما هو مثال آخر على ذلك. وستصنَّف عملية تفحّص العلاقات بين موظّفي البنتاغون الذين يتّخذون من إسرائيل محوراً لهم والدولة الإسرائيلية بأنها "صفحات من بروتوكولات صهيون" ومشابَهات زائفة أخرى.

سيكون الخط الثاني للهجوم هو دمج النفوذ الصهيوني الحاضر بذلك الذي كان قائماً في الماضي غير البعيد (في الأربعينيات

والخمسينيات من القرن العشرين) عندما كانت الصهيونية إحدى وجهات النظر العديدة في أوساط الشعب اليهودي الأميركي، وعندما كانت أقل تنظيماً وتأثيراً في السياسة ووسائل الإعلام والاقتصاد. وغاية هذا الدمج المضلّل هو المجادلة العنيفة من خلال ذكر أمثلة ماضية لمكامن ضعف صهيونية نسبية، ولعزو وجهة النظر العالمية المتمثلة بمؤامرة يهودية عالمية طويلة الأمد إلى الناقدين وبشكل مغلوط.

الخط الثالث للهجوم والأكثر استحقاقاً للشجب الأخلاقي هو المساواة بين ضحايا الهولوكوست وممارسي إرهاب الدولة في دولة إسرائيل ومؤيّديهم المفكرين وداعميهم في أوساط الصهاينة الأميركيين. واستخدام روابط الدم لإقامة هذه العلاقة عندما لا يكون هناك تشابه اجتماعي-اقتصادي-سياسي يوحي فقط بالطبيعة اللاعقلانية والغامضة والرجعية للإيديولوجية الحالية لليمين الصهيوني. ويكمن الهدف بالطبع بضمان قبول علني للجرائم الإسرائيلية والأميركية/الصهيونية ضد الإنسانية من خلال وصف أعمالهم بأنها تكتيكات دفاعية أو مرتبطة بالبقاء حتى عندما يطلقون العنان لهولوكوست آخر قيد الإعداد لاستهداف الشعوب المسلمة، ولا سيّما ضد لبنان مؤخَّراً. ولا حاجة لدليل على ذلك؛ فقط قدح آثم ومُلهِث من قِبَل منكري الهولوكوست الذي يجري الإعداد له.

بالنسبة إلى الإيديولوجيين الصهاينة، تُقدَّم إسرائيل على أنها تجسيد للقيَم العالمية والحرية والعدالة، ومن ثمّ يوصف أولئك الذين ينتقدون إسرائيل بأنهم مؤيّدون للدكتاتوريات العربية، والقمع، والظلم، والإرهاب. تستحق القيَم العالمية المذكورة التأييد، ولكن

هناك أدلة وافرة على أنها لا تمارَس في إسرائيل؛ حيث يعامَل العرب، مسلمون ومسيحيون، كمواطنين من الدرجة الثانية؛ وحيث الموت والدمار والإبادة الجماعية هي الغذاء اليومي للفلسطينيين؛ وحيث تهدّد أسلحة إسرائيل النووية جيرانها في الشرق الأوسط(1).

أخيراً، سيسمع أحدكم من الصهاينة الحجة النسبية: "جرائم إسرائيل ليست أسوأ من الجرائم التي تُرتَكب في بلدان عدة من العالم". ولكن عدداً قليلاً من البلدان (باستثناء الولايات المتحدة) تستعمر بلداً مجاوراً، وتقصف الأعداء دون التعرّض لأي عقاب (وتقتل أعداداً كبيرة من المتفرّجين الأبرياء)، وتخزّن رؤوساً نووية انطلاقاً من مبدأ دفاعي، وتضمن القسم الأكبر من المعونة الخارجية الأميركية بما في ذلك تكنولوجياتها الأكثر تطوّراً، وتتحكم بأصوات أعضاء الكونغرس في الولايات المتحدة في ما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط، وتحدّد البرنامج السياسي الشرق الأوسطي لمرشّحي الرئاسة، وتعذّب آلاف السجناء السياسيين بشكل روتيني (وترسل مستشارين إلى كافة أنحاء العالم لتعليم كيفية القيام بذلك)، وتمارس القانون التوتاليتاري للعقوبة الجماعية على المقاومة الشعبية.

هناك أسباب عديدة وعميقة لاختيار إسرائيل من بين كل الدول لإدانتها لأنه، وفيما يمارس العديد من البلدان بعض أعمال إسرائيل الظالمة، تتمتّع إسرائيل وشبكاتها ما وراء البحار في الولايات

(1) يولي كرومتشنكو، "نتائج الاقتراع: 64% من اليهود الإسرائيليين يدعمون تشجيع العرب على المغادرة"، هاآرتس، 22 حزيران/يونيو 2004. وذاكراً استفتاء أجراه مركز الدراسات الأمنية في جامعة حيفا الوطنية، فإن 25% من الإسرائيليين اليهود سيدعمون حزب كاخ العرقي المحظور في الانتخابات.

المـــتحدة بمجموعة كاملة من العلاقات مع مراكز النفوذ التي لا تهدّد شعب فلسطين المقموع فحسب، بل حقوق شعوب العالم أيضاً.

ولن تكون مواجهة هذا الهجوم الإيديولوجي أمراً سهلاً لأن القـــدرة علـــى الاســـتفادة من وسائل الإعلام غير متكافئة تماماً. والمعارضـــة مـــنظّمة جـــداً، ومستقرة بطريقة استراتيجية، ومموَّلة بطريقة جيدة. ولكن بما أن جرائم السياسة وإخفاقاتها تغدو أكثر وضـــوحاً، ولا سيما بازدياد الإخفاق الأميركي في العراق عُمقاً وانكـــشاف المخطط الإسرائيلي لتدمير لبنان، واستمرار المحافظين الجدد بالتقدّم في اتجاه تحقيق برنامج أكثر خطورة ضد إيران، بات المـــزيد مـــن الأميركـــيين راغبين بشكل متزايد في الحصول على إجابات، موفّرين لمنتقدي العلاقة الإسرائيلية-الصهيونية بالبنتاغون فرصـــة كـــبيرة للكشف عن الروابط التي تجمع هؤلاء الأطراف وإضعافها.

عـــلاوةً علـــى ذلـــك، هناك رأي عام شعبي لصالحنا خارج الـــولايات المتحدة: في أميركا اللاتينية وأوروبا وأفريقيا وآسيا؛ تعتبر الغالبـــية الـــشعبية العظمى إسرائيل تهديداً لا قوة للسلام. ولا يواجه الـــيهود العلمانيون والديمقراطيون في أي مكان آخر في العالم مشكلة انـــتقاد الصهاينة الأميركيين وصانعي السياسة البارزين في البنتاغون التابعين لهم. ولا يملك الصهاينة الذين يتخذون من إسرائيل محوراً لهم نفـــوذاً في أي مكان كالنفوذ الذي يتمتعون به في الولايات المتحدة. وحتى في إسرائيل هناك أقلية من اليهود الذين يزدرون علانيةً صهاينة البنـــتاغون وسلـــسلة حـــروبهم المقترَحة؛ هم يزدرون بصفة خاصة الإيديولوجيين الصهاينة كريتشارد بيرل ودوغلاس فيث اللذَين كانا

راغبَين منذ زمن بالتضحية بآخر جندي يهودي خدمةً لفكرهم التي تنمّ عن إصابة بجنون العظمة والمتمثلة بإسرائيل الكبرى.

في معــركة الأفكار هذه، نملك العديد من الحلفاء حول العالم، وأفكارنــا وتساؤلاتنا على صلة وثيقة بالموضوع وسيتردّد صداها في هذا الزمن، زمن القلق العميق الذي ينتاب الشعب الأميركي. فلنباشر بتحريــر بلــدنا وأفكارنا وسياساتنا من الاستعمار كخطوة أولى في مــسيرة إعــادة بــناء جمهورية ديمقراطية غير مرتبطة بأي تحالفات استعمارية وإمبريالية جديدة مُربكة!





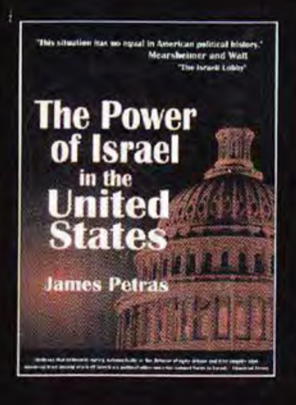


«مـرة أخـرى، يصطحبنـا جايمس بتراس في رحلـة الحقيقة الشجاعـة – بأسلوب سلس وشفـاف، وصدمات واقعية عنيفة، وبحث متمكّن، وتحليل مُقنِع. إنه كتاب ملهم لكل مؤيّد للديمقراطية. يجب قراءته».

– مـايكل بـارنتي، مؤلّف «صراع الحضـارات» و«وطنية مفرطة».

«جيـم بتراس هو أحـد الأشخاص الشجعان القلائل في المجال الأكاديمي وخارجه الذين ألقوا نظرة نقديّة على اللوبي المـوالي لإسرائيـل وتأثيره في سياسة الولايـات المتحدة حيال الشـرق الأوسط، وتحدّوا "الحكمـة التقليدية" لليسار القائلة إن إسرائيل تتصرف كشرطي يؤدّي عمله ولا يخدم إلا المصالح الإمبريالية لأميركا».

– جيف بلانكفورت، مرجع يهودي رائد في اللوبي اليهودي الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة.



«جيـم بتراسن هو أحـد العلماء السياسيـين الأفضل اطّلاعـاً بين أبناء جيلـه الذين لا يتجنّبـون مناقشة المسائل العسيرة. يتطرّق في هذا الكتاب إلى مسألة مماثلة ويعالجها بطريقة تحمل طابع تحدٍّ بشكل خاص».

– توم براس، محرر ذي جورنـال أوف بيزنت ستاديز.

«نسمة هواء عليل. يجب إشراك هذا الناقد في الشؤون الداخلية للبلاد إذا كان اليسار راغباً باستعادة مكانته في المجتمع».

– إسرائيل شامير، يافا، كاتب روسي–إسرائيلي مفكر ومترجم وصحـافي.

«تحليـل مثير لموضوع جدّي يُفترَض مناقشته على نطاق واسـع... يُفلح هذا الكتاب في الكشـف عـن النفـوذ والتأثير الكبيريـن لإسرائيـل واللوبي اليهـودي في تحديد شكل السياسة الأميركية المتّبعة حيال الشرق الأوسط».

– برش بربروغلو، دكتور في الفلسفة في جامعة نيفادا، رينو؛ مؤلف كتاب اضطراب في الشرق الأوسط.

«تحليل متميّز للآلية السياسية المسؤولة عن هذا الكمّ الكبير من المعاناة في الشرق الأوسط: علم اجتماع مساوٍ لأوبرا جون أدام كلينغوفر. لامع وواقعي».

– جون ساكس–فرنانديز، مرجع عـالمي رائد في شؤون السياسة الخارجية الأميركية وصناعة النفط. جامعة المكسيك الوطنية المستقلّة.

جايمس بتراس هو أستاذ بارتل (إمريتوس) لعلم الاجتماع ومحاضر في جامعة بينغامتن، نيويورك. ألّف 62 كتاباً تم نشرها بـ 29 لغة، وأكثر من 560 مقالة نُشرت في صحف احترافية، بما فيها أمريكان سوسيولوجيكال ريفيو، بريتيش جورنال أوف سوسيولوجـي، سوسيـال ريسرتش، وجورنال أوف بيزنت ستاديز. نشر أكثر مـن ٢٠٠٠ مقالة في صحف غير احترافية مثل نيويـورك تايمـز، غارديـان، نايشـن، كريستشن سايـنس مونيتر، فوريـن بوليسـي، نيو لفـت ريفيو، تمبس مـودرن، لو موند ديبلوماتيـك، وتُنشـر تعليقاتـه علـى الإنترنت على نطاق واسـع. حائز على جائزة 'لايـف تايم كارير' التـي تقدّمها جمعية علم الاجتماع الأميركية، وجائزة روبرت كنيدي لأفضل كتاب، 2002.


ISBN 978-9953-87-215-5



